مذكرات عن

رحلة عبر الجزيرة العربية

من القطيف في الخليج (العربي) إلى ينبع على البحر الأحمر

خلال عام ١٨١٩

تأليف

الكابتن ج. فورستر سادلير

قائد الفوج ٤٧

جمعت من سجلات حكومة بومباي عن طريق

ب . ريان راسك

مساعد سكرتير الحكومة

بومباي

طبع في مطبعة الثقافة الاجتماعية في بايكولا

١٨٦٦

سعود بن غانم الجمران العجمي

ص ب ٢٨٢٤ الصفاة الكويت

هاتف ٨٧٠٥٠٥

ملاحظة

ماورد في هذا الكتاب من آراء ومعلومات يمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة ولا يتحمل الناشر أية مسؤولية عن ذلك .

الناشر

الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م



طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف التصويري ،
وبالأوفست في **دار الفكر** هاتف (٢١١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب(٩٦٢)دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

اللهم صل وسلم على سيد الأولين والآخرين نبيك ورسولك وعبدك محمد بن عبد الله صفوة الأنبياء والمرسلين ، حامل لواء الحق والدين الذي أرسلته بشيراً ونذيراً للعالمين . أما بعد :

فلا يخفى على كريم انتباه القارئ العزيز ما كان لدي من رغبة شديدة في البحث والتنقيب عن كل ماله صلة بتاريخ بلادنا العزيزة حيث أعتقد أن هذه المهمة الخطيرة بحاجة ماسة إلى تضافر كل جهود المخلصين لكشف ما يمكن من الوثائق والمخططات والكتب التي تساعد في تسليط الأضواء على جوانب مهمة من تاريخنا القديم وذلك لندرة ما كتب عنها حيث لم يصل إلينا من ذلك إلا النذر القليل ، وبعضه لا يفي بالغرض ، وذلك لقلة من كتب عنها في القرون الماضية بسبب تفشي الأمية في ذلك الزمان وتأخر وصول المطابع واستمرار حدوث الحروب والفتنة التي يتلف بسببها الكثير من الكتب والمخطوطات فضلاً عن ندرتها إن وجدت ، وإذا بقي شيء من ذلك فهو يعتمد الإيجاز والاختصار في بعض الحوادث ويتجاهل البعض الآخر أو يجهله ، الأمر الذي حدا بنا إلى البحث عن مصادر أخرى لتاريخ هذه المنطقة لدى الجهات الأجنبية التي كانت على صلة مباشرة بالأحداث في تلك الفترة ، مثل وثائق الحكومة البريطانية ووثائق الحكومة العثمانية والحكومة الفارسية ، وهذه الدول الثلاث كانت لها أقوى الصلات بمنطقة الخليج العربي وقلب جزيرة العرب .

فالحكومة البريطانية وضعت يدها على الهند وبدأت أساطيلها التجارية تمارس التجارة مع أقطار الخليج والعراق العثماني وبلاد فارس وغيرها وكانت تعطي هذه التجارة أهمية عظمى وبسببها كانت صلتها بالخليج قوية جداً . وكان لها وكلاء في بغداد والبصرة ومسقط وبوشهر وهرمز وغيرها ، وكان وكلاؤها يكتبون لها التقارير الرسمية بشكل دقيق يكشف عن أوضاع الخليج السياسية والاقتصادية بصورة مستمرة ، لتكون حكومتهم على اطلاع تام بمجريات الأحداث في هذه المنطقة ، الأمر الذي جعل تلك التقارير والوثائق من الأهمية بمكان لندرة ما كتب أهل المنطقة العارفون بأحوالها وأحداثها ، الأمر الذي جعل الباحثين في تاريخ منطقتنا محصورين في هذه الدائرة رغم كونها تمثل وجهة النظر الاستعمارية البريطانية التي لا نتفق معها في الكثير من الآراء .

أما وثائق الحكومة العثمانية ذات الصلة بأحداث هذه المنطقة فلم ينشر منها إلا القليل رغم أن متحف مجلس الوزراء العثماني يضم الكثير منها عدا العديد من المتاحف ودور الكتب العثمانية في إسلامبول ، وفي ظني أن هذه الوثائق تتضمن الكثير من المعلومات والتقارير الدقيقة عن تاريخ منطقتنا ، الأمر الذي يحتم الاهتمام الشديد بتصويرها وترجمتها على يد هيئات مختصة تمولها حكومات المنطقة ومؤسساتها العلمية مثل الجامعات ودور الوثائق والتاريخ فيها .

أما الوثائق المصرية والتي لا تزال محفوظة في دار الوثائق القومية بالقاهرة فقد قيض الله لها أحد الباحثين المتخصصين وهو الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فأصدر كتابه (الدولة السعودية الأولى) وألحق به ملحقاً تضمن العديد من الوثائق المتعلقة بأحداث بلادنا في مطلع القرن الثالث عشر هجري الثامن عشر ميلادي والخاصة بغزو محمد علي باشا للحجاز ونجد والساحل الغربي للخليج ، ثم قام الدكتور بإصدار كتابه (محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٢٣٤ ـ ١٢٥٦ هـ) في مجلدين يضم الأول ٨٦٥ ص والثاني ٦٧٠ ص وقد ضمنها

مئات الوثائق المتعلقة بأحداث وتاريخ شبه الجزيرة العربية والتي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها .

وقد أخبرني الدكتور المشار إليه أنه بصدد إصدار أجزاء أخرى لهذا الكتاب تتضمن مابقي من وثائق تلك الفترة .

أما وثائق الحكومة الفارسية فلم يكشف النقاب عنها حتى الآن ولا بد أن يكون فيها الكثير عن أحداث ذلك الزمن .

وبشأن هذا الكتاب الذي نقدمه مترجماً إلى العربية بين يدي القارئ الكريم لأول مرة فقد قام بتأليفه الكابتن سادلير مبعوث الحكومة البريطانية في الهند إلى إبراهيم باشا قائد القوات المصرية الغازية للحجاز ونجد ، وقد حمل معه كتاباً من الحاكم العام للهند وسيفاً هدية لإبراهيم باشا ، وكان الهدف من رحلة سادلير إلى نجد مقابلة إبراهيم باشا وطلب مساعدته العسكرية للهجوم على قواسم رأس الخيمة الذين كانوا خاضعين للسيادة السعودية ، حيث أقضوا مضجع الإنجليز في مياه الخليج وحتى تخوم سواحل الهند ، وقد قابل سادلير في طريقه إلى الخليج سعيد بن سلطان إمام مسقط وتحدث معه في كيفية القيام بهجوم مشترك ضد القواسم ، ثم أبحر إلى أبوشهر ومنها إلى القطيف ثم إلى الأحساء ومنها إلى نجد ثم علم أن إبراهيم باشا رحل إلى المدينة المنورة فاضطر إلى اللحاق به حيث اجتمع به في آبار علي ثم ذهب إلى ينبع ومنها إلى جدة حيث قابل الباشا هناك مرة أخرى وذلك عام ١٩١٩ م ثم غادر جدة إلى المُخا بحراً ومنها إلى الهند عائداً عن طريق البحر أيضاً .

ولقد دون الكثير مما رآه وصادفه في هذه الرحلة الطويلة الشاقة وكتب الكثير عن أحداث ورجال تلك الفترة وعن البلدان والقرى والمياه والأراضي التي مر بها وهو الأوربي الوحيد الذي اخترق جزيرة العرب من شرقها إلى غربها ،

ورغم كونه غريباً عن المنطقة ولم يسبق له ارتيادها فقد استطاع أن يكتب الكثير عنها ، الأمر الذي حدا بنا لترجمة كتابه هذا ونشره لعل القارئ الكريم يجد فيه بعض الفائدة المتوخاة لتسليط الضوء على جزء من أحداث تلك الفترة ، خاصة وأن سادلير قد رأى بعينه ماأحدثه إبراهيم باشا ببلادنا من خراب ودمار الأمر الذي جعله ينحي باللائمة الشديدة على هذا الباشا الطاغية لما جنته يداه من الجرائم الفظيعة بحق هذه البلاد المباركة وأهلها الذين قامت على أكتافهم الصحوة الإسلامية في عصرنا الحديث . بما يعطي القارئ شهادة محايدة عن جرائم محمد علي باشا وأولاده في هذه البلاد .

لقد قامت الحكومة البريطانية بطبع هذه المذكرات عام ١٨٦٦ في بومباي وبقيت منها نسخة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن استطعت أن أصورها وأكلف الأستاذ أنس الرفاعي بترجمتها ترجمة صحيحة وسليمة إن شاء الله ثم قمت بتحقيقها وكتابة ما يلزم من تعليقات عليها لزيادة الفائدة ثم ألحقتها بمجموعة من الوثائق المتعلقة بأحداثها نقلاً عن كتب الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم السالفة الذكر .

وإني لأرجو أن يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب وملحقاته ما يفيده عن جانب من تاريخ تلك الفترة ، ملتمساً من كرمه غض الطرف عن أي تقصير أو هفوة والكمال لله وحده ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحقق والناشر
سعود بن غانم الجمران العجمي
ص ب ٢٨٢٤

الصفاة ـ الكويت : ١٩٨٢/١١/٢٥

مقدمة[1]

تحوي الصفحات التالية قصة رحلة نفذت منذ حوالي نصف قرن مضى بإشراف الكابتن فورستر سادلير التابع للجيش البريطاني عبر شبه الجزيرة العربية ، المنطقة التي نُقبت حديثاً بدرجة تفوق المعتاد من الاهتمام بما كشفه للعيان السيد جيفور بالغريف .

عُين الكابتن سادلير من قبل حكومة بومباي عام ١٨١٩ للمباشرة في مهمة إلى معسكر إبراهيم باشا الذي كان في ذلك الوقت مشغولاً في تدمير النفوذ الوهابي في الجزيرة العربية .

باختصار كان هدف مهمته أن يهنئ الباشا على النجاحات التي حققها ضد الوهابيين ، والتي كانت أيضاً حصيلتها النهائية الاستيلاء على مدينتهم الأساسية الدرعية . وليؤكد له أيضاً مدى ميله إلى التعاون مع الحكومة البريطانية لتخفيض أعمال القرصنة الوهابية في الخليج العربي . (١)[2]

ولكن بسبب عدم معرفة مركز الباشا في الجزيرة بشكل دقيق من قبل حكومة بومباي فإن الكابتن سادلير وُجِّه بادئ ذي بدء لزيارة مسقط لغرض الاتصال بالإمام من أجل الحملة المعتزمة ضد قبائل القرصنة في الخليج ، وللحصول على معلومات بصدد الطريق الذي قد يتمكن باتخاذه من الوصول إلى هدفه .

(١) بقلم الناشر الأول باللغة الإنجليزية عام ١٨٦٦ م .

(٢) وضع المحقق هذا الرقم وأمثاله حتى الرقم (١٦) في مواضع من الكتاب للإحالة به إلى التعليقات التي سترد بين الصفحة (١٨٧) والصفحة (٢٣٤) .

وبدلاً من أن يجد باشا مصر على شواطئ الخليج وأن يقضي فترة مهمته في المعسكر الذي على اتصال بالقوة البريطانية فإن الكابتن سادلير قد أجبر على القيام برحلة شاقة تعادل اثني عشر ألف ميل عبر صحراء الجزيرة العربية مبتدئاً بالقطيف التي على الخليج المجاورة للأحساء وحتى ينبع على البحر الأحمر . حقاً إنها لمغامرة لم يسبق لأي أوربي أن حاول القيام بها .

علقت الجمعية الأدبية في بومباي عام ١٨٢١ في تقرير نشرته عن هذه الرحلة الرائعة تقول :

« لا يُتصور أنه بوسع الكابتن سادلير أن يعطي تلك الدقة الجغرافية البالغة عن طريقه الذي ربما كان يرغب في أن يسلكه مهما كان السفر ناشطاً وفريداً عبر دولة لم يسبق أن تأكد فيها موضع مضبوط لبلدة واحدة منها ، وأنه من جهة أخرى غير مزود بالأجهزة الضرورية ، لكنه بلا شك كان يقظاً وحريصاً أولاً على تحديد اتجاه مسيره المرة تلو الأخرى بواسطة بوصلة في غاية الجودة . وثانياً على ملاحظة الزمن الدقيق الذي يستغرقه ترحاله في كل يوم . فعن طريق مثل هذه الوسائل ربما أمكنه الوصول إلى أقرب نقطة نحو الحقيقة » .

تركز القسم الرئيسي من رحلة الكابتن سادلير عبر مناطق الهجر أو البحرين ونجد التي كانت مقر سكنى قبائل البدو ، الذين لابد لنمط حياتهم الخاصة وللصحارى التي اتخذوها لهم موطناً من أن تمنع حصول أي تحول ملموس في سلوكهم وعاداتهم وأسلوب حكمهم ، ومن هنا نجد أن الوصف الدقيق الذي وصفهم به نيبور الفرنسي منذ ثمان وخمسين سنة مضت صحيح وعادل حتى الآن (عام ١٨١٩) ، فهو يعلق بصدد الهجر قائلاً :

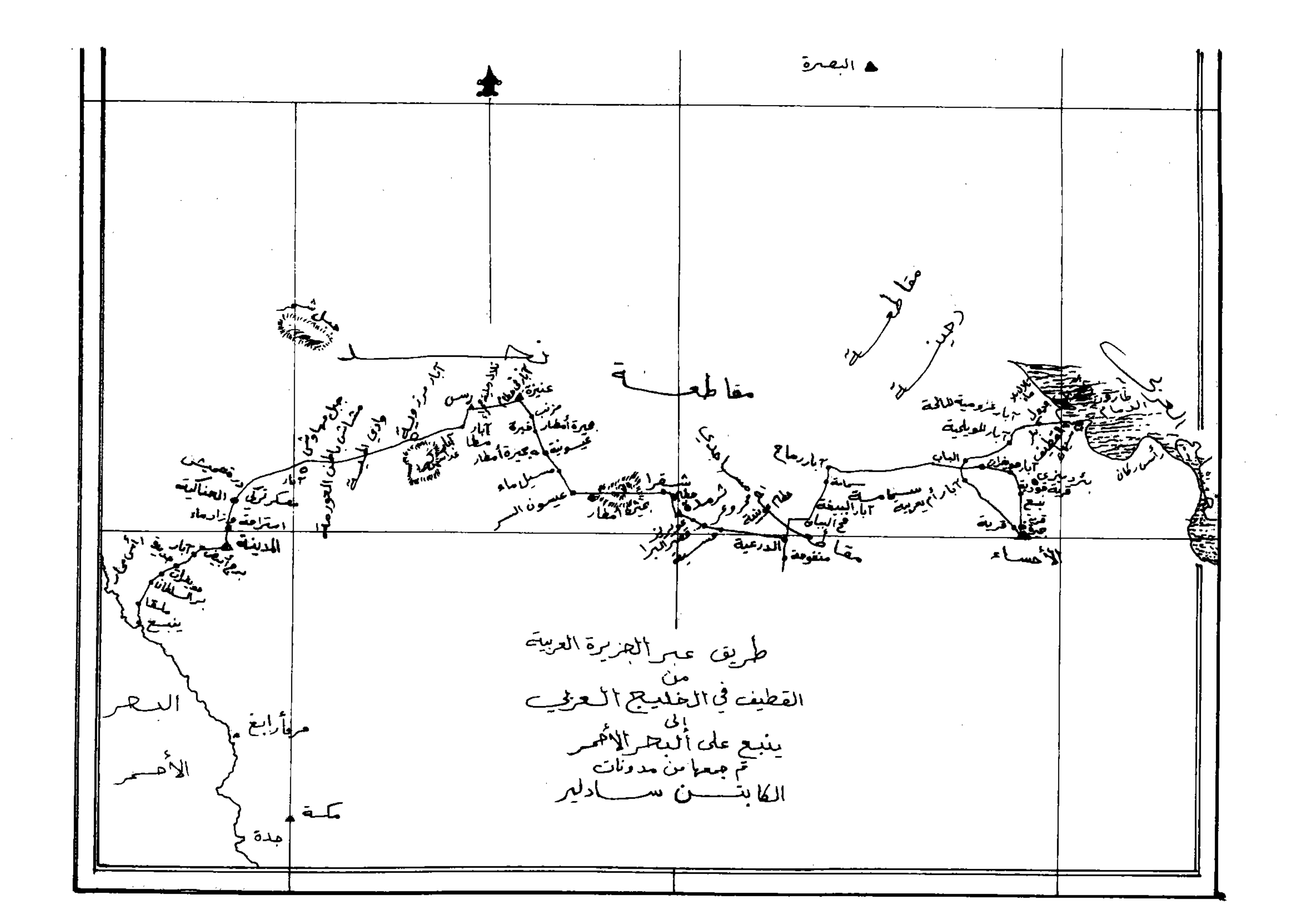
« كان القطاع كله يخص قبيلة بني خالد التي تعتبر أقوى القبائل العربية ، وهي متشتتة في الصحاري وكانت غالباً ما تقلق القوافل بين بغداد وحائل . أما الشيخ الحاكم فيها فيدعى عريعر ، وأكبر قسم من هذه المنطقة يسكنه البدو ، كما

أنه لاتوجد قبائل عديدة تُقِر بسيادة بني خالد ، وليس في المنطقة مدن عديدة وكانت الأحساء مقر الشيخ الحاكم » .

يذكر الكابتن سادلير أن الأحساء والقطيف وأكبر قسم من هذه المنطقة كانت قد أُخضعت من قبل الأتراك ، وأنه بينما كان إبراهيم باشا يسحب جنده من ذلك القسم من الجزيرة العربية أعيدت الأحساء والبلدان التابعة لها إلى بني خالد ولكن بشرط أن يدفعوا جزية للباشا الذي طالب بنسبة من الدخل الإجمالي كتعويض له مقابل تكاليف الحرب ولإعادة توطين القبائل في أماكنها وممتلكاتها السابقة . ثم يختم نيبور تقريره عن الموانئ البحرية لهذه المنطقة بتعليقه عن الداخل قائلاً : « لاأعرف بالتأكيد أية صفات خاصة عن المدن الأخرى والقرى التي في داخل هذه البلاد » .

من هذه النقطة نعلم أن يوميات كابتن سادلير ستحمل معلومات هامة وجديدة .

أما بالنسبة لما يمكن أن يُجمع من سجلات حكومة بومباي بصدد السيرة العامة لحياة الكابتن سادلير فإنها قليلة جداً ، فهي تذكر أنه كان الضابط المسؤول عن الفوج السابع والأربعين ، وأن اللورد هاستينغز كان هو الذي لفت نظر حاكم بومباي ، السيد إيفان نيبيان ، إليه . وكان الكابتن سادلير قد قدَّم نفسه وأوضح عن مؤهلاته للسيد هاستينغز عندما كان مستخدَماً في بلاد الفرس ، وإن أسلوبه الناجح الذي قام بتنفيذه في مهمته إلى إبراهيم باشا قد دفع الشريف السيد ألفينستون لدى عودة الكابتن سادلير من الجزيرة العربية عام ١٨٢٠ إلى أن يعهد إليه بمهمة إلى أمراء السند الذين أبدوا بشكل واضح رغبتهم في تحسين علاقاتهم مع الحكومة البريطانية وقد عاد الكابتن سادلير من السند في مايو (أيار) من عام ١٩٢١ وانخرط ثانية مع فوجه في الهند ، الذي يبدو أنه قد انطلق معه باتجاه إنكلترا عام ١٨٢٥ إلى غير رجعة . (٢)


طريق عبر الجزيرة العربية
من
القطيف في الخليج العربي
إلى
ينبع على البحر الأحمر
تم جمعها من مدونات
الكابتن سادلير
البصرة
مقاطعة نجد
مقاطعة الأحساء
رمال الدهناء
الخليج العربي
البحر الأحمر
المدينة
ينبع
مكة
جدة
رابغ
الأحساء
القطيف
الدرعية
منفوحة
شقراء
عنيزة
الرس
الحناكية
عيون الس
مسيل ماء
الباب
قرية
سبع
آبار رماح

ملاحظات
على
الطريق عبر الجزيرة العربية
من
القطيف على الخليج العربي
حتى
ينبع على البحر الأحمر

وضعت نصب عيني طريقاً عبر الجزيرة العربية من القطيف إلى ينبع بُغية توضيح الاتجاه العام لمسيري بحيث أتمكن من إظهار المناطق ذات الصلة بهذا الطريق ، من المدن والأماكن التي مررت بها في هذه الرحلة أو لأقدم رواية عن بطولات سعادة إبراهيم باشا بشكل يسبق في وضوحه كل ما رُوي عنه . (٣)

اضطررت في المراحل الأولى من مسيري إلى أن أطرق باب التخمين بالنسبة للمسافات لأن مداركي لم تكن قد استوعبت بعد مدى خطا الجمال وسرعتها بشكل كاف بحيث أتمكن من تشكيل فكرة عن معدل السرعة التي كنا نسير بها ، لكن ملاحظاتي الدقيقة وتوقيتي لسير هذا الحيوان مكنتني خلال أيام قلائل من أن أشكل رأياً أقرب ما يكون إلى الصحة . ومن هنا استنتجت معدل السرعة العادية لسيري بحساب عدد الساعات التي كنا نمشيها بشكل فعلي .

لاحظت أنه عندما كان المسير لا يتجاوز ثماني ساعات كانت السرعة ثلاثة أميال في الساعة ، وعندما كان يتجاوز ذلك العدد من الساعات كانت تنخفض المسافة المحسوبة إلى ما بين ميلين ونصف وميلين وثلاثة أرباع الميل في كل ساعة ، وكان هذا الانخفاض في السرعة يتسبب عن الأراضي الجبلية والصخرية .

كنت أحصل على الاتجاه العام لخط السير بين الفينة والفينة عن طريق بوصلة في غاية الجودة ، فأترجل في كل مرة عن جملي ، لأن حركته المتموجة بشكل مستمر لا تسمح باستعمال البوصلة حتى عندما يكون بطيئاً في سيره .

تابعنا رحلتنا من القطيف على مراحل متقطعة حتى أم رُبيعة في الصحراء ، ومن هناك سلكنا طريقاً تقهقرياً وغير مباشر حتى وصلنا الأحساء ، ولسوء طالعنا سلكنا منها طريقاً آخر فعاد بنا إلى أم ربيعة بشكل لم نكن نتوقعه . وعندما وضعنا رحالنا عند تلك النقطة تبين لنا أن خطأ بسيطاً سبَّب تلك المشكلة ، ولم تزد المسافة عن سبعة أو ثمانية أميال .

انطلقنا من هذه المنطقة ثانية عاقدين العزم على المتابعة إلى الدرعية ، لكن حادثاً مؤسفاً منعنا من عبور هذا الطريق فأخذنا نجول في الصحراء للمرة الثانية إلى أن وصلنا إلى منفوحة والرياض الواقعتين جنوبي الدرعية ، حيث كانتا المنطقتين الوحيدتين اللتين مررنا بهما ووجدنا فيهما أثراً لاستيطان أفراد من بني البشر خلال مسيرنا مدة أربعة عشر يوماً أي منذ أن غادرنا الأحساء .

ومن منطقة درعية تابعنا باتجاه عنيزة وهي إحدى المدن الرئيسية في الجزيرة العربية . ولقد كنت خلال الطريق أسأل الأدلاء والبدو الذين رافقونا عن المسافات ، وعن البلدان التي صادفتنا . وكم كانت دهشتي كبيرة عندما توافق رأيهم جميعاً على أنه لابد لنا من المرور في شقرا قبل أن نصل إلى عنيزة ، لأن مكاني هاتين البلدتين بالنسبة لدرعية مقلوبين على الخريطة المطبوعة .

بعد مغادرتنا لشقرا وصلنا أخيراً إلى عنيزة والرس ومن هناك انطلقنا مكرهين نحو المدينة المنورة التي حدَّدْتُ مكانها على الخرائط الجديدة لعام ١٨١٩ وفقاً لخطي الطول والعرض الجغرافيين المعينين لها . ومع أن حساباتي لم تذهب بي بعيداً نحو الجنوب فإني كنت راضياً عن انحراف البوصلة الضئيل خلال المسير باتجاه الغرب ، لكن هذا الانحراف بدا ذا أهمية بالنسبة لخط عرض ينبع الذي بلغ ما يقرب من درجة كاملة .

وعندما اقتربنا من المدينة المنورة حصل حادث سيئ حال دون قيامي بتدوين أية ملاحظات خلال الالتواءات المذهلة ونحن في طريقنا عبر وديان تفوق ما اعتادت عين الإنسان أن تراه وتألفه ، وهي التي تهيئ طريق العبور والاتصال من خلال سلسلة الجبال التي تفصل الحجاز عن نجد لكن هذا الوادي كان في غاية الضيق ، وكان تعداد قافلتنا كبيراً جداً ، فلم نستطع أن نسير فيه كجسد واحد . ولا أتصور أننا تجاوزنا الميلين في كل ساعة خلال هذا الجزء من الرحلة .

ولقد أضفت أسماء كثيرة لأماكن لا أثر لها على أية خريطة مطبوعة للجزيرة العربية لكني حصرت هذه الإضافة بالأماكن التي مررت بها بنفسي ، والتي ذكرت الكثير منها خلال روايتي عن حملة سعادته ضد الوهابيين .

ولدى مقارنة هذا الطريق مع خرائط الجزيرة العربية التي تحت الطبع تبين أن المواضع التي عينتُها لكثير من الأماكن تختلف عن نظيراتها التي على الخرائط بشكل ملموس ، فموضع شقرا التي سبق لي أن ذكرتها ـ وهي نموذج لمكان كنت فيه على صلة وثيقة بالخرائط ـ ينبغي أن يكون بعيداً جداً نحو الشمال عن مسرح بطولات سعادته ، وهذا يختلف عن الرواية التي تضع شقرا في طريقه كعائق لتقدمه نحو درعية وحتى سقوط الرس وعنيزة وغيرهما . ولو كان موقع شقرا عند سفح جبل شمّر ، كما سبق أن وضعها بينكرتون ، لكان على الباشا أن

يزورها عندما قام بحملته إلى ذلك المكان من منطقة الحناكية وقد حدث ذلك قبل معركة جبل مهاوش (مواش Mawuch) . (٤)

يضع السيد بينكرتون المدينة المنورة أبعد إلى الجنوب من وضع أروسميث وليك لها ، كما أن جميع الجغرافيين يختلفون عن بعضهم بعضاً في خطوط العرض بالإضافة إلى خطوط الطول التي يحددونها للأماكن التي يذكرونها داخل هذا الجزء من الجزيرة العربية بشكل خاص .

يدفعني هذا الأمر إلى تصور أن الخرائط قد جمعت وصنفت اعتماداً على روايات البدو وأنه لم يسبق للمواضع الدقيقة لتلك الأماكن أن أُكِّدت بالمسائل الرياضية الدقيقة ، فهؤلاء البدو تنقصهم خبرات كثيرة في معرفة المواضع النسبية للأماكن وأبعادها ، إذ ليس لديهم مقياس ثابت لحساب المسافات أمثال الميل وغيره ، فطريقتهم المعتادة لتقدير الزمن إنما هي مسيرة اليوم ، حيث يشير بزوغ الشمس إلى الشرق وغروبها يشير إلى الغرب أو إلى اتجاه مكة بينما يكون النجم الشمالي وبعض النجوم الأخرى من معارف العرب الذين يتسمون بنسبة أعلى من الذكاء . لكنهم بشكل عام لا يتحلون بنسبة من الذكاء تعادل ما يشتهر به بعض الهنود ، من أجل هذا كله قيدت نفسي في مثالي الحالي الذي ضربته عن شقرا بملاحظاتي الشخصية .

ولا أتوقع وجود الدقة الكاملة عن رحلتي هذه طالما أنها مرت من طريق عبر منطقة لم يسبق أن تعين فيها موضع ولو لبلدة واحدة فيها على وجه الدقة ، وبشكل خاص عندما يؤخذ بعين الاعتبار أنه لا يوجد بين يديَّ سوى وسائل محدودة جداً ، هذا بالإضافة إلى حالة الانعزال والوحدة التي كنت أعانيها ولم أكن أتوقعها أبداً .

مذكرات

الرابع عشر من نيسان (أبريل) عام ١٨١٩ :

في صبيحة الرابع عشر من نيسان تلقيت تعليمات للإشراف على هذه المهمة التي تم ترتيبها بأمر من الشريف السيد نيبيان حاكم بومباي وانطلقت على سفينته الحربية ـ ثيتيس ـ بقيادة الكابتن تَنَر ، وقد هُيِّئ هذا المركب خصيصاً لهذه المهمة . وقد تلقى قائد السفينة تعليمات بالتوجه أولاً نحو مسقط لأتمكن من الاتصال بإمامها ، لذلك هيأنا أنفسنا للإبحار دون أي تأخير ، لكن أملي في إنجاز عبور سريع قد أُحبط بسبب هذا الفصل من السنة الذي جعلنا نضجر من الرحلة من بدايتها .

وعلى الرغم من أن السفينة شراعية بصاريين وتحوي أربع عشرة بندقية فإنها كانت سيئة الترتيب من ناحية بنيتها من أجل الإبحار ، وهي من النوع الصغير جداً ، فلم يبق فيها سوى فراغ صغير من أجل الحقائب والأمتعة . لذلك أذن لي بإرسال الخيام التي صنعت من أجل رحلتي إلى بوشير في مركب لتاجر متوجه إلى نفس المكان ، وهذا بدوره يدل على التوفيق في ترتيب الأمور لأنه لم يكن بإمكان المركب ثيتيس أن يستوعبها ، وقد اضطررنا إلى وضع الهدايا التي كنا مزودين بها على ظهر القارب .

السادس عشر من نيسان (أبريل) :

صادفنا في مساء السادس عشر من نيسان سفينة ـ كونواي ـ الخليجية ،

فدفعتني الرغبة في الحصول على معلومـات إلى مرافقـة الملازم أول تنر الـذي توجـه بالسفينة للقيام بزيارة للكابتن برناردو الذي أعلمنا أنه لم تنفـذ أيـة عمليـة تخريب من قبـل الجـواسميين في الخليـج منـذ عـدة أشهر ، على الرغم من أن الشكاوى عن أعمالهم الوحشية التي نفذوها في جهات أخرى كانت كثيرة جـداً ، وذكر أيضـاً أنـه صادف يوم أمس زورقاً فارغاً في البحر ، توقع أنه منهوب بأعمال القرصنـة ونظراً لكون الـدكتور كولكـوهـاون (المنـدوب السـامي الأخير في البصرة) مسـافراً في السفينة فقد ذكرت له الغرض من رحلتي هـذه فـأعلمني أنـه من حوالي سـتـة أشهر مضت كانت القـوافـل معتـادة على المرور بشكل متـواصـل بين بصرة والمعسكر التركي ، لكنه حدث مؤخراً أن انقطعت الاتصالات والعلاقات نتيجة لسوء تفـاهم حصـل بين إبراهيم بـاشـا وبعض القبـائـل العربيـة كما أنـه بيّن على أيـة حـال أن الاتصال بين بوشير والقطيف كان مفتوحاً على شكلـه المعتـاد ، وأنـه لاحـظ بـأن سلـوك هـذا الطريـق أسهـل للـوصـول إلى الجيش التركي من طريـق بصرة . أمـا بالنسبة للبحرانيين فلم يكن لديه علم عن طُروِّ أي تعديل .

الرابع من أيار (مايو) :

انقطعت رتـابـة رحلتنـا البحريـة بعـد ظهيرة الرابـع من أيـار (مـايـو) باكتشاف بر على مسافة بعيدة ، لكننا لم نستطع أن نميزه بوضوح حتى مسـاء اليوم الخامس من الشهر ، حيث صار واضحاً بالنسبة للجميع أننا كنـا في الخليج . أمـا ميزان الحرارة الذي لم يرتفع من قبل عن (٨٥°) فهرنهـايت (٤٥° مئويـة) فقـد ارتفع الآن إلى (٩٠°) وبعـد قليل صـار (٩٢°) ، فلاشـك أننـا أصبحنـا داخـل رأس الحد .

السابع من أيار (مايو) :

كنا في صبيحـة السـابع من أيـار في الشمال الغربي من رأس كوريـات حيث

كان الجو شديد الحرارة ، كثيف الرطوبة ، وكانت الرياح خفيفة ومعيقة لسيرنا ، لذلك سار المركب بطيئاً وهو يقترب شيئاً فشيئاً من الجبال المشرفة على مسقط ، وعندما حلّ المساء أتينا على مرسى في الخليج وأرسلنا زورقاً إلى الشاطئ لإعلام الإمام بنبأ وصول الطراد إلى هذه المحطة وعن اعتزام قائده إطلاق النار تحيةً للحصن ، فانتهزت هذه الفرصة وكلفت الملازم الأول نيش الذي انطلق في الزورق بنقل تحياتي لمعاليه . وبينما هو في طريق عودته أطلقت نيران التحية وأجيب عليها بعدد يماثلها من مدافع الحصن الذي اهتز بشكل عنيف من أثر الانفجارات المتعاقبة حتى أن جزءاً من المتراس انفتح وانهال في البحر .

كان اهتمامهم بهذا النمط من مراسم التشريفات مصدر خسارة كبيرة جداً بالنسبة لي ، فقد انكسر ميزان الحرارة الذي كان داخل علبة خشبية مغلفة بالجلد ومعلقاً في الغرفة خلال الرحلة ، وتهشم إلى أجزاء ناعمة جداً ، حتى صار من الصعب فصل الزجاج عن الزئبق الذي تمازج معه في أسفل العلبة ، والحصول على ميزان شبه مستحيل في مسقط ، كما كنت أستبعد إلى حد بعيد إمكانية التزود بميزان في الخليج .

وبما أني سأحتاج إلى أيام عديدة حتى أتمكن من إنجاز هدف زيارتي إلى مسقط ، ولكوني متشوقاً إلى أن أكون في وضع يُمكّنني من الدنو بسهولة إلى أي شخص أستطيع من خلاله اقتباس معلومات ، فقد طلبت من الإمام أن يهيئ لي بيتاً على الشاطئ أقيم فيه عدة أيام . وقد كان هذا الإجراء في غاية الأهمية ، لأن التوجه إلى سفينة صغيرة في أوقات غير متوقعة ربما يكون مصدر إزعاج لجميع الأطراف . وعلى الرغم من احتمال كون السكنى على الشاطئ سبباً لنتائج تدعو إلى الاستياء بالنسبة لي شخصياً فإني قد صممت على أن أضحي بمصلحتي الخاصة من أجل البواعث المذكورة آنفاً .

الثامن من أيار (مايو) :

كان من دواعي سروري أني تلقيت زيارة من وزير معاليه على متن سفينتي صباح الثامن من أيار ، وقد تمت الترتيبات على أن تكون في الساعة الحادية عشرة ، حيث سأتمكن من تسليمه رسالة الشريف حاكم بومباي . وعندما وصل الوزير تبين لي أنه رجل يتسم بالحماقة ويبدو عليه النعاس . وبعد تبادل الإطراءات المقيتة المقتضبة ، وفقاً لمراسم التشريفات التي تجري في بلاط معاليه ، تَمّ التعارف بشكل سريع وكان الطلب الوحيد من جانبه ألا أتطرق إلى أية مسألة في المقابلة الأولى .

وصل في الصباح الباكر من هذا اليوم زورق شراعي وحيد الصاري يسمى - كيرلو - يقوده الكابتن والبول ، مع أنه لم يغادر بومباي إلا بعد عشرة أيام من تاريخ انطلاق سفينتنا فقمت بزيارة للكابتن والبول وأنا في طريقي إلى الشاطئ حيث رافقني على متن زورق سفينتنا ومعنا الملازم الأول تَنَر . وحالما نزلنا إلى البر استقبلنا الوزير وسار بنا إلى قصر الإمام وقد كان معاليه جالساً مع أخيه على شرفة عند نهاية قطعة منبسطة من البر تحاذي البحر يستطيع أن يرى منها عمليات الشحن التي تجري في الخليج بطريقة تظهر مزاياها .

كانت الغرفة مكسوة بالسجاد بشكل أنيق ومفروشة بالكراسي ، وكان استقباله أنيساً ، فقد عبر معاليه عن رغباته بدماثةٍ وأُنسٍ كبيرين بعد الاطمئنان عن صحة الجميع ، ثم قدم لنا أخاه (سيد سالم) والوزير الشيخ علي بن فازيل ، وأعرب سعادته عن شعوره الصادق بالارتياح نحو الحلف الودي والتفاهم الرفيع والمتبادل الذي أنشئ مؤخراً بين الحكومة البريطانية وأسرته وتجاه الدعم الذي يتلقاه بشكل مستمر .

وبعد إجابتي على أسئلته التي تتعلق بصحة الشريف حاكم بومباي بدأت أمهد

لتقديم الرسالة التي عُهد بها إليّ ، فإذا بمعاليه يقوم عن كرسيه من أجلها ، ثم استلمها وقد بدت على وجهه جميع مظاهر الرضى .

أما المناقشة التي تلت فكانت من قبيل المجاملة استعلم بها عن النجاحات الأخيرة للقوات المسلحة البريطانية في الهند ، وعبر عن ثقته التامة بنتائج العمليات المقررة في الخليج . وقد أكد على أحد المواضيع بشكل متكرر وهو أن أصدقاء الدولة الواحدة ينبغي أن يكونوا أصدقاء فيما بينهم ، وأن عدو أيةِ منهما لابد أن يعتبر عدواً للأخرى ، وقد كان في هذا الكلام إشارة خفية إلى موضوع لا يزال في طوره الجنيني ، وبما أن الزيارة امتدت أكثر من المعتاد فقد انسحبنا إلى مسكننا المفعم بالدخان والذي عليّ أن أقيم فيه مع جماعتي خلال الفترة التي سأمكثها في مسقط . (٥)

زارني وزير معاليه في المساء وخاض نقاشاً طويلاً يعتبر استهلالاً لمحادثات تتعلق برحلتي إلى درعية وعن تقدم الجيش التركي على ساحل البحر الأحمر ، وكذلك عن اقتراب موعد العمل المعتزم على ساحل الخليج حتى حدود المناطق التي تخضع لسلطان الإمام ، الأمر الذي ينظر إليه الإمام بقسط كبير من اليقظة ولاشك . ولقد احتججت إلى مناظرة طويلة لأستحث الوزير على ألا يغادر البيت إلا وهو في حالة من القناعة الكاملة ، ثمّ أظهرت له كل رغبة في أن أفسح للإمام فرصة من الوقت ليتمعن بالرسالة التي قدمتها له للدخول في الترتيبات المناسبة بهدف تجنب العوائق التي قد تنجم عن التأجيل في هذا الفصل المتقدم من السنة ، ولذلك أكدت على رغبتي بزيارة معاليه في اليوم التالي إن أمكن .

التاسع من أيار (مايو) :

توقعت في صباح اليوم التاسع أن أُدعى لزيارته ، لكن الوزير أتاني وفي جعبته مجموعة من الأخبار تتعلق بسقوط البريمي وتوقع وصول بتال الوهابي وهو

آخر رئيس لتلك المنطقة . وعلى الرغم من أن الأخبار السارة كانت نادراً ماتنتشر في مسقط فإني وجدت نفسي مصغياً لذلك الخبر بشيء من نفاد الصبر ، ولقد أمضيت نهاراً كاملاً وأنا أبحث حتى علمت أن السبب الذي رغّب هذا الشيخ في أن يرمي بنفسه إلى رحمة الإمام إنما هو الخلاف القائم بين بعض زعماء الجواسميين ، إذ هذا أفضل بالنسبة إليه من أن يتنازل عن نفوذه لزعماء الشارقة وعمان الذين يتوقع ، بل ربما يكون على يقين ، أنهم سيفصلون رأسه عن جسده لكي يفسحوا المجال لأحد مواليهم بأن يحل محله .

يوصف حصن بريمي بأنه منيع وذو معقلين حصينين ومحاط بخندق عميق جداً ، وأن المسافة من شقرا والخيمة إلى بريمي تعدل مسير يومين باتجاه الداخل ، وقد حمل هذا القطاع عبء تقديم المساعدات لرأس الخيمة ، وكانت ترسل إليه تعزيزات عسكرية من سلاح الفرسان والجمال من المنطقة المجاورة له عندما كان يتعرض إلى أي تهديد . ولقد أسهب الوزير في وصفه لحالة الحرب التي عانت منها البلاد بهدف أن يضع في ذهني صورة عن شجاعة القوات التي أرسلت ضد بتال الذي كان يتحلى على ما يبدو بدهاء سياسي بالنسبة لمستوى عصره ، وأن ذلك النجاح لا يعود إلى شجاعة جنود معاليه .

تمت المقابلة الثانية في مساء اليوم التاسع ، حيث كان الإمام ووزيره جالسين كعادتها على الشرفة وقد خيمت على وجهيهما كآبة واضحة فوجدت أنه من الصعب إثارة موضوع أهداف زيارتي لمسقط ، وكان سعادته خلال الجلسة يعبر عما يعتلج في نفسه بغاية العنف كلما مر على لسانه ذكر الباشا ، ولقد فشلت جميع جهودي في أن أنسيه هذا الموضوع بطرق أي موضوع آخر ، فوجدت نفسي مرغماً على أن أناقش الرأي معه بحرارة أشد بكثير مما كنت أتوقع أن يقودني إليه ذلك النقاش . وقد أسهب في حديثه عن عدم إمكانيتي في الوصول إلى درعية أو عودتي منها في الوقت المناسب لإجراء أية ترتيبات يشارك بها الباشا (فيما إذا حالفني

الحظ في الوصول إلى المعسكر) حيث أنه يتمتع بالحرية المطلقة للدخول في وجهة نظرنا دون أخذ رأي باشا مصر . ثم لعن تصرفات الباشا واتهمه بارتكاب أعمال وحشية ضد العرب ، الأمر الذي قد يمنعه من دمج جنوده مع جنود الباشا الأتراك . ونظراً لكوني فسحت لمعاليه فرصة صب جزء من جام غضبه المبجل فقد وجدت نفسي مجبراً على أن أؤكد على نقاط نقاشي حيثما وجدت مجالاً للجواب . وبعد تشاور طويل تمت الموافقة على أنه ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن يعمل جنود معاليه جنباً إلى جنب مع الجنود الأتراك ، وهذه في الحقيقة نقطة (مثل غيرها من النقاط التي كانت محل جدال) لا يمكن أن يطالب بها إذا ظهر الجيش التركي على مسرح الأحداث . وكان الاعتراض الرئيسي الذي ساور الإمام يتعلق بالطبع في عملية بدء إدخال الجيش التركي ، لكن نظراً لكونه عاجزاً عن استبداله بقوة تكافئه فإنه لا يمكن قبول هذه الفكرة . ثم إنه بشكل طبيعي حول أفكاره إلى دراسة تشكيل أي عائق أو حضن يحمي من انتهاكات إبراهيم باشا ، وعبَّر عن أمله في أن تكون الحكومة البريطانية مستعدة لدعم قضيته ، وقد طلب مني المرة تلو الأخرى أن أعطيه عهداً من أجل العمل على الوصول إلى هذا الهدف ، فكان جوابي له حاسماً عندما نوهت له بأن التفاهم القائم حتى الآن بين محمد علي باشا والحكومة البريطانية ينبغي أن يعتبر خير عهد يقدم من أجل التفاهم المستقبلي الذي تتوقعه الحكومة البريطانية وتأمل بأن تراه مؤسساً بين إبراهيم باشا ومعاليه ، إذ إنه ليس بإمكاننا أن نعتبر أنَّ إبراهيم باشا قد قام بأية أعمال عدائية ضد معاليه حتى الآن ، وإنه ليس من اللائق الدخول في معايير تستبق وقوع مثل هذا الحدث الذي لا يتوقع . وبما أن نقاشنا قد أفرط في الطول من غير ضرورة لأننا لم نناقش بعد أية فكرة تشير إلى اكتمال هذه المغامرة الكلامية المملة ، لذلك اضطررت إلى أن أؤكد عليه أن يعلن بكل وضوح عن رغبته وتصميه على دعم آراء الحكومة البريطانية بكل ما لديه من موارد ، لأنه على هذا سيعتمد تحقيق كلا الأمرين : سلامة مناطق نفوذ معاليه من انتهاكات

الجواسميين ، وتأييدنا إذا ماحدث أي تعديل غير مرغوب فيه أو غير متوقع في الطريق الذي يسلكه إبراهيم باشا ، فرد معاليه على هذه النقطة بتأكيدات رصينة ومهيبة جداً عن اعتزامه مساعدة الحكومة البريطانية في تقليص أعمال قرصنة الجواسميين . ثم أضاف أن الوقت أصبح متأخراً بحيث لا يسمح بالدخول في تفاصيل الترتيبات ، لكنه سيكون في غاية الاستعداد لأن يجيب على أية تساؤلات بصدد قواته والموارد التي يمتلكها شخصياً فيما إذا استطعت أن آتيه في أية ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي . لذلك آن لي أن أنسحب ، وقد أضناني تعب شديد من طول النقاش الذي لم يسفر حتى الآن إلاّ عن اليسير من القناعة .

العاشر من أيار (مايو) :

كان من دواعي سروري في صباح العاشر من أيار أني تلقيت رسالة شفوية من الوزير جواباً على فكرة بحثتها معه ، وأعلمني أن معاليه قد درس ماناقشناه يوم أمس وأني ربما لاأجد سوى صعوبة بسيطة جداً من أجل الدخول في التنظيمات الضرورية ، لذلك توجهنا إلى قصر معاليه حيث كان جالساً مع أخيه هناك .

كانت أول نقطة درسناها تتعلق بالوضع الراهن لقوة الجواسميين نظراً لتساؤلاتي عن هذا البند بشكل رئيسي ، فشرح لي معاليه عن قواتهم التي كانت تتجه نحو الأفول منذ إسقاط زعماء الوهابيين ، الأمر الذي أدى إلى نزع الثقة بين زعماء الجواسميين أنفسهم ، أو بالأحرى زاد من تصميم كل منهم على انفراد بأن يحاول تطوير كل ما يهمه أمره بشكل خاص على حساب ما يهم جيرانه . وهو يرى أن كون الأوضاع على هذا الحال يبعث على الرضى ، إذ يعني : عدم وجود قائد ذي نفوذ ، وحالة قصورهم وضيقهم منذ إسقاط النفوذ الوهابي ، فكل هذا يمكن أن يولد نزاعات بينهم ، إذ لم ينج من الوهابيين الذين هربوا إلى درعية واندمجوا

مع الجواسميين سوى عدد قليل جداً ، فهؤلاء يقدر عددهم بأكثر من ثلاثمائة . والتقديرات التالية تبين قوات الجواسميين كاملة ، كما هي عليه الآن ، وقد جمعها معاليه من أوثق مستند على الإطلاق ، وهو يعتبره مرجعاً :

				مشاة
[١] ـ المندمجون من بقايا قوة الوهابيين				٣٠٠
١ ـ تحوي بُخا فقط				٢٠
٢ ـ شعم				١٥٠ إلى ٢٠٠
٣ ـ رمس				٢٠٠
٤ ـ رأس الخيمة :	زوارق كبيرة	٢٥ زوارق صغيرة	٧٥	٣٠٠٠
٥ ـ حمرا : كلهم اندمجوا مع رأس الخيمة .				
٦ ـ أم القيوين	زوارق كبيرة	١ زوارق صغيرة	٣٠	٤٠٠
٧ ـ عجمان	زوارق كبيرة	٤ زوارق صغيرة	٣٥	١٠٠٠
٨ ـ فشت مع				
٩ ـ الشارقة	زوارق كبيرة	١٢ زوارق صغيرة	١٥٠	١٢٨٠
١٠ ـ أبو هايل (مع السابقتين)				
١١ ـ دبي	زوارق كبيرة	٤ زوارق صغيرة	١٠٠	٨٠٠
المجموع		٤٦	٣٩٠	٧٢٠٠
أبو ظبي ، خيران				
بني ياس	زوارق كبيرة	٥ زوارق صغيرة	٣٠٠	٣٠٠٠

(١) هناك مبالغة في هذا الجزء من قوة رأس الخيمة في رواية عنها حيث وصلت إلى خمسة عشر ألف رجل . ويبدو أن ليف بن سعدون اصطحب مائتي رجل ، وأحضر وليّه صب عبدول بن مزروع خمسين رجلاً فقط ، وخمسون لابن عبدان ، جاعلاً العدد الإجمالي /٣٠٠/ . ولم أسمع أبداً بورود ذكر أية أسماء أخرى . (المؤلف) . (٦)

لكن المرفأ الأخير نادراً ما كان يعتبر مرفأ قرصنة لِكَونه مفصولاً عن رأس الخيمة منذ زمن بعيد .

يوجد إلى الشرق من رأس مسندوم خليج فجيرة الصغير الذي يبدو مركز مراقبة يشرف على هذا الجانب من أجل الزوارق الآتية من فجيرة ودبا والمتجهة إلى داخل الخليج فيستطيع المسافر العربي عن طريق البحر أن يتجاوز جبال رأس الخيمة خلال أربع عشرة ساعة كما يمكن المرور براً عن طريق دُبا وإمرار الخيل ، وحتى المدافع الصغيرة الحجم ، حيث يمكن أن تتم الرحلة خلال يومين .

وإن الترتيبات التي يقوم بها زعيم الشارقة بالإضافة إلى زعيم عجمان ربما تدفعهما إلى أن يبقيا منفصلين عن زعيم رأس الخيمة خلال الخصومات ، لذلك صرح معاليه أنه سيسعى إلى تحقيق هذا الانفصال على الرغم من أنه ينصح الجميع بأن يتلاقوا لمواجهة نفس المصير الذي يحتمل أن تشهده رأس الخيمة .

لذلك اقترحت على معاليه أنه ينبغي علينا أن نضع نصب أعيننا الإجراءات التي يمكن أن تتخذ في العملية الهجومية ، وبعد شيء من الإسهاب في النقاش وافق معاليه على الترتيبات التالية التي طلب مني أن أحولها إلى نص مكتوب ، وأن أنتقل بالتالي إلى المعلومات التي تتعلق بطبيعة ودرجة المساعدات التي بإمكانه أن يتحملها من أجل عملية تدمير موانئ القرصنة .

ينوي معاليه بالنسبة لمنع دخول الجواسيين الهاربين من رأس الخيمة إلى عمان أن يرسل عدداً كافياً من الرجال إلى الممرات الجبلية خلال العمليات الموجهة ضد رأس الخيمة ، هذا في حال عدم الحاجة إلى خدمات هؤلاء الرجال نتيجة لوصول جيش الباشا ، أما إذا لم يصل فإن معاليه سيكون مستعداً لأن يتعاون براً مع قوة تتألف من سبعة آلاف من الجنود المشاة ومائة وثلاثين من الخيالة وألف وخمسمائة

جمل من آجل عبور الممرات التي فوق رأس الخيمة لمحاصرة ذلك المكان ، وإن معاليه بالذات سيرافق الحملة في سفينة حربية ، وسيأخذ معه ألف رجل على الأقل لينزلوا إلى البر ويعملوا مع القوات البريطانية . وسيكون بدهياً أنه إذا ما عملت قوات إبراهيم باشا على البر فإن جميع قوات الإمام ستتقدم عن طريق البحر ، عدا ذلك الجزء من القوات الذي قد يُحتاج من أجل الغرض الذي سبق ذكره ، والذي يهدف إلى حماية الممرات التي تؤدي إلى عمان . وستتخذ ولاشك التدابير الوقائية المسبقة لمنع استخدام الجنود العرب والأتراك منخرطين مع بعضهم ، وأن تبقى معسكراتهم منفصلة عن بعضها في جميع الأوقات . (٧)

وقد بدت المساعدة التي يمكن أن يتحملها معاليه على شكل دعم بالزوارق لتساعد على تفريغ الجنود والأمتعة وغيرها من المعدات . ولسوء الحظ تناقص عدد الزوارق التي تتميز بهذا الوصف عن العدد الذي يُحتاج إليه من أجل هذا الهدف إلى حد كبير خلال هذه السنوات القلائل . وقد ذكر معاليه أنه ليس بمقدوره أن يَعِدَ بتقديم عدد من الزوارق يزيد على السبعين لكن إذا توفرت بعض الإمكانيات ربما زاد العدد إلى المائة ، لدى كل منها إمكانية نقل ما بين ثلاثين وخمسين رجلاً .

أما بصدد الماء وحطب الوقود فقد ذكر معاليه أنه سيؤمن كمية كافية من كل منهما على حسابه ، لكن تدبير الماشية والمؤن الضرورية الأخرى التي من هذا القبيل فلابد أنَّ تدبيرها سيكون أسهل عن طريق ضابط التموين الإنكليزي ، الذي سيدفع السعر النظامي فقط ، حيث أن معاليه بالذات سيمارس نفوذه لمنع ارتفاع الأسعار .

ثم وافق معاليه على استخدام سفينتين تابعتين له من أجل نقل المؤن ، أو تسهيل أية طريقة أخرى يمكن أن يتأمن من خلالها إنجاز هذا الأمر على أحسن

وجه ، بحيث ينسجم مع رغبات الحكومة البريطانية التي سيوضع تحت تصرفها سفينتان في أي وقت يصرح فيه الشريف الحق ، رئيس المجلس عن رغباته بصدد ذلك الموضوع لمعالي الإمام .

سيستمر معاليه في مراسلة حاكم بومباي لإطلاعه على جميع المواضيع المتعلقة بتقدم عمليات التجهيزات المعدة للحملة ، كما سيقدم جميع المعلومات التي يتمكن من الحصول عليها ويعرف أنها تمس أية تغييرات يمكن أن تطرأ على أعداد قراصنة الجواسميين ، بحيث تكون الحكومة على علم بالوضع الحقيقي لقواتهم في جميع الأوقات .

ختم معاليه كلامه بتأكيد مجمل عن دعمه ومساندته وبيَّن أن أية إجراءات تتخذها الحكومة البريطانية ستلاقي من طرفه أكبر دعم . أي أنه ، بِغَض النظر عن الخصوصيات التي عددت هنا ، سيكون مسروراً في تطبيق آراء الحكومة ، حتى أنه سيولي عناية كاملة لأية ترتيبات تدلي بها ولم تكن قد وردت في البنود السابقة .

ومما يبدو واضحاً جداً في ذهن الإمام ما ينتابه من مشاعر الحسد والريبة بسبب تقدم قوات إبراهيم باشا ، وقرب مسرح عملياته من حدود إقليم معاليه ؛ خاصة عندما يتذكر أن تطلعات الباشا نحو فرض سيطرته على البحرين قد أصبحت أمراً شائعاً على ألسنة العامة ، وأنَّ الباشا لم يردَّ على استفسارات الإمام بصدد هذا الموضوع بما يبعث على الاطمئنان . لذلك كان يبدو على الإمام منذ اللحظة الأولى أنه يفكر في إقناعي بالإقلاع عن فكرة متابعة مسيري إلى درعية ، طارقاً أولاً موضوع بُعْد المسافات والتأخير الذي سينجم عنها ، وثانياً احتمال إمكانية إسقاط الجواسميين دون مساعدة الباشا . ونظراً لأني لم أؤيد هذه النقطة فقد حاول بالتالي أن يحصل مني على ميثاق بالنيابة عن الحكومة البريطانية ،

لكن جوابي كان حاسماً بالنسبة لهذه النقطة ، فما كان مني إلاّ أن كررت تلك الفقرة من رسالة الشريف رئيس المجلس عن أنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أتجاوز حدود التأكيدات المنقولة إليه في ذلك الخطاب .

كما أني لا أتصور من خلال المعلومات التي جمعتها هنا من مصادر أخرى أن الإمام قد بخس في تقدير قوات الجواسميين ، ولا أستطيع أن أعرف عن طريق أي مستند موثوق كنت أعتبره معتمداً أن عرب الداخل سيتقدمون لمساعدة جواسمي رأس الخيمة . فإذا افترضنا أن لديهم ميلاً إلى مشاركة أصحابهم السابقين فإن عدد الرجال الذين يمكنهم أن يحضروا إلى الساحة لن يتجاوز ثلاثة آلاف . وإذا كان بالإمكان الاعتماد على الزعيم البُريمي وأصحابه ، فإن ذلك العدد بالذات سيتناقص إلى حد كبير . يبدو من الناحية الأخرى أن قوات الإمام تصل إلى عشرين ألفاً من الجنود المشاة ، توزع في جميع القرى وعلى طول ساحل عمان ، لكن مع اعتبار أن كل عربي يعتبر جندياً ، وهو مسلح ، لذلك لا يتوقع أن هذا الجيش يكون جاهزاً عند الحاجة . ومن الممكن جمع عشرة آلاف من المشاة العشرين ألفاً في لحظة واحدة ، ومن سلاح الفرسان مالا يزيد عما بين مائة وثلاثين ومائة وخمسين .

والآن وقد ختمنا جميع المشاورات بالنسبة لموضوع التجهيزات ، وكذلك المساعدات التي يستطيع معاليه أن يرسلها مشياً على الأقدام فقد توقعت أني سأتمكن من مغادرة مسقط في غضون بضعة أيام ، لكن حادثاً كئيباً يتعلق بوفاة أحد أقارب أسرة معاليه جعل تأجيل رحيلي عدة أيام أُخر أمراً لا مفر منه ، ذلك لكي أفسح المجال لمعاليه لتحضير رسالته الجوابية للشريف حاكم بومباي . وبما أن الاعتراض الرئيسي الذي ظهر خلال جدول أعمالنا والذي يتعلق بموضوع الباشا كان حساساً إلى درجة أنه صار من المستحيل إدخاله في وثيقة عامة يتبناها

الإمام ، فقد صار من الضروري الدخول في بعض الترتيبات التي يمكن أن توثق التأكيدات التي أدلى بها معاليه إليّ دون إدخال اسم الطرف الثالث . لذلك دونت ما رسخ في ذهني من تلك التأكيدات ، ومن تلك الخصوصيات المنبثقة عنها ، والتي أكدها معاليه ، وصرح ـ أنه سيشير في رسالته إلى المعلومات التي فوضني بأن أصيغها ، ويوثق هذه الوعود بالتنويه إلى أنها مذكورة بالشكل الصحيح ـ وأن فحوى التعليمات التي وجهت إليّ وفحوى الرسالة التي وجهت إلى الإمام لم يفوضاني إلى أن أحتاج إلى جواب انتقادي ورسمي أكثر مما يحويه المرسال الذي عُهد به إليّ من أجل مفاوضاتي .

أرسلت بعد ذلك رسالة[1] إلى الشريف السيد إيفان نيبيان بارت ، رئيس المجلس في بومباي ، فصّلت له فيها جميع النقاط السابقة .

وفي الثالث عشر من أيار (مايو) أعلن الملازم أول تنر بشكل رسمي أن على السفينة ـ ثيتيس ـ أن تكون في حالة استعداد للبدء في متابعة القسم التالي من رحلتها . ونظراً لاحتياجه إلى جواب رسمي فقد وجهت إليه رسالة على الرغم من أنها في الحقيقة لم تكن ضرورية لأن موضوع المباحثات قد أُشبع مناقشة . وكان من البدهيّ أني لن أستطيع أن أسلك سوى طريق القطيف مع العلم أنه لا يمكن دخول هذا الميناء بمركب شراعي عريض دون انتباه مسبق إلى اقتناء بَحّار من أهل المنطقة ، ويفضل أن يدبر مثل هذا الرجل من بوشير ، وهو المكان الذي أُرسلت إليه معدات خيامنا ، لذا لم أتردد في قراري بالتوجه إلى بوشير حيث بإمكاني أن أحصل على جميع المعلومات الضرورية المتعلقة بموقع معسكر الباشا . وكانت مغادرتي معتمدة على رغبة وسرور الإمام الذي كنت أنتظر جوابه .

---

(١) وصلت هذه الرسالة إلى بومباي في أيار (مايو) من عام ١٨١٩ ، ووجهت نسخة إلى كلكوتا . المؤلف .

ثم إني استفدت بُعيد الظهر من الفراغ الذي كان لديَّ للقيام بزيارة للسيد سالم ، شقيق معالي الإمام ، الذي استقبلني بغاية الأدب والحفاوة والتقدير ، وقد اعتبر أنه من الضروري أن يعلمني بأنه كان مسافراً وأنه قضى بضعة أشهر في شيراز ، لذلك قدم فواكه وشرابات على العادة الفارسية . لكن تحريم التدخين على مشايخ وزعماء القبائل والطوائف جعل مراسم التشريفات في الزيارة الفارسية غير متناسقة ، ثم لاحظت إغلاق أبواب القاعة عند تقديم المشروبات المنعشة حيث لاحظت إشارات واضحة توحي بالرغبة في إضفاء السرية التامة على هذا الأمر الذي جعلني أعتقد أن (سيد سالم) لم يكن يرغب في أن يجاهر بأنه يأكل مع كافر على المائدة نفسها . فوضعت الفواكه على طاولة ، ولم ألاحظ أبداً أن أي شخص من المجموعة كان يبدي ترفعاً أو يظهر عليه وسواس من تناوله من صحني نفسه أو من استعمال الآنية نفسها التي سبق لي أن أكلت منها . وفي طريق عودتي من هذه الزيارة مررت بالوزير الذي قدم لي القهوة ، وحتى هنا لا يشكل التدخين جزءاً من مراسيم الزيارة ، حيث تمت ممارسة قواعد التشريفات بين العرب بجفاء أكثر مما كانت عليه بين الفرس بشكل عام .

وبعد ظهيرة الرابع عشر صرح لي معاليه عن رغبته في تشريفي بزيارة رسمية ، وعلى الرغم من أن مسكني المفعم بالدخان لم يكن لائقاً لاستقبال معاليه فإني أجبرت على أن أتقبل إشارة التعاطف هذه في أفضل شقة ، لكنها كانت متداعية ومليئة بالسخام . كان أسلوب الإمام خلال الزيارة متواضعاً وتصرفه مَرِحاً ومجامِلاً ، فقد بدا متحلياً بمزاج طيب مع شيء من الحزم ، ونادراً ما تبدو عليه الشراسة ، باستثناء التوتر المعتاد الذي يتعلق بأمور العمل والذي كان يتعرض إليه بشكل متكرر لأنه معتاد على معالجة الأمور بنفسه حتى التافهة منها . لكنه يبدو في هذه الجلسة في راحته الكاملة التي كنت أحرص على عدم قطعها بِطَرْقِ مواضيع عمل ، أو على الأقل بالتعبير عن قلقي بصدد التأخير الذي أجبرت على تحمله . وقد أعرب معاليه أثناء انصرافه عن أسفه تجاه تَرَدّي أسباب

الراحة والتسلية التي هيأتها لي مسقط ، ووعدني بأن يسمح لي بالرحيل يوم الأحد القادم إذا كان بالإمكان . كان هذا الأمر ساراً بالنسبة لي لأن خدمي كانوا يعانون من انحراف شديد في صحتهم ناتج عن عدم ملائمة المناخ لطبيعة أجسامهم ، بالإضافة إلى الإزعاجات التي تعرضوا إليها ، لذلك أرسلت أولئك المصابين بالحمى إلى السفينة وهيأت نفسي للصعود إليها في اليوم التالي .

الخامس عشر من أيار (مايو) :

هيأ لي وصول سفينة (إيدت) صباح الخامس عشر التي يقودها (الكابتن لوك) فرصة الاتصال بذلك الضابط . ونظراً لأنه سمع بعض التقارير التي كانت شائعة بين الناس في (بوشير) عن إعاقة البدو لأموال إبراهيم باشا بالإضافة إلى القوات التي تقوم بحمايته ، ولتوقع نجاح الكتائب البحرية التي أرسلت لملاحقتهم في القضاء عليهم ، فقد وجدت أنه من الحكمة بالنسبة لي ألاّ أرافق الكابتن لوك في زيارته للإمام الذي كان ممسكاً عن الإدلاء بأية تعليقات ذات صلة بموضوع مهمتي إلى مسقط .

ولقد سررت كثيراً عندما استشرت الكابتن لوك في موضوع ملائمة توجُّهي إلى (بوشير) في أقرب فرصة ممكنة ، ووجدت أن رأيه يؤيد قراري الذي اتخذته في الثالث عشر من الشهر الحالي .

أعلمني (سكرتير) معاليه أن الرسائل ستكون جاهزة بعد الظهر ، فقمت بزيارة وداع لمعاليه في المساء حيث سلمني رسالتين وضعت إحداهما في حقيبة مغلقة لائقة بها ومناسبة لقواعد التشريف ، أما الثانية فكانت مفتوحة لأنها كانت تعتبر كوثيقة تخولني مشروعية متابعة رحلتي داخل مسقط . وفي هذه المناسبة كرر معاليه تأكيده على دعمه ومساندته ، فانتهزت هذه الفرصة وطرقت الموضوع الذي كنت أتصور أنه يمكن أن يهون الطريق أمام إعطاء الميثاق صورته

الكاملة ، وهو تشكيل محطـة للجنود في إحـدى الجزر التي يعتبر موقعهـا حسـاسـاً لانطلاق جنود جميع الأطراف منها للتوجه إلى نقطة الهجوم ، فأكد لي معاليه أن مثل هذا الإجراء سينال استحسانه حتى أنه سيزيد دعمه لهذا الامتياز الذي سيمنحه للحكومة البريطانية بجعل هذه المحطـة تشمل أيـة مجموعـة من الجنود المسـاهمين في الحملة والـذين يفضل استبقـاؤهم في الخليج بسبب الظروف التي يمكن أن تطرأ من الآن فصاعداً .

فسحت المحاورة السابقة المجال أمام مناقشة مسألة الولايـة القـانونيـة أو الحق الـذي يمكن أن تُحـدد الأراضي أو الأقـاليم اعتماداً عليـه بحيث تعتبر ذات استقـلال متوارث أو ولاية إقطاعية تابعة لسلطان دون آخر بحدود معينة ، وقد انتهينا إلى اعتماد الخواتيم التالية بصدد الموضوع .

نظف سيـد سلطـان جزيرة قشم من قبيلـة ابن مهيني في ظل حكومـة مُـلا حسن وعهد الآغا (محمد خان قد جار) ، وقد نزل على الإمام الحالي حاملاً شعـار حقه في غزو هذه الأراضي التي يمد معاليه حمايته عليها ، مع العلم أنـه لا يرتـد أي جزء من الريع العام لجزيرة قشم إلى أي عـاهل آخر في الوقت الحـاضر ، ولم يرتـد كـذلـك أو يـدفع أي جزء من الريع العـام إلى أي متنفـذ آخر خـلال عهـد سيـد سلطان ، ومنذ ذلك العهد حتى الآن .

تمت السيطرة على ـ غومبروم ميانا وخمير ـ استناداً إلى قرار من ملـك الفرس الحالي من أجل دفع المبلغ السنوي الذي يبلغ ثلاثة آلاف تيومة ، وعندمـا ظهرت لدى وزير المالية رغبـة في زيـادة الريع الـداخل على الملـك طلب من الإمـام أن يزيد ألفاً آخر معلناً أنه (إذا لم يُعطِ إمـام مسقـط هـذا المبلغ فـإنـه سيضطر إلى استخدام القوة) . أما قشم فلم تُطالَب بشيء ، ولم يظهر كذلك اسم هـذا المكان في ذلك القرار .

صعدت مِتن سفينتي(ثيتيس) بعد ظهر الخامس عشر من أيار (مـايو) وفي ظهيرة اليوم التالي زارني وزير معاليه وبرفقته تاجر للسلع القديمة ليقدم لي ثلاثة شالات من صناعة ترمه ذاكراً لي أن معاليه يطلب مني أن أقبلها مع أعمق أمنياته لي بنجاح رحلتي ، ومؤكداً أنه سيكون في غاية السعادة إذا مـا تمكن من رؤيتي في طريق العودة . فقبلت هذه الهدية ورددت له بـالمقـابل رسـالـة مجـاملـة وإطراء متمنياً لمعاليه كل نجاح خلال ما اعتزمـه من تطواف في بـارجتـه الحربيـة بحثاً عن السفن العدوة . وقدمت أُعْطية مناسبة للخـدم الـذين كانوا يحملون الشـالات التي ألحقتها بالهدايا العامة المختزنة .

انتقلت إلى سفينـة ميركوري كإجراء ينسجم مع اتفـاق جـديـد أجريتـه مع الكابتن لوك الـذي أبحر بـاتجـاه بـومبـاي عنـد المغيب ، بينمـا أبحر معـالي الإمـام ببارجته الجديدة ليطوف حول رأس الجبل بحثاً عن السفن العدوة . ولقـد أجبرت على البقاء في خليج مسقط كسجين مكره حتى صبـاح اليوم الثـامن عشر عنـدمـا أصبحت السفينـة ميركوري جـاهزة للشروع في مواصلـة رحلتهـا إلى بـوشير بينما أُنهِيَت مهمة السفينتين ثيتيس وتيناوث نتيجة للتقـارير المخيفـة التي تحـدثت عن مهاجمة قراصنة رأس الحد لزورق شراعي عريض جداً .

أرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (إيفان نيبيان ، بارت) رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي الشريف بحق :

لي الشرف أن أُطلع مجلسكم الموقر على مقابلة جرت بعدما ختمت آخر رسـالـة وجهتها إليكم ، حيث استطعت أن أنتهز فرصة سنحت لي خلال النقـاش لأحصل على أقصى التـأكيـدات من معـالي الإمـام على إقراره لأيـة مجـوعـة من الجنـود المستخـدمـة من أجل الحملـة المزمعـة بـالنزول في أي جزء من الجـزر والأقـاليم التي

تخضع لسيادته . وإني لسعيد بإعلام مجلسكم الموقر أن مثل هذا الإجراء سيلقى استحسان وتأييد الإمام الذي أعلمني أنه يشعر بالسرور في منح مثل هذا الامتياز لأية مجموعة من الجند التي ستشارك في الحملة التي ربما نرى في المستقبل أن من الحكمة الاحتفاظ بها في الخليج نتيجة للظروف التي يمكن أن تطرأ من الآن فصاعداً . لذلك أرجو أن يدرس مجلسكم الموقر هذا العرض بالسرعة الممكنة من أجل اختيار مكان مرغوب واستراتيجي في خليج مسقط .

فسحت المحاورة السابقة المجال أمام مناقشة الولاية القانونية أو الحق الذي يمكن أن تحدد الأراضي والأقاليم اعتماداً عليه بحيث تعتبر ذات استقلال متوارث أو ولاية إقطاعية تابعة لسلطان دون آخر بحدود معينة ، وقد انتهينا إلى اعتماد الخواتيم التالية بصدد الموضوع :

نظف سيد سلطان جزيرة قشم من قبيلة ابن مهيني في ظل حكومة ملا حسن وعهد الآغا محمد خان قد جار ، وقد نزل على الإمام الحالي حاملاً شعار حقه في غزو هذه الأراضي التي يمد معاليه حمايته عليها . مع العلم أنه لا يرتد أي جزء من الريع العام لجزيرة قشم إلى أي عاهل آخر في الوقت الحاضر . ولم يرتد كذلك أو يدفع أي جزء منه إلى أي متنفذ آخر خلال عهد سيد سلطان ، ومنذ ذلك العهد حتى الآن .

تعتبر ولاية غومبروم وخمير ولاية خاضعة ومضمومة بشكل شرعي لسلطان ملك فارس استناداً إلى قرار صدر عن الملك ، حيث يحوّل مبلغ ثلاثة آلاف تيومة إلى جلالته سنوياً وعندما ظهرت لدى وزير المالية رغبة في زيادة الريع الداخل على الملك طلب من الإمام أن يزيد ألفاً آخر معلناً أنه إذا لم يُعطِ إمام مسقط هذا المبلغ فإنه سيضطر إلى استخدام القوة . أما قشم فلم تطالب بشيء ، ولم يظهر كذلك اسم هذا المكان في ذلك القرار .

يسرني أن أطلع مجلسكم الموقر أن العلاقات التي تم تبادلها بين فِجيرة ورأس الخيمة قد أصبحت مهلهلة في الآونة الأخيرة ، أي منذ سقوط بُرَيْمي ، الأمر الذي أسفر عن إخراج الجواسميين من ميناء فجيرة . وإني أنصح في أن يحتل هذا المكان وتقام فيه حامية نظراً لكونه البقعة الوحيدة من هذا الرأس التي يمكن أن تهيئ مَكْمَناً وجُحْراً لأولئك البائسين .

ولقد وضعت بين يدي الكابتن لوك قائد سلاح البحرية في الخليج نسخة عن إنجازاتي ، وعن جميع المعلومات الأخرى التي كُتب لعيني أن تطلع عليها منذ وصولي إلى هذا المكان بشكل ينسجم مع التعليمات التي أسير على ضوئها . وعندها تبين للكابتن لوك أنه صار من الضروري بالنسبة لي أن أنتقل إلى السفينة ميركوري تعزيزاً للمصلحة العامة ، وإذعاناً لرأيه صعدت متن هذا المركب ، وإن هذا الترتيب ليبشر بسرعة الوصول إلى بوشير وإني لأشعر بأني سجين فضل ضابط البحرية هذا خلال إقامته في هذا الميناء نتيجة لسهولة الاتصالات التي شرفني بها » .

« لي الشرف أن أكون ... »

« خليج مسقط ، سفينة ميركوري

١٧ أيار (مايو) ١٨١٩ »

السابع من حزيران (يونيو) :

كانت رحلتنا في البحر مضنية جداً حتى في هذا الفصل من السنة ، فقد صادفنا ريحاً هوجاء من جهة الشمال الغربي جعلت البحر أمامنا ثقيلاً جداً ، ولم نتخط المنطقة إلاّ بِشِقِ الأنفس حيث وصلنا إلى الطرق المؤدية إلى بوشير بعد ظهر السابع من حزيران . ولقد كنت في غاية الشوق إلى أن أسرع في سفري ، لذلك نزلت إلى البر فوراً وأعطيت السفينة حرية التوجه إلى حلّيلة لتكمل مخزونها من الماء ، حيث لم يبق لدينا منه سوى ما يكفي يوماً واحداً فقط .

أرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (إيفان نيبيان ، بارت) رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي ، لي الشرف أن أخبركم بنبأ وصولي إلى بوشير بعد ظهيرة اليوم السابع من حزيران (يونيو) ، ولأُعلم الشريف بحق أن إقامتي في هذا المكان لن تزيد عن الوقت الذي سأضطر إليه من أجل تجهيز السفينة بعد رحلة شاقة جداً بسبب غلبة الرياح الشمالية الغربية الهائجة في الخليج في هذا الفصل من السنة ، ولقد علمت من لحظة وصولي أن سعادة إبراهيم باشا ينوي أداء فريضة الحج في مكة بعد شهر رمضان مباشرة . وأنه يُتوقع أن يعود إلى مصر من هناك ، وقد عَيَّن ضابطاً أوكل إليه القيام بإدارة الأعمال الحكومية خلال غيابه . وإني أرى الآن أن وصولي قبل هذا التوقيت وهذا التحول كان أمراً في غاية الأهمية ، وعلى الرغم من أن الفصل الحالي من السنة يسبب مصاعب كثيرة فإني مع ذلك واثق من قدرتي على إتمام هذا الجزء من المهمة الموكلة إليّ . وبما أننا كنا متردّدين في كون أي المرفأين أنسب للرُسوّ ، مرفأ العجير أم مرفأ القطيف فقد أشرنا على الكابتن والبول أن يتخذ القرار المناسب .

أُرغم سعادته مؤخراً على القيام برحلة من درعية لملاحقة بعض قبائل البدو الذين وصلت بهم الجرأة إلى مهاجمة القوة العسكرية المرافقة للتموين المنقول . وإن إنقاذ المؤن المُعاقة قد فسح له فرصة طيبة لتوجيه درس تأديبي للمجرمين يَفي بالغرض بحيث يؤمل من جرائه منع حصول مثل هذه الإهانات ، على الرغم من أنه يستبعد أن يكون جيشه خالياً تماماً من أمثال هذه الإزعاجات وهو في وضعه الحالي ، ولأنه لم يمض بعدُ وقت كافٍ من أجل تأمين الهدوء والاستقرار لهذه المقاطعات التي حيزت مؤخراً ، وسيفسح تكرار مثل هذه الهجمات الجريئة المجال أمام إزعاجات أكثر وأكثر ، كما سيمنع الباشا من ناحية أخرى من الدخول معنا في مخططاتنا لأنه سيضطر إلى استخدام قسم كبير من جنده للقيام بالمهمة المرهِقة

المتعلقة بملاحقة البدو الذين يلوذون بالصحراء مع الغنائم التي نهبوها والتي لا يبلغ أمل إنقاذها من بين أيديهم ثانية نسبة الواحد إلى عشرة .

شَوَّشت ثورات الكثير من قبائل البدو أفكار إبراهيم باشا إلى حد كبير ، ولابد أنها تعيق تحركاته ، لكني سررت عندما علمت أن أسباب هذه الثورات لم تُعْزَ إلى أيّ سِيا قسوة أو وحشية من قبل الباشا . بل على العكس من ذلك فقد اتبع سياسة حكيمة في التلاحم مع القبيلة الرئيسية في المنطقة ، وهي قبيلة بني خالد ، فانقلبت فوائدها إليه . وكان الوهابيون قد أَعفَوا رئيسها الشيخ عريعر بن سعدون من منصبه ، لكن المتحدرين عن هذه القبيلة عادوا للتمركز في أملاك أسرهم بزعامة محمد بن عريعر وماجد بن عريعر ورُدَّت إليهم أملاكهم وثروات آبائهم . ولقد سبَّب تذكر هذه القبيلة للإهانات التي تعرضوا لها من قبل الوهابيين بالإضافة إلى اختلافهم في المذهب معهم أنهم تصوروا أفرادها كأحقد وأشرس عدو ، يضاف إليهم جميع الذين كانوا موالين لسعود . ويتمركز ماجد بن عريعر في الأحساء ، ويقيم أخوه إلى جواره مع قبيلته البدوية ، وربما لهذا السبب يُعزى الهدوء الحالي في هذه المنطقة التي تحميها قوة صغيرة من الأتراك لا يتجاوز عددها الخمسمائة رجل .

وبما أن إعلام الحكومة عن طبيعة استقبالي في المعسكر التركي سيكون أمراً بالغ الأهمية بلاشك ، وكذلك إطلاعها على الوسائل التي في حوزة الباشا من أجل المضيّ في العمليات الموحدة ، فإني قد صممت على أن آخذ معي زورقاً سريعاً من أجل إرسال معلومات عن هذا الموضوع في أبكر وقت ممكن . ونظراً لعدم تمكني في الوقت الحاضر من التنبؤ عن التاريخ المحتمل لعودتي إلى مقر الرئاسة ، إذ إن ظرف عودتي لابد أن يعتمد على أحداث كثيرة خارجة عن إرادتي ، فإني أرى أنه من الأفضل أن أقوم بكل مابوسعي من أجل أن أمكن الحكومة من دراسة إمكانية ما إذا كان سعادته يوافق على التعاون في أقرب وقت ممكن ، كما يَتَوقع مني

الشريف بحق حاكم بومباي ، وكذلك الاحتال الذي أُعاني منه شخصياً شكوكاً كثيرة ، إذ يبدو أن سعادته نادراً ما يوافق على الدخول في مثل هذا العهد دون تعاون مع سلطة ذات نفوذ أعلى . وإن رغبة شديدة تحثني على كشف حقيقة هامة وهي أن الحكومة التركية في الوقت الحاضر شبه عاجزة عن تسيير أمور الإقليم الذي احتلته مؤخراً لذلك ربما لا يتمكنون من تعهد أية عمليات يحتمل أن تحتاج إلى سحب قسم كبير من الجند مسافة بعيدة جداً ، كالذي تحتاجه مثل هذه المغامرة .

ونظراً لأن الكابتن بروس قد سنحت له فرصة إرسال رسالة إلى حاكم بومباي عن الموانئ التي على الساحل الفارسي والتي يتلقى منها قراصنة رأس الخيمة دعمهم ، فإني لا أرى أن هناك ضرورة بالنسبة لي أن أدخل في تفصيل هذه النقطة التي تفضي إلى نتيجة ختامية واحدة وهي أنهم قد اعتبروا أنفسهم جسداً واحداً مع قراصنة رأس الخيمة وجاهروا بعداوتهم للحكومة البريطانية » .

« لي الشرف أن أكون ... »

(بوشير ، ١٩ نيسان ١٨١٩)

وأرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (نيبيان ، بارت) ، رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي الشريف :

لي الشرف أن أعلم مجلسكم الموقر أنه نتيجة للصعوبات التي أتوقع أن أواجهها إذا دفعت التكاليف الباهظة ثمناً للذخيرة التي سأحتاجها من أجل مواصلة رحلتي عبر الجزيرة العربية فإني قد اضطررت إلى أن أسحب مبلغاً كبيراً من الكابتن بروس الذي يقطن في بوشير بالعملات التي لها الأولوية في التداول هنا ، كما أفكر في إيداع مبلغ مماثل في الأحساء عن طريق أوثق موظف يمكن أن أختاره .

ولي الشرف أن أعلمكم أني قد قدمت كمية من الأسلحة على حساب مجلسكم الموقر لصالح الكابتن بروس لكي أعوض مبلغ الثلاثة عشر ألف روبية لمواجهة نفقات مهمتي ، وإني لأجد نفسي مضطراً الآن لأن أطلب من مجلسكم الموقر أن يحول مبلغاً مساوياً لهذا الدَّين » .

(لي الشرف أن أكون ...)

بوشير ١٦ حزيران ١٨١٩ .

السادس عشر من حزيران (يونيو) :

لدى وصول المركب إلى مكان تعبئة الماء حصل حادث سيئ ، فقد هبت رياح شمالية غربية هائجة للمرة الثانية فَتَفَلَّت المركب من مرساتيه ، مما أجبرنا على الدخول إلى بوشير بغرض الحصول على زوارق تساعدنا في حملها ، ومع أني لم أحتج إلى زمن طويل للتجهيز فقد احتُجزت حتى الظهر ، حيث صعدت متن السفينة الحربية فيستال .

عُينت فيستال لتحل محل ميركوري على الساحل العربي ، لذلك زدت في سرعتي لكي أتجنب زيادة العوائق ، فأبحرنا من طريق بوشير بعد ظهيرة السادس عشر من حزيران ونزلنا البر على الساحل العربي في ظهيرة الثامن عشر منه متوقعين مواجهة شيء من الصعوبة عند دخول مرفأ القطيف . لكن خيبة أملنا كانت عظيمة عندما اكتشفنا أن القبطان الأحمق المسن كان يجهل منطقة المرفأ جهلاً تاماً ، فتوقفنا فجأة والأشرعة لاتزال منشورة عند حافة ضفة رملية حيث أمضينا الليل عاجزين عن أن ننتقي موقعاً خيراً من موقعنا الذي سكنت سفينتنا عنده ، فأرسلت رسالة مع الشيخ خميس إلى الحاكم التركي في القطيف أطلب منه فيها قبطاناً ليأخذنا إلى العجير ، وهو المكان الذي نصحوني بالتوجه

إليه لكونه أقرب ما يكون من الأحساء كما يعتبر أفضل نقطـة من أجل الاتصـال . ولهذا الغرض استأجرت زورقاً سريعـاً من بوشير ليرافق السفينـة الحربيـة لتكون جميع تسهيلات الاتصال متوفرة لدي . وقد عرض هـذا الشيخ خـدمـاتـه كـدليل لأنه سبق له أن سكن فترة طويلة على هذا الجـانب من الخليج وقـام برحلتين إلى درعية ، ففكرت أنه من الحكمة أن يكون معي شخص معروف بذاته لدى مشـايخ البدو ، كهذا الشيخ .

لم يعد الشيخ في صبـاح اليوم التـالي كما كنت أتصور بسبب عـدم تمكنـه من تدبير قبطان ، فقد بذل كل مـالـديـه من جهـد لاكتشـاف قنـاةٍ في أعلى الجـانب الجنوبي من الخليج ، لكن دون جـدوى ، وبعـد ظهيرة اليوم التـاسـع عشر أرسـل (رحمة بن جابر) زورقاً ليهنئنا بالوصول . ولقد كنت متشوقـاً لاكتشـاف مكانِ تَرَدُّدِ هـذا الزورق الأجنبي الـذي كان في الطرف الجنوبي من الخليج ، فلم أفلح في ذلك إلا قبل ساعات قليلة من وصول زورقه إلى فيستال وعاد الرجل الذي أرسله رحمة بن جابر بعد أن وعد بأن قبطاناً سيرسل بالقارب الـذي أرسلتـه ، وأنـه لن يكون هنالك أي تأخير . وقد أنجز الشيخ رحمة وعده بالفعل فأرسل قـاربـاً عليـه قبطانان ماهران فقادا المركب مع المـد الصبـاحي للبحر عبر قنـاة مُعَـدَّةٍ للسفن ، لكنها على الجانب الشمالي ، حيث توجـد قنـاة جميلـة عميقـة تمتـد إلى جوار أرض رملية صغيرة وضيقة موازية لهـا ينشـأ عنهـا هـذا الطرف من الخليج الصغير ، أو تشكل حاجزاً يفصله عن المحيط . وقد رسونـا في هـذا المكان بعـد ظهيرة العشرين من حزيران (يونيو) بعـد أن خسرنـا يومين كاملين نتيجـة لجهل قبطـان بوشير الذي لا يستحق بكل تأكيد أيَّ وزن من الثقة . أما بالنسبـة لتسـاؤلنـا عن ميـنـاء عجير فقد أخبرنا الشيخ رحمة أنـه ربمـا يستحيل الاقتراب منـه بمركب كبير ، أمـا المركب الصغير فربما يتمكن من الوقوف على مسافة معقولة منـه . لكنـه لم يـأخـذ على عـاتقـه حمل مسؤوليـة المسير حول البحرين إلاّ خلال النهـار لأن الممر معقـد

وصخري ، كما أن الشيخ خميس أدلى بنفس المعلومات عندما عاد من القطيف . أما الحاكم التركي فقد أصرَّ في إرشاده لنا على أن نتقدم عن طريق القطيف فقررت أن أقلع عن فكرة الوصول إلى (عجير) بالمسير حول الضفة الجنوبية للبحرين التي ربما تحتاج إلى يومين . لذلك نزلت إلى البر في صباح يوم الإثنين الحادي والعشرين من حزيران عند قرية سيهات الواقعة على الجانب الجنوبي من الخليج ، وعلى بعد ثلاثة أميال عن القطيف تقريباً . وقد أرسل خليل آغا جندياً تركياً ذكياً اسمه يوسف آغا ، كان موظفاً في جباية ضرائب الجمارك ، ويعتبر تالياً له في الشرف والمنصب ، وذلك ليرافقني من السفينة . وقد ابتعد بي إلى بقعة متطرفة من أجل سكني بسبب ما ذكر من أن البلدة أو المدينة كانت غير صحية أبداً إلى درجة أن اتخاذ سكن لي فيها يعتبر ضرباً من ضروب المخاطرة ، ولَو لَيْلَةً واحدة . وقد كانت المسافة بين مكان الرسو ومكان النزول بالقرب من القرية تصل بالتأكيد إلى اثني عشر ميلاً ، وقد كانت المنطقة التي نزلنا فيها ، بالإضافة إلى طول شاطئ الخليج بكامله رقيقة الماء إلى حد كبير حتى أن الجمال والخيل تستعمل لنقل الأشخاص من الزوارق ، وقد نُقلت جميع أمتعتنا وتجهيزاتنا بواسطة جمال أو حمير .

الحادي والعشرون من حزيران (يونيو) -

وصلتني أخبار بعد ظهيرة هذا اليوم تتوقع أني قد أتشرف بتلقي زيارة من قبل خليل آغا وقد جعلني دُويٌّ بعض المدافع أعتقد بأنه على وشك أن يغادر حصن القطيف ، لكني عرفت عندما وصلني عربي يحمل رسالة من الآغا أن طلقات المدافع إنما قُصد بها الردُّ على التحية التي أطلقتها فيستال في الصباح ، وأن صحة الآغا لا تسمح له بالقيام بزيارة هذا المساء ، وأنه سيكون سعيداً في قيامه بهذه الزيارة في صباح اليوم التالي ، كما طلب منا إرسال الطبيب الذي على متن سفينتنا لعله يتقدم إليه بنصيحة طبية . وقد تم تنفيذ هذا الطلب بإرسال زورق لنقل الطبيب إلى الشاطئ .

الثاني والعشرون من حزيران (يونيو) :

لم يشرفنا خليل آغا بزيارته في صباح اليوم التالي ، الثاني والعشرين ، فأسرعت لزيارته بزورقي الصغير (ميرزا) لأني كنت قلقاً ومتلهفاً للسؤال عن صحته . وخلال وجودي عنده كان يعوده مشرف آل عريعر ، وهو ابن شقيق محمد بن عريعر زعيم قبيلة بني خالد ، وقد جرى هذا اللقاء بشيء من الحدة لما أذاعه العرب بين عموم الناس من أن التركي الذي نُصِّب هنا من قبل محمد آغا قاشف (الحاكم التركي للأحساء) احتفظ بالسلطة لنفسه خلافاً لأوامر الباشا ، وأنه أبقى الأوامر التي وجهت إليه شخصياً طيَّ الكتمان ، وهي تنص على تسليم السلطة لمشرف . ثم إن التركي ردَّ على التهمة ورفض الإذعان لطلبات مشرف وأمره بأن يكتب إلى عمه يطلب منه جمالاً وخيلاً وتوابعها ، بالإضافة إلى حماية لترافقني إلى الأحساء ، وهي المنطقة التي جهز مبعوثاً لإرساله إليها لإعلام قائده عن الخطوات التي يهدف إلى اتخاذها . وقد أبدى خليل آغا عدم رضاه عن متابعة سيري إلى الأحساء إلى أن يتلقى التعليمات ، كما أنه يرى عدم الحكمة في وضع الثقة المطلقة بالبدو .

قام مشرف بزيارتي في المساء . وقد كانت لديَّ رغبة في إجراء تعارف ، حيث قبلت عرضه اللطيف في أن يزودني بالدواب ، وقد وعدته بأن أحقق رغباته باستئجار هذه الدواب عند الضرورة . وعندما عاد المبعوث شرع في إقناعي بأن قبيلته هي القبيلة الوحيدة التي بإمكانها أن تؤمن لي الحماية التي أحتاج إليها ، فأجبته على هذه الفكرة بتأكيدي له عن ثقتي التامة بصداقته ، ثم كتبت رسالة إلى عمه أخبره بها عن وصولي وعن هدفي في تجديد علاقات الصداقة التي لا تزال قائمة منذ زمن بعيد بين قبيلته وبين رجال الحكومة البريطانية الذين لا يزالون يُستخدَمون في هذا الجزء من العالم حتى الآن .

وبما أني طلبت من الآغا أن يرسل خيلاً في الصباح الباكر من هذا اليوم ،

الثـالث والعشرين من حـزيران ليتمكن الطبيب (بـلاي) من زيـارتـه فقـد انتظرت وصول رسوله حتى الساعـة الحـاديـة عشرة ظهراً ، دون أن يظهر لـه أي أثر ، لـذلـك اضطر الطبيب إلى العودة إلى السفينـة دون أن يصف دواء لشكـوى الآغا ، وقد فهمت فيا بعد أن أسبابها كانت تُعزى بشكل أساسي إلى النَّهم الشـديـد في الطعام .

الرابع والعشرون من حزيران (يونيو) :

في صبـاح الرابع والعشرين من حزيران أرسلت الشيخ ليقوم بزيـارة لخليل آغا وفي نفس الوقت كتبت له رسالة إطرائيـة ذكَّرتـه فيهـا برغبتي في التوجـه إلى الأحساء في اللحظة التي يمكنه أن يؤمن لي فيها الحماية الضروريـة ، فنصح الشيخَ بالنسبة لهذه النقطة بأن يقوم ببعض التحقيقات الخاصة .

وقد زادت حـدة مزاج الآغـا ، الـذي يتسم بـالنكـد في الأحوال العـاديـة ، عندمـا شـاعت أنبـاء عزلـه ، وكان مشرف بن عريعر قـد تلقى أوامر بـأن يؤمن الدواب لنقل متاع الحاكم ومندوبيـه إلى الأحسـاء ، وأن يتولى مهمـة إدارة أعمـال الحكومة بنفسه . ونظراً لأنه كان متشوقاً إلى تعيينـه في منصبـه الجـديـد دون أي تأجيل فقد ظهر عند بوابة المدينة مع حـاشيتـه من الخـدم . لكن الآغـا رفض أن يسمح له بالـدخول مـالم يختر اثنين منهم فقـط للـدخول معـه ، لكنـه رفض هـذا الطلب . ومن خـلال المشـاورات التي تمت عن طريـق بعض الرسـل سلـح التركي نفسه وهو في مجلسـه الـذي ضج من كثرة الصيـاح . وإذ بمشرف ينسحب بلبـاقـة فطلب منه التركي أن يستعد لتنظيم حساباته . إذ يبدو عليـه أنـه حـاذق في هـذه المصلحة فتراه يحوِّل العشرات إلى مئات والمئات إلى عشرات ببراعة فائقة .

وعلى الرغم من أن خليلاً كان قـد أرسل رجـلاً برسـالـة على جمـل سريـع إلى الأحساء فإني أدركت أني إذا أرسلت رسالة إلى محمود آغا كاشف على وجـه السرعـة

فلربما أحثه على تهيء الظروف من أجل الإسراع برحلتي إلى الأحساء ومغادرتي لها ، لذلك كتبت رسالة إلى ذلك الضابط وأرسلتها على الفور مساء الخامس والعشرين من الشهر الجاري .

سأحاول أن أضع وصفاً صحيحاً للقطيف وللمنطقة التي تجاورها بقدر ماستساعدني فيه ذاكرتي المعيبة :

يبلغ عرض خليج القطيف عشرين ميلاً عند مدخله آخذاً شكله الحالي بتأثير عنق رملي ضيق وطويل جداً من جهة الشمال ، وبتأثير سهل رملي منبسط من جهة الجنوب ، حيث يُدعى البروز الشمالي رأس تنورة ويدعى الجنوبي الظهران . أما جزيرة (تاروت) فتقع في الوسط متجهة نحو قمة الخليج ، يبلغ طولها عشرة أميال ، ممتدة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، غرست فيها أشجار النخيل بشكل كثيف ولديها زاد كاف من الماء . تبرز ضفة من هذه الجزيرة باتجاه فتحة الخليج على شكل صَدَفَةٍ مَحارِيَّةً ذات سلسلة من النتوءات المتخذة شكلاً دائرياً تقسم الخليج إلى قناتين : الشمالية وقد سبق وصفها ، عميقة وآمنة تسير بشكل مواز ومجاور للعنق الرملي . والجنوبية ، وهي رقيقة الماء ووعرة ، تبتعد كثيراً عن الشاطئ الذي يمتد منبسطاً إلى مسافات بعيدة ، وما بين القناة والشاطئ ماء رقيق جداً . ويمتاز هذا الجانب بعلامة خاصة ـ تلة مخروطية على البر الرئيسي تسمى الظهران . وفي الميناء إلى الداخل يوجد برج أو حصن محاط بالماء يسمى الدّمام وقد رممه مؤخراً رحمة بن جابر ، تجثم ورائه قرية سيهات قائمة على البر الرئيسي ، وتبعد مايقارب أربعة أميال عن حصن القطيف الذي يحاذي في امتداده جزيرة تاروت . (٨)

تعتبر القناة الشمالية أكثر القنوات سلامة وأمناً ، لكنها تقع على مسافة بعيدة عن القطيف . فمن أجل الخروج من هذا المرسى إلى القطيف يجب على الزوارق

أن تدور حول ضفة تاروت . والدخول في هذه القناة سهل جداً ، فهو يحتاج إلى تعديل الاتجاه نحو بروز العنق الرملي الضيق بحيث تبقى السفينة على بعد يعدل طول كَبلِ السفينة عن الشاطئ لتمشي جنباً إلى جنب مع تاروت وهنا يلفت الانتباه في الوقت المناسب جزيرتان رمليتان صغيرتان عند آخر الخليج ، بالإضافة إلى نقص الماء ، ففي هذا المكان يصبح المركب آمناً من الرياح الشمالية الغربية الهوجاء ، لكن القاع رملي .

يوجد لحصن القطيف ثلاث بوابات ، وهو على شكل مستطيل ، ولأطول وجه فيه ـ وهو المتجه إلى البحر ـ قلعة عند أقصى زاوية باتجاه الشمال ، وهي مزودة بنبع مائي جيد ويعتقد أن البرتغاليين هم الذين شيدوه . توجد بعض البيوت الجميلة داخل الحصن . أما بالنسبة لعمق الماء في مكان النزول هنا فيزيد عن عمقه في سيهات ، وقد سبق الحديث عنه ، ومع ذلك كان مزعجاً تماماً .

يُعقد عادة سوق خارج بوابة الحصن الجنوبي كل خميس تتوفر فيه كميات كبيرة من لحم الضأن والرز والتمر والسمك والبطيخ ذي الحجم الكبير (تزن البطيخة الواحدة مابين أحد عشر وثلاثة عشر كيلو غراماً) ، بينما لا ينتج القمح والشعير بالوفرة التي ينتج فيها الرز . ويُعزى سوء هواء القطيف صحياً إلى العناية بزراعة الرز ، أما التين فمتوفر بكثرة وذو نوعية جيدة . كما يزرعون بعض المشمش والمنجا والرمان والعنب والبرتقال والليمون . بينما يُرى الباذنجان والبصل والفاصولياء واللوبياء والفول في الحدائق التي تمتد إلى مسافة طويلة ، وهي مطوقة بالصحراء من أحد جانبيها وبساحل البحر من الجانب الآخر ، وتُسقى كل هذه المزروعات من مياه الآبار ، وعلى الرغم من أن التربة رملية فإنها صالحة لإنتاج كميات كبيرة من المحاصيل .

أما التجارة في القطيف فهي زهيدة في هذه الفترة لأنها ترتبط مع البحرين فقط ، حيث تستورد البضائع من صُراط ، أما التوابل والسكر وتوابعها فهي

تــؤمن من الهنــد . وتُعتبر البحرين في الحقيقــة المفتـــاح إلى بحران[1] والقطيف وعنجير وهاتان الأخيرتان كلاهما تُموَّلان من تلك الجزيرة . أما الأحسـاء ومـدن الداخل فتعتمد على المؤن التي تصل إلى البدو عن طريق القنـاة ، لكن الاستهلاك ضئيـل حتى الآن بسبب عـدم الاستقرار في المنطقـة ولأن البـدو رَحلـوا بـاتجـاه الشمال ، فتُمول الأحساء بشكل رئيسي عن طريق عنجير مما يسبب وجود اتصـال مبـاشر معهـا أكثر من غيرهـا ، وهـذا بـالطبع يقلص تجـارة القطيف . وسـأعـدد البلدان والقرى الخاضعة لحكومة القطيف :

المـــــدن	عدد السكان
مدينة القطيف	٤٠٠٠ نسمة
ضواحي المدينة	٢٠٠٠ =
تاروت	٢٤٠٠ =
صفوا	٢٤٠٠ =
العوامية	٢٤٠٠ =
ليام	٨٠٠ =
الجِش	٥٦٠ =
أم لقمان	١٦٠٠ =
الجرودية ـ الجارودية	١٢٠٠ =
سيهات	٢٠٠٠ =

جميع المدن التي ذكرت مسورة .

أما القرى التالية فغير مسورة :

---

(١) البحرين جزيرة ، أما البر الأصلي المقابل لها فيدعى بحران . المؤلف .
بل البر المقابل يدعى في القديم البحرين والجزيرة أرال ، وصراط هي سورات بالهند . المحقق .

المـــــدن	عدد السكان
الملاّحية	٤٠٠ نسمة
لغَوّة	٤٠٠ =
الخُويلدية	١٦٠٠ =
شيزيل التوبي	٤٨٠ =
شيزيل باري	٥٦٠ =
حيلة محيش	١٢٠٠ =
الدبيبية	١٢٠٠ =

الدخل العام	بالكراون الألماني
ضريبة حرب يدفعها القرويون وأبناء المدن الذين يعتبرون غير خاضعين قانونياً للاستدعاء إلى ساحة القتال. وهذا يدفع نقداً كمبلغ ثابت لا يتغير.	٢٠٠٠٠
عشر الإنتاج الإجمالي، يجمع كل نوع بنوعه كالرز والبلح وغيرهما.	٥٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠
جمارك بحرية	٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠
الصيد بأنواعه	ضريبة زهيدة
أجور رسو السفن	ضريبة زهيدة

لا يسكن القطيف هندوس ولا مسيحيون في الوقت الحاضر، فلم أستطع أن أدبر شخصاً يستطيع أن يعمل كسمسار، حيث الأوضاع العامة غير مستقرة في هذه الأيام، فقد أخفقت أيضاً في إتمام ما كنت أرغب في الحصول عليه ومعرفته من القطيف، إذ لا شك أن الكارثة الحالية التي تحل بها غير مواتية مطلقاً، فقد قَصر الأتراك جهودهم وانهمكوا في جباية التبرعات، بينما رجال الأموال في لهفة لأن يحجبوا أنفسهم عن الأنظار.

الثامن والعشرون من حزيران (يونيو) :

أتاني الشيخ مشرف آل عريعر في صباح الثامن والعشرين ليعرض علي دعمه لي بالدواب التي سأحتاجها لنقلي إلى الأحساء وفقاً للوعد الذي أبرمه في الثاني والعشرين من الشهر الجاري . ونظراً لكوني لا أستطيع أن أعتمد على قوة الرجل التركي الذي استدعي إلى الأحساء الآن ، والذي توصم حكومته بالحماقة التامة ، فإني قبلت هذا العرض بكل سرور ، فأرسل رسولاً يطلب الدواب من مخيمه البدوي الذي يبعد عدة أميال عن القطيف إذ إنه قام بتجميعها خلال اليوم أو اليومين الماضيين . ثم تلقيت رسالة من عمه محمد يَعِدُ فيها بكل مساعدة يطيقها ، وبما أن مشرف اقترح أن يمر بمخيم عمه وهو في طريقه إلى الأحساء فقد اقترحت عليه أن يصطحبني . ثم أُحضِرت الدواب المتفق عليها بالإضافة إلى ستة رؤوس من الخيل المسرجة كدعم إضافي قدمه الشيخ . وعندما انتهينا من وجبة المساء السريعة التي شارك فيها الشيخ أُعلن عن وصول يوسف آغا الذي قَدِمَ من عند الحاكم خليل آغا ليطلب مني تأجيل رحيلي إلى يوم رحيله الذي يتوقع أنه سيكون بعد أيام معدودة ، مؤكداً لي ضرورة مرافقتي له . وقد أوعز إلى يوسف آغا أن يقنعني بأي أسلوب ألا أعتمد على البدو ولا أثق بهم أبداً . وهكذا كان يبدو على خليل آغا شيء من الاهتمام بي . كان عنده مندوبان تركيان فقط وحوالي ستين عربياً من القرى المجاورة في خدمته ، وكلهم سيُعفون من وظائفهم ، فقد استدعي هو وموظفوه كلهم ، مما أدى إلى تعطيل نفوذه ، لذلك لم أعد أُحبذ أن يزعجني مرافق لا فائدة منه ولا نفع ، فانتقيت الشيخ المشار إليه واخترت الاعتماد على حماية البدو الذين يتوقع أن يَستدعيَ ذلك التركيُّ بعضهم لحمايته هو بالذات بالإضافة إليّ . فأرسلت جواباً إلى الآغا أنه نظراً لمرافقة مشرف لي إلى مخيم عمه ولكوني دفعت لبدو هذه القبيلة أجور جمالهم فإني أرى نفسي في غاية الأمان ، خاصة وأني مدعو من قبل الشيخ محمد بالذات لزيارته إن استطعت إلى ذلك

سبيلاً ، وما أظن أن الباشا سيرضى عن زيادة في التأجيل . من أجل ذلك حوّلت هذا الكلام إلى نصّ مكتوب آملاً أن أحظى بالسعادة عندما ألتقي مع خليل آغا في معسكر سيده لأودعه هناك . ثم إني قدمت ليوسف آغا هدية رمزية رداً على الاهتمام الذي أبداه عندما نزلنا إلى البر ، وكان متلهفاً لمعرفة ما إذا كانت هنالك هدية لخليل آغا فأجبته بأن الهدية ستقدم للشيخ الذي أمّن الدواب وستكون قيمتها متناسبة مع سرعته في تحقيق رغباتي . فانطلق وقد بدت عليه سمات الرضا الكامل عن نفسه وعني وعن طبيعة الجواب الموجه لسيده .

الطريق ـ سرنا في الساعة السادسة مساءً من قرية سيهات مسافة ميلين نحو الغرب فوصلنا مخيم بدو (مشرف) خلال ساعة ونصف . وهو مخيم متطرف في خيام مجاورة لآبار في الصحراء على أطراف مزروعات النخيل التي كنا نسير حولها . وهنا خيمنا عند العرب واضطجعنا في السهل المترامي الأطراف (كان القمر يسطع ببريق جميل على الرمال البيض التي بدت كمحيط ممتد المياه ، وكان مشابهاً في مظهره لسطح الأرض في أماكن كثيرة . ولقد تزودنا بمؤونة وفيرة من الماء من تلك الآبار التي تسمى ماء البدراني وهي قريبة من قرية الجارودية والمسافة من هذا المكان إلى القطيف تقارب الميلين .

التاسع والعشرون من حزيران (يونيو) :

سرنا مساء الثلاثاء التاسع والعشرين من حزيران ، بعد أن واجهنا صعوبة كبيرة في حمل الأمتعة ، على الرغم من أن جميع الأحمال كانت خفيفة ، لكن الضيق كان ناجماً عن حمل لحم العجل الذي اعتدنا على استعماله في الهند ، كما أن العرب صمموا على توفير جمالهم قدر الإمكان ، فما كانوا يسمحون لأحد بالركوب حتى يتدخل الشيخ . ثم خضنا في الصحراء كطاقم متعدد الألوان فسرنا ثلاثة أميال باتجاه الغرب حيث اجتزنا جدول ماء ، وبعد ميلين صادفنا بئراً صغيراً

استقينا منه ، ثم سرنا سبعة أميال غرباً ثم جنوباً ، وكانت الساعة الثالثة عندما توقفنا واضطجعنا في الصحراء للانتعاش ولأن العرب يسرون من الإقامة في معسكر مؤقت حيث لا ماء ولا علف ولا نار . فاضطررت إلى استخدام لغة الاستعطاف لأحث الشيخ على مواصلة السير من هذا المكان المُقفر ، فقد علمت أنه لم يبق أمامنا سوى خمسة أميال لنصل إلى محطّنا التالي حيث لا يتوقع أيضاً وجود ماء عذب على الرغم من أن استهلاكنا لهذه المادة الضرورية كان سريعاً جداً . لكن العرب لم يكترثوا بنصيحتي فقد أطلقوا لأنفسهم العنان إلى كل قِرَبة ماء طالتها أيديهم . وسرنا في الخامسة صباحاً من اليوم الثلاثين حيث وصلنا خلال فترة قصيرة إلى آبار مالحة عند عزومية ، وقد سلكنا خلال هذا الطريق اتجاه الغرب ثم الجنوب فنزلنا ولم يكن لدينا من الماء سوى زقٍّ واحد للمجموعة بكاملها ، فأمرت بحفر بئر عسى أن نحصل على ماء أفضل ، لكننا لم نفلح . كان كل هذا المسير فوق صحراء من التلال والسهول الرملية الممتدة ، وكانت الطبقات العليا من هذه الرمال مغطاة بقشرة سميكة من ملح متكتل تغوص فيه أقدام الدواب إلى عمق كبير في كل خطوة من خطاها ، ولم يكن في هذه الأصقاع أي أثر للخضرة إلا ما كان على التلال من باقات معدودات من الأعشاب وأشجار السمّار وبعض الشجيرات البنية المتوقفة عن النمو مبعثرة هنا وهناك ، وكانت تكثر شجيرات تنمو على هيئة حزم مستديرة شديدة الخضرة يخرج منها سائل مالح يميل إلى الحموضة ، ولها أوراق سميكة بيضوية متطاولة ومشبعة بهذا السائل . تأكل الجمال أحياناً من هذا الشجر لكن دون أن يظهر عليها رغبة فيه ولا تفضله عن غيره . ومن رماد هذه الشجيرات يُحصل على البوتاس الأصلي الذي يدعى الأشنان ، ويبدو أنه الاسم العربي (للقِلي) أو أنهم يطلقون عليه اسم النبات الذي يحصل منه على القلي . أما الحرارة فكانت لا تطاق في النهار ورياح الصحراء الحارة تهب على شكل تيارات هوائية قوية تجعل التنفس في غاية الصعوبة .

أعلمني عربي خبير أن الصحراء خـاليـة من القرى بـاستثنـاء الشمال والشمال الغربي منها حيث توجد سبع قرى صغيرة يتراوح سكانها بين خمسين ومائة وخمسين أسرة تسكن كلها في أكواخ . وتعتاش كل واحدة منهـا على أشجـار معـدودات من النخيـل وزراعـة ضئيلـة . أمـا في اتجـاهَيّ الغرب والجنـوب الغربي فكل المنطقـة صحراوية .

الثلاثون من حزيران (يونيو) :

سرنا في السادسة مساء وتوقفنا في التـاسعـة والربع طلباً للراحـة ، كما فعلنـا مسـاء أمس حيث استطعنـا أن نحصل على القليل من المـاء الآسن الفـاسـد . كان الهواء رطباً فإذا بساعات قليلة من النوم تنعشنـا بعـد حرارة النهـار الملهبـة . كان مسيرنا فوق تلال رملية حيث لم يصـادفنـا سهل ملحي آخر . بل زادت بـاقـات الأعشـاب وأشجـار السمّـار في تبعثرهـا ، ولا يضـاف إلى نبـاتـات الأمس سـوى شجيرات من نبات الألبان .

الأول من تموز :

تابعنا السير في الساعة الخامسة وخمس دقائق من صبيحة اليوم الأول من تموز لنكمل مرحلتنا وتوقفنا في الثامنة إلاّ ربعاً عنـد بئر يسمى المولحـة ، ورأينـا (تل الدم) إلى الجنوب الغربي ، حيث أخبرت أن الأحسـاء تقع وراءه مبـاشرة ، وأنـه لا يمكن تدبير ماء إلى الغرب منا فيما بين ماءي المولحة و (أم ربيعـة) مع العلم أنـه لا يزال أمامنا مرحلتان طويلتـان لـذلـك تخلّوا عن فكرة التوقف في هـذه الليلـة وقرروا أن يتـابعوا السير إلى أبعـد مسـافـة ممكنـة مع حمل مؤونـة يوم واحـد من الماء ، وعندما استقينا من البئر قبل أن نسير لاحظنـا أن مـاءه قـد تنـاقص كثيراً نتيجـة لاستهلاكنـا في هـذا اليوم . وهو بئر يموّل العرب الرُّحل الـذين يقيمون في الصحراء ويرعون الغنم والمعز التي يمتلكون منها ما يقارب المائتين ، ولم يكن أفراد

المجموعة التي نزلت عندهم من هـذه الجماعـات راضين عن زيـارتنـا لهم ، ولم يكن الشيخ كريماً معهم ككرمه مع رجاله الذين تزودوا جميعاً باللحم من قطعان هؤلاء البدو .

الأول من تموز أيضاً :

انطلقنا في السادسة والنصف مساء وتوقفنا بعد هبوط القمر خلافـاً لمـا كنت أتوقع فإذا بنا نرى أننا عاجزون عن تأمين ماء أو أية مستلزمات أساسيـة أخرى ، ولم أكن على علم بأن الشيخ مصمم على البقاء هنا حتى الصباح فاستسلمت للنوم بلا غطاء ، وقد جعلتني هذه التصرفات أتأكد بشكل جازم أن البـدو أكثر المسـافرين إزعاجـاً في الكون كلـه ، فهم عشوائيون لا يفكرون بتحضير أي شيء قبل المسير ، ولا يضعـون أيـة خطــة لمسيرهم . ولقــد تغير عليّ مظهر الصحراء كثيراً في المسير الأخير ، إذ تركنا تلـك التلال الرمليـة الغريبـة التي كانت تشبـه في شكلهـا كتلاً متـدحرجـة من أمواج المحيـط ترتفع الواحـدة تلو الأخرى ويتغير اتجـاههـا بشكل ملحوظ ، وقـد لاحظت أن التغيير كان عمومـاً بـاتجـاه الجنوب . وكانت السـاعـة تقارب التاسعة عندما صعـدنـا تلاً مرتفعـاً لم تكن الرمـال فيـه عميقـة ، كما مررنـا بعده بعدة تلال أخرى لها المواصفات نفسها قبل توقفنا في السـاعـة الثـانيـة عشرة والنصف ليلاً .

الثاني من تموز :

انطلقنا في الخامسـة والنصف صبـاحـاً لنكمل نفس المرحلـة حيث وصلنـا في الثامنة والنصف صباحاً فرأينا قطيعـاً كبيراً من الظبـاء ـ قـد يصل إلى مـائتين ـ وهي أول طرائد رأيناها منذ انطلاقنا . وتوقفنا في هذا المكان من الصحراء طيلـة النهار واضعين نصب أعيننا تخطي مسافات طويلة قبل أن نتمكن من تـدبير مـاء فقد كان التوقف في الليل يسبب استهلاكاً غير ضروري مما تزودناه منه .

الثاني من تموز أيضاً :

كان الشيخ مشرف يُلحُّ عليّ كثيراً من أجل الحصول على هدية ، وقد سبق لي أن أفهمته أني مصمم على تقديم هدية له عربوناً لصداقتنا على أن يتم ذلك لدى وصولي إلى معسكر عمه الذي يُتوقع أن نصله في صباح اليوم التالي ، لكنه ألح بإصرار على أخذها هذا المساء زاعماً أنه مصمم على متابعة المسير ويرغب في أن يحصل على بيِّنةٍ يستدل بها على رضاي بارتدائه لها قبل وصوله ، فما كان مني إلا أن هيأت له ماأعتبره لنفسي هدية في غاية الأناقة وأرسلتها إليه ، فاستلمها وقد بدت عليه علامات الرضى التام . وإذا به يأتيني بعد قليل ليفتح نقاشاً يتعلق بأجرة الخيل التي كنت لاأزال أعتقد حتى ذلك الوقت أنهم أعاروني إياها من قبيل المجاملة واعتبرت الهدية التي أرسلتها له مقابل ماأبداه من اهتمام بالمجموعة لكنه أصرّ على أن أدفع عشرة دولارات عن كل رأس من الخيل . وكما أني دفعت لجميع الناس الذين استأجرت منهم عليّ أن أدفع له أجر خيله وهددني بأن يتركني في مكاني إذا لم أفعل . وعندما وصلت به الأمور إلى هذا الحد وجدت أنه لم يعد أمامي أي خيار فاضطررت إلى الموافقة وأتيت إلى متاعي لأفتحه وأخرج المال طالما أنه لن يؤجل تلبية طلبه إلى الغد . كان تصرفه تصرف إنسان همجي توصَّل إلى حصر فريسته ضمن جبروته ، وصمم على ألا يضيع الفرصة خشية ألا يجد شخصاً آخر غيري يستطيع أن يسلبه . وفي ذلك الوقت بالذات لم يكن لدينا ماء ونعرف أننا لانستطيع أن ندبر شيئاً منه ، لذلك كنت سعيداً عندما وضعت حداً لهذا الصخب بدفع ستين دولاراً .

ونُشرت إشاعة في ذلك الوقت عن رؤية لصوص ، لكني أجبت على ذلك بأن اللصوص الوحيدين في الصحراء إنما هم من قبيلته بالذات وأنه ليس بإمكانه أن يُدبَّ الرعب في قلبي إلى تلك الدرجة ، فلن أذعن لأي طلب ربما يطلبه مني مقابل دفاعه عني لأنه يُعتبر مسؤولاً عن سلامتي . ولقد لاحظ أني عازم على عدم

الإذعان لطلبه وحازم في أمري ، إذ كنت وثلاثة أو أربعة من رجالي مدججين بالسلاح ، فرأى أن خطورة كبيرة تنطوي وراء قيامه بأمثال تلك الخدع . وقد ازداد حزني إلى حد كبير عندما تذكرت أن جزءاً من الهدية التي أرسلتها لذلك الهمجي يتألف من شالين أنيقين من صناعة كشمير مما أهدانيه إمام مسقط عندما ودعت بلده ، ولقد نجحت هذه الظروف الغريبة في أن تقدم لخيالي هدية تكشف عن الاختلاف الصارخ بيني وبينهم إذا ماقورنَت هذه الهدية مع الهدية التي قدمتها لهم ، الأمر الذي أظهر أن البدو لا يزالون يشكلون ضرراً كبيراً في المنطقة .

سرنا في السابعة مساء بعد تأخر زاد عن الساعة والنصف بسبب تلك الخلافات ، فوصلنا مخيم بدوٍ عند ـ الأبواب ـ يتكون من ثلاثمائة خيمة من خيام قبيلته (العمور) فتوقفنا وترطبنا ببعض الماء الآسن واضطجعنا تلك الليلة كعادتنا ثم انطلقنا في الخامسة والثلث من صباح الثالث من تموز . كان هذا المعسكر يقع على حدود سهل ملحي محاط ببعض الهضاب المتبددة ، وفي الثامنة والربع صباحاً وصلنا معسكراً كبيراً ، لبدو قبيلة بني خالد التي يحكمها الشيخ محمد والشيخ ماجد اللذان تطرفا في هذا السهل المسمى أم ربيعة . وقد زارني الشيخ محمد ، وهو رجل مسن شديد الصمم ، مثقل بالثياب إلى درجة أني استغربت كيف استطاع أن يتحمل هذا الحمل ، ولم يكن منتعلاً على الرغم من أن الرمال كانت تلتهب من شدة الحرارة ، فلم أكن أطيق أن تلمسها قدمي . وإنه ليبدو من السخف أن ترى رجلاً يرتدي شالاً يمنياً يغطي به رأسه وثوباً سميكاً من القماش القرمزي وقميصاً من نسيج ذهبي وفي نفس الوقت لا يلتمس الراحة بارتداء نعلين في صحراء ملتهبة . لم يكن النقاش الذي تبادلناه ذا أهمية كبيرة ، إذ لم أر أنه من الأدب أو من حسن الوفادة أن أحتجزه نظراً لأنه متمسك بصيام رمضان تحت الشمس المحرقة في الصحراء المخيفة ، وقد أمضينا فترة طويلة من تلك المقابلة من

أجل الإطراءات وتأكيدات الصداقة ، انطلق الرجل بعدها حافي القدمين .

سنحت لي الآن فرصة لإعطـاء تقرير عن تصرفـات مشرف في الصحراء ، فقد صار الآن رهين قوتي ، تماماً مثلما ظن أني كنت بين يديـه بعـد ظهيرة الثـاني من هذا الشهر فكتبت رسـالـة رسميـة للشيخ محمـد مفصلاً فيهـا جميع الجزئيـات ، ومن حسن حظي أن اجتماعاً كبيراً كان معقوداً عندمـا وصلْتُـه حيث قُرئت عليـه بصوت عـال لمـا هو مصـاب بـه من صمم ، وكانت نتيجـة بـدهيـة أن سمعهـا جميع جلسـائـه الـذي سبق لمعظمهم أن سمـع من مشرف أني لم أكن كريمـاً معـه ولا مـع رجاله ، لكن سرعان ماأصبح هـذا الزيف واضحـاً وجليـاً نظراً لأنـه أهمل تقسيم جزء من أجور الماشية مما أحدث الصخب بين رجالـه . فـإذا بـأوداج الرجل المسن تنتفخ غضباً نتيجة لما سمع ، وأتاني عمه ماجد بعد المغرب ليعرض علي أي تعويض لما بدر عن ابن أخيه الذي وَصم نفسه وقبيلته بالعار ، كما رغب في أن تُعاد الهـديـة والدولارات الستون . لكني رفضت اقتراحه هذا موضحاً له أنه ليست قيمة الهـديـة ولا المبلغ دفعاني إلى أن أذكر الموضوع ، بل لأني شعرت بـأني أُهِنت إهـانـة كبيرة من جراء تصرف مشرف الذي كنت معه في غايـة الكرم آملاً في أن يبرهن لعمّيْـه إلى أي مدى قد قدَّرت صداقتهما التي لا يمكن أن تلتئم بعد هذا الصدع الـذي هلهل الثقة والإخلاص ، وأنه لا يمنعني من أن أشير بهذا الموضوع إلى البـاشـا سوى ذلـك الدافع الوحيد الناشئ عن احترامي لمشايخ البدو . فأجاب قائلاً إنه ليست هنالك حاجة للإشارة بهذا الموضوع إلى الباشا لأنه قرر بأن يبرز مشرف صباح غـد أمـام الناس ويعاقبه عقاباً يكون عبرة له ولغيره . وعندما سمعت بهـذا الوعـد رغبت في تغيير الموضوع وفسحت له المجـال لـدراسـة النتـائج التي قـد تظهر من جراء تكرار مثل هذه الإهانة . وبعد القهوة والتدخين استأذن للذهاب وأويت إلى فراشي ، ثم أتاني مشرف مع اثنين أو ثلاثة من العرب الذين تحلّوا بالوقـار ، وقـد بـدت عليـه أمارات الندم العميق لما بدر منه فـأسهب في الاعتراف بـالخـدعـة بكاملهـا ثم ظهر

عليه الخوف من عواقب صباح الغد إذ رمى بنفسه على قدميَّ وتوسل إلي بأن أفسح له فرصة تجنب العار الذي ينتظره من جراء تصرفه السابق فرأيت أنه من اللائق أن آخذ بعين الاعتبار منصبه بين أفراد قبيلته وأن أستغل فرصة استمالة قبيلته ، مفضلاً ذلك على التمسك بفكرة قد يكون تطبيقها موضع شك ، ولذلك منحته مسامحتي .

وفي صباح اليوم التالي قمت برد زيارة الشيخ محمد والشيخ ماجد لأذكرهم بشكل خاص بشأن الإسراع في رحيلي الذي كان محدداً مساء هذا اليوم ، وكم كانوا أكثر سخاء في تقديم أجمل الوعود وأقوى الانطباعات عن الصداقة في هذه المناسبة مما كانوا عليه في المقابلة السابقة وقد بدا كلا الشيخين ضليعين في فن الخداع ، حتى رأيت من الصعب إدراك الحافز الذي دفعهم إلى تأخير تزويدي بالدواب . تحدثا عن رؤية مجموعات من لصوص قبيلة (العجمان) بالقرب من الأحساء ، كما حاولا أن يُبرزا إشاعات عديدة عن المخاطر التي يتوقع أن تواجه خلال المسير . ولم يُقصد من ذلك كله إلا وضع ذريعة لرفع أجور الدواب والحضّ على أن أعدهما بهدية ثمينة ، إذ يعتبر هذان الشيخان من الأشخاص الذين يتوجب على المسافر أن يتقدم إليهم بطلب من أجل دابة تنقله وتنقل أمتعته ومن أجل حرس يحمونه ، هذا مابدا لي من خلال العلاقة التي يقيمانها مع قبيلتهما . أما إذا تمكن المسافر من تدبير دواب بأية وسيلة أخرى فإن الشيخ غير مسؤول عن سلامته ، وربما يكون أول من ينبهه ويهرب بالغنيمة . وقد سبق لي أن سمعت كلمات مدح وإطراء لهذين الشيخين عندما كنت في الطريق فدخلت مخيمها متوقعاً أن أجدهما أهلاً لما سمعت . وإن مظهرهما وخطابهما بالإضافة إلى جزمهما بالنسبة للتأكيدات التي أدليا بها في السابق قد قادتني إلى أن أضع في نفسي ثقة كاملة بهما وكان يحتمل أن يكتب لهذه الثقة الاستمرار لو لم يغير ماحدث في الصحراء شخصية البدوي بشكل كامل في قالب ابن أخيهما ، الذي أعطى أرقى وألطف انطباع عندما تعرفنا عليه لأول مرة .

ونظراً لأني سمعت أن الشيخ محمد يهدف إلى إرسال مبعوث للبحث عن معسكر الباشا فقد طلبت إذنا بأن أوجه رسالة في هذه الفرصة إلى وزير الباشا فوعدني الشيخ بإرسالها .

جاء الخامس من تموز يوم الوعد بالمسير وبدأتِ المراوغات والانشغالات واختتم النهار بقيام الشيخ محمد بزيارة سريعة لي وضع خلالها جميع المخاطر والصعوبات والمستحيلات أمام انطلاقنا ، فختمت هذه المقابلة وأنا مصر على ضرورة سيري إلى الأحساء لأن وصولي إلى هناك ربما يريحه من عثرة ويخلصه من أية مسؤولية أخرى . وبعد مغادرته بساعة وصل الشيخ ماجد وأكد لي أننا سننطلق في مساء اليوم التالي .

عانيت الكثير من الإزعاجات لأني لم أكن مزوداً بحصان ، ولم آلُ جهداً لتدبير جواد منذ وصولي إلى هذا المخيم ، لكن الخيل أصبحت نادرة جداً بسبب الاضطرابات الأخيرة وحالة عدم الاستقرار في المنطقة ، فيُحتفظ بإناث الخيل المعدودة في المخيمات العربية من أجل الإنجاب ، أما المهور الذكور فنادراً ما تعتبر ذات قيمة لأنها لا تفي بالغرض إذا ما قورنت مع الفائدة التي ترتجى من الإناث ، لذلك لا يهتمون بتربيتها ، ونظراً لاحتمال أن يُحرَم صاحبها من مخزون المياه عدة أشهر فإنه عادة ما تربى الذكور على حليب الجمال ، وأما ما عرض علي من أيّ منهما للبيع فكان من المهور الرديئة أو الإناث المُسنة ، وطُلب السعر بالروبيات الهندية بشكل يتناسب مع الكراونات الألمانية بحسب الاستعمال الذي اعتاده زعماؤهم .

السادس من تموز (يوليو) :

أمضيت هذا اليوم مكتئباً ، فقد كان لكمية الماء التي احتسيتها خلال مسيري ولنوعيته الرديئة أثر لا يطاق ، إذ كان مصحوباً بالحمى والعطش الذي يَعْسُر إرواؤه ، كما هبت رياح حارة منذ الظهيرة واستمرت حتى المساء الذي ختم بخيبة

أمل جعلتني أُردِّدُ بأن تسويف البدو ونفاقهم وزيفهم وخداعهم واحتيالهم لا يمكن أن توصف لأوربي في لغة وعبارات تعطي لخياله وصفاً للشخصية الحقيقية لهؤلاء اللصوص الرُّحل . وإنك لتجد من السُّخف أن تُحاول إقناعهم ومناقشتهم بمبادئ العدالة ، والحق ، والإنصاف ، ومما يوازيه في العُقم محاولة الإصرار عليهم بالتزام الوعود والمواثيق التي عاهدوا عليها . كل هذا لا جدوى منه إذ لم تكن تملك وسائل الإجبار على المطاوعة والإذعان . وكانت الاتفاقية التي أبرمتها مع الشيخ مشرف توجب عليه تأمين عدد معين من الجمال لنقل مجموعتي إلى الأحساء مقابل دفعي أربعة كراونات ألمانية عن كل رأس بحيث ينبغي أن نصل خلال أربعة أيام لأن مخيم عمه يقع على بعد ثلاث مراحل عن القطيف وعلى بعد مرحلة واحدة عن الأحساء ، وقد وافقت على تقديم ثلاثة كراونات عن كل رأس ، وقال أنه سيزودني بخيله الخاصة به بلا أجر بل يعتبر هذه هدية رمزية يقدمها لي . ولدى وصولي إلى مخيم الشيخ محمد توقعت أني سأتمكن من خلال المقابلة الأولى أن أقود الشيخ مشرف إلى الإحساس بعدم لباقة تصرفه خلال المسير وإلى منعه من العودة إلى مثل تلك الحيل ، لكن البدوي ذا اللحية البيضاء كان خبيراً متمرساً في الخداع فقد قال إنه ليس لمشرف أية سلطة في أن يستأجر جمال الناس من أجلي إلى ما بعد حدود هذا المخيم ، فكيف يتعدى على حقوق غيره فيتفق معي على أن أستأجرهم منه إلى الأحساء بكراونين عن كل رأس ؟ .. وكان قد وعدني بأن يعيد إليَّ ستين الكراون الألمانية لكنه لم ينجز وعده ، بل أضاف خدعة أخرى بالإضافة إلى ما مارسه ابن أخيه .

وفي صباح اليوم السابع بدأت خيام البدو السوداء تختفي تدريجياً ، فانكشف المعسكر عن بعض البقع الجرداء . جرت دراسة عميقة لأمر المسير إلى الأحساء ، ووجد الشيخ المُسنُّ نفسه مجبراً على أن يذعن لأوامر الضابط التركي في الأحساء مع أنه تذمر كثيراً بسبب ما عاناه من جراء إجباره على التحرك فقد كان يشعر أن

ذلك كان على حساب تنظيفه مع مجموعته لبئرين أو ثلاثة بما يتلاءم مع حاجات المخيم إذ كلفهم ذلك العمل الشاق ما يقرب من خمسة دولارات . وفي المساء وصلت الدواب المخصصة لمجموعتي ، لكننا لم ننطلق حتى الساعة الثامنة فسِرنا في طريق تراجعي تابعنا فيه حتى الساعة الثالثة من اليوم الثامن حيث توقفنا . ولقد واجهت صعوبة كبيرة في حث القائد البدوي على مواصلة السير حتى تمام المرحلة ، إذ كان من جهته يحاول أن يقنعني بالتوقف في مكان يتعذر فيه الحصول على الماء وَوِفْقاً لِعاداتهم المتوارثة في الانطلاق في صباح اليوم التالي . ولقد استعنت بعناد شديد لتنفيذ فكرتي ، فوصلنا في الساعة الثالثة إلى بئر يحوي كمية كبيرة من الماء في بقعة تسمى الحفيرة .

ثم انطلقنا من بئر حفيرة في الساعة السابعة والثلث من مساء اليوم الثامن وخضنا في الصحراء باتجاه الشرق ثم الجنوب ثم الشرق حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التاسع . حيث توقفنا عند بئرٍ ذي ماء طيب يدعى دُميزي وعند بزوغ الفجر مررنا على مخيم للبدو عند آبار عين دار لكن البدو لم يسمحوا لنا بالنزول هناك ، وأعتقد أن ذلك ناجمٌ عن عدم رغبتهم في أن تحرجهم مجموعتنا بسحبها كمية كبيرة من الماء ، لذلك أبعدونا عنهم مسيرة ساعتين على الرغم من أننا كنا في حالة إعياء شديد . وكان سلوك الرجلين اللذين أُرسلا معنا كأدلاء سيئاً جداً في الليلتين السابقتين ، فكانا يتركاننا في الصحراء ويضطجعان للنوم ، ولا جدوى من الكلام معهما في هذا الموضوع ولا في غيره إذ كانت إجاباتهما تَنُمُّ عن وقاحتهما القذرة حتى أنه كان من الأفضل تجنب تبادل أي حديث معهما . والعرف السائد عند هؤلاء البدو أن يَظهَرُوا حليمين ومتواضعين عندما يتساومون مع المُسافر الذي يصبح من لحظة دخوله الصحراء تحت الرحمة المطلقة للمتسودين على رمالها الذين يحكمون باستبداد ويلجؤون إلى الخداع من أجل مصالحهم ، وإذا ما حصل أدنى سوء تفاهم ربما يتوقفون ويهجرون المسافرين الذين يرافقونهم ويتركونهم في أمسّ الحاجة إلى الماء .

خيم الشيخ محمد إلى الشمال الشرقي من آبار تدعى صلاصل .

وفي مساء التاسع رغب سائقو الجمال البدو في أن يحذوا حذوَ حراس المجموعة فيندمجوا في معسكر الشيخ محمد ، وهم يتظاهرون أنهم إنما يبغون الحصول على مؤن من الماء ، ونظراً لاحتمال أن يسبب هذا الأمر تأخر يوم فقد أمرتهم أن يتموّلوا بالرز الذي يعتبر المادة الوحيدة التي قد نتمكن من توفير كمية منها . وبما أننا أشبعنا نَهمَ هؤلاء الهمجيين المزعجين للمرة الثانية فقد سرنا في السّاعة التاسعة والربع مساء . وفي الحادية عشرة مررنا بقرية حودية التي كانت عن يسارنا ، وكانت أولَ منطقةِ سكنٍ مسوَّرة ومستقرة صادفنا فيها مستوطنين من بني البشر ، فالأرض التي تجاورها محروثة ، وترى بالقرب من سورها عدة قطعان من الغنم . وفي الساعة السابعة صباحاً من اليوم العاشر مررنا بنبع رقراق ذي ماء لذيذ في مزرعة صغيرة للنخيل . وفي الثامنة والربع نزلنا عند قرية جَميَّة ، تتوفر فيها كميات كبيرة من الماء والحدائق المُثمرة ، وإلى جانب هذه القرية توجد بحيرة واسعة تُغني السهل بالأشجار المثمرة ، لكن سرعان ماتقيد الصحراء المالحة مفعولها ، كما تُرى بعض شجيرات القطن في إحدى الحدائق . ثم انطلقنا في العاشرة والنصف من مساء اليوم العاشر فتجاوزنا عدة تلال رملية مرتفعة لنكسب طريقاً مباشراً ولنتمكن من الدوران حول رأس البحيرة ، ثم عبرنا سهلاً ملحياً واسعاً محتفظين باتجاه الجنوب حتى وصلنا الأحساء في السادسة صباحاً من اليوم الحادي عشر . وقد مررنا بقريتين كبيرتين كانت عن يسارنا وتبعدان خمسة أميال عن الأحساء ، توجد بالقرب منهما بحيرة أيضاً .

اخترت بقعة بالقرب من حصن هفوف حيث كان يسكن الكاشف وطرّفت بخيامي حتى صارت على مقربة من بئرِ حديقةٍ وافر المياه ، فوصل رجل ريفي ونحن نحط الرحال ليعلمني أنَّ تَحيةَ الترحاب ستطلق وهي مراسم تشريف

لوصولي لذلك ردَّيت للقشيف امتناني وشكري ، فقد دلَّ بهذا على احترامه المطلق .

وفي مساء الثاني عشر منه زارني القشيف . وفي صباح الثالث عشر زارني خليل آغا حاكم القطيف ، الذي سبق أن وصل الأحساء مع رجليهِ التركيين . حصلت فيما بيننا زيارات متعددة حتى السابع عشر من الشهر ، وقد مكنتني هذه المقابلات التي كنت أشجعها من أن أصيغ آرائي التي تنبثق عن المعلومات التي تمكنت من جمعها في تلك الفترة ، والتي حصل لي الشرف في أن أضعها بين يدي الشريف حاكم المجلس .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيڤان نيبيان ، بارت .
رئيس وحاكم المجلس ، بومباي .
السيد الشريف

« إني لأتشرف في إعلام رئيس المجلس أني وصلت إلى القطيف في الحادي والعشرين من حزيران ، حيث رغبت في النزول على برِّها ، مفضلاً هذا عن تطويل رحلتي البحرية بالمواصلة إلى مرفأ العنجير الذي وصف بأن الاقتراب منه صعب المنال ، كما أن الاتصال مع الأحساء من هناك محفوف بالمخاطر والمجازفات . لم يسكن القطيف من الأتراك سوى الحاكم ومساعدوه وكان في خدمة الحاكم ستون رجلاً عربياً من القرى المجاورة يأخذون أجراً للقيام بحراسة هذا المكان . وقد قادني عند الشاطئ ملازم أول بدا كأنه يشغل مركزاً تافهاً » .

« وبعد تأجيلي عدة أيام تبيَّن لي أن الآغا التركي لم يكن يملك وسائل نقلي وحمايتي في طريق الأحساء ، وأنه هو بالذات يعتمد على مشايخ البدو في حماية المنقولات على هذا الطريق ، لذلك صممت على أن أضع نفسي في حماية شيخ من

قبيلة بني خالد وأنطلق إلى الأحساء لأتجنب الزيادة في التأخر . وبعد مسير متعب ومرهق عبر الصحراء - زاد في إزعاجه تصرفات البدو وخداع مشايخهم - وصلت الأحساء في الحادي عشر من الشهر الجاري » .

« استُقبلت لدى وصولي إلى الأحساء بالود والترحيب وبكل سلاح كان يُسمح لقوات القشيف التي على الحدود أن تستعمله . ثم إنه زارني ورددت له الزيارة وكان الموضوع العام خلال النقاش تأكيدات متبادلة عن الرغبة في استمرار علاقات الصداقة القائمة بين الحكومتين الموقرتين . وقد بدا الضباط الأتراك الذين سنحت لي فرصة مناقشتهم أنهم في جهل تام لأفكار الباشا لأنهم انفصلوا عنه منذ زمن بعيد ، وقد أضناهم تعب خدمة ثلاث سنوات شاقة في هذه المنطقة الغريبة المجدبة وكانت أفكارهم وآمالهم متجهة نحو توقع استدعائهم إذ يبدو أن التاريخ المعين لرحيلهم قد قرب » .

« أما الوضع السياسي لهذه المنطقة فيختلف بشكل ملموس عن التقارير التي كانت متداولة في الهند في الفترة التي غادرت فيها » .

« ويبدو أن الباشا قد وجد أن جنوده كانت ممتدة على نطاق واسع جداً إلى درجة صعوبة تحقيق اتصالات على مسافات بعيدة في بلد تُكوِّن الصحراء المساحة العظمى من أراضيه فربما تحيجه إلى قوات كبيرة نظراً لعجزه عن مواجهة التكاليف التي لا يعوضها الدخل الإجمالي من ريع البلاد ، ولأنه لا يعتمد على ولاء قبائل البدو إلا اعتماداً ضئيلاً فقد هوجمت جنود الحماية بين الأحساء ودرعية على مقربة من السلمية التي تبعد مسيرة ستة أيام عن هذه المنطقة . وكان من وراء ارتكاب هذا الهجوم الوقح بدوُ قبيلة بني سعدة » . (٩)

« وقد قام بدو قبيلة (العجمان)[1] الذين يستعرضون الصحراء حتى جنوب

---

(١) زَوَّدت هذه القبيلة جواسمي رأس الخيمة بعدد ضخم من المتطوعين الذين ركبوا متن زوارقهم في رحلة أو رحلتين حسب حصتهم من السلب الذي يوزع عليهم . « سادلير »

الأحساء بغارة على عنجير فنهبوا الحصن الصغير والأكواخ المعدودة التي تحيط بـه ، ثم هاجموا قافلة كانت على وشك الوصول إلى الأحساء وولوا هاربين بأحمـالهـا ، لـذلـك انقطعت الاتصالات إلى درجـة أن الطريق المبـاشر إلى القطيف غير آمن حتى هـذه اللحظة لأن عدة مجموعات قد شقت الصحراء إلى شمالي هذا المكان » . (١٠)

« تلقى قشيف الأحساء أوامر بأن يجمع شتـات الجنود الأتراك الـذين يصل عددهم إلى خمسين ومائتين ويدمجهم ثانية في معسكر الباشا المتمركز عند (سـدير) الذي يبعـد مسـافـة مرحلتين إلى مـا وراء موقع درعيـة ، وهو المكان الـذي أعلمني القشيف بأن سعادة الباشا ينوي البقاء فيه شهراً كاملاً . وعندمـا رحلت الحكومـة التركية كان يعتقد مشايخ بني خالـد أن الحكومـة في الأحسـاء فرع تـابع للبـاشـا الذي يطالب بحصة من الدخل الإجمالي تعويضاً لنفقـات الحرب ولإعـادة توطين هذه القبيلة في المنازل والأقاليم التي سبق للوهابيين أن حرموهم إياها » .

« دمَّر سعادته درعيـة تـدميراً كاملاً حتى أنـه لم يبق من ذلـك المكان إلا قسماً ضئيلاً ظل من بعدها مصدر رعب للجزيرة العربية . ويبدو أن حافزاً آخر حثـه على القيام بهذا العمل فضلاً عن الغرور والخيلاء ، فطالمـا أنـه لم ينو احتلال هـذا المكان صار من الضروري أن يحكم عليه بالدمار إلى درجة أنـه لا يتوقع لهـذا المكان أن يتمكن في أي وقت في المستقبل من ضم شمل أيـة قبيلـة من قبـائـل البـدو التي لا يولونها إلا اليسير من الثقة » .

كما يقال أنه يهدف إلى ترك حامية له في (عنيزة) لكي يُرهب قبيلة الدويش المشهورة بقوتها الكبيرة وبكونها وسيلة اتصـال مع الأحسـاء بحيث يمكن أن يرسل الريع عن طريقها بكل أمان . ويعتمد استمرار هذا الأمان على ثبات قوة البـاشـا ، لأنـه على الرغم من كونـه المسبب الـذي تم عن طريقـه تبـديل موقـع القبيلـة إلى المكان الحـالي من أقـاليم وممتلكات الأحسـاء فـإن الأتراك يُظهرون حسـداً كبيراً

لهؤلاء البدو الذين يتطلعون إلى رحيلهم بغاية الشوق والقلق ويعتبرونهم متطفلين . أما الأتراك فإنهم يديرون الحكم هنا بغاية التسلط والاستبداد ، وقد اعتادوا فرض مطالبهم على البدو الذين يُعتبرون عنصراً متخلفاً وهمجياً ، وربما يكونون أصعب شعب في المعاملة على الإطلاق في هذا الكون من ناحية كونه خاضعاً لحكم أو نفوذ .

« ومن الواضح أن مقاطعة الأحساء وميناء القطيف والفوائد التي تُجنى من الاتصالات عن طريق عنجير تهيئ مواقع ذات مزايا أفضل من أية مزايا تُتوقع من مدخل رأس الخيمة . وطالما أن الباشا وجد أن التخلي عن هذه المكتسبات أمر ضروري فإنه لا يتوقع دخوله في أية مشاريع لاكتساب إقليم ربما لا يتمكن من الاحتفاظ به وربما لا توازي مكاسبه نفقات الغزو » .

« ولم أضع بين يدي الشريف حاكم المجلس سوى النقاط التي تمكنت من جمعها منذ وصولي إلى الجزيرة العربية ، والتي تجرأت باعتمادي عليها أن أعرض آرائي الخاصة عن حالة هذه المنطقة ، وخاصة عن أفكار الباشا التي تبدو وكأنها موجهة بشكل محتوم نحو التخلي عن اكتساب إقليم على هذا الساحل من الخليج ، وأنه اقتصر على تأسيس قوته على الساحل الغربي للجزيرة العربية لكونه أقرب من أجل الاتصال بالمنشأة العسكرية في مصر التي يحصل منها على الإمدادات في المؤن والعتاد والأعداد بشكل سريع . وكانت الأسئلة الوحيدة التي بدأها الضباط الأتراك بصدد هذا الساحل من الجزيرة العربية قد اقتصرت على مسقط من الناحية السياسية ، فهو البلد الذي يبدو أنهم يجهلونه جهلاً تاماً . وإن التعليقات التي أدلَوا بها لتشبعني قناعة بأن الباشا قد وجه انتباهه في زمن مضى إلى تلك الجهة . أما التحولات التي طرأت على سياسته ، والتي تحتاج إلى تعليقات ، فهي غير ضرورية في الوقت الحاضر » .

« أما من ناحية إنجازاتي البعيدة فأجد نفسي في أشد الظروف ارتباكاً

وتعقيداً ولو كنت متأكداً من أني سأتعرض إلى الغم والتعاسة اللذين تعرض إليهما الكابتن هاستينغز الذي يعتبر في غاية النبل لتخليت عن أملي في متابعة المهمة التي عُهد بها إلي ، لكن نظراً لأن البواعث التي دفعت الحاكم العام إلى أن يباشر اتصالاً مع الباشا ربما لا تكون مقتصرة على إخضاع رأس الخيمة فحسب فإني أدرك أنه من واجبي أن أبذل كل جهدٍ أطيقه لتحويل أوامر سيادته إلى نتائج مثمرة . أما قشيف الأحساء فيهدف إلى مواصلة طريقه إلى معسكر الباشا حالما يتمكن من الحصول على جِمال من مشايخ البدو من أجل نقل جنود الحماية . وربما يعتبر الشروع بمثل هذه المغامرة بالنسبة لي عبارة عن محاولة محفوفة بالمخاطر ولا جدوى منها ، واضعاً ثقتي فقط في البدو الذين ربما يستغلون حالة عدم الاستقرار في هذا البلد فينهبون ممتلكات الشخص نفسه الذي عَهد بنفسه إلى حمايتهم . من أجل ذلك أعلمت القشيف أني سأكون على أتم الاستعداد لمرافقة جنود الحماية وأني منتظر بقلق جواباً للرسائل التي أرسلتها من مخيم البدو إلى وزير الباشا ، وربما تصل هذه الإجابات قبل أن تستعد الحماية للانطلاق ، ومن فحوى تلك الإجابات ربما أتمكن من تحديد خطط سيري المستقبلية بشكل أكثر وضوحاً وإيجابية مما أستطيع أن أضعه في الوقت الحاضر » .

« لي الشرف أن أكون ، ...

« الأحساء ١٧ تموز ١٨١٩ »

أُعلن عن وصول الشيخ محمد والشيخ ماجد صباح اليوم الرابع عشر بإطلاق نيران التحية تكريماً لهذه المناسبة ، وانشغل الأتراك كثيراً في الأيام التي تلت بالاستعداد للرحلة وقد وعدهم المشايخ بتأمين الدواب ، فبدا كل إنسان في غاية الاستعداد للتحرك . أما أنا فقد حُشرت فوراً مع جماعة من الأتراك الذين طرَّفوا خيامهم المزينةَ حتى أصبحت قريبة جداً من خيامي ، لكني وجدتهم جيراناً غير لائقين لأنهم استغلوا عدة فرص لسرقة حاجات صغيرة لنا .

الثامن عشر من تموز (يوليو) :

وجدت أنـه من الضروري عقـد اجتماع مع القشيف من أجل دراسـة موضوع رغباتي البعيدة ووجهات سيري التي لم يكن بالإمكان أن تُحدد وأنا في المأزق الذي وُضعت فيه دون أن أحصل على معلومات إيجابيـة بصـدد موقع معسكر البـاشـا ، والفترة التي سيبقى سعـادتـه خلالها في موقعـه الحـالي والعـدد المحتمل للأيـام التي نحتاجها لنتمكن من الوصول إليه ، بالإضافة إلى تثبيت موعـد التحرك في الثـاني والعشرين من الشهر الجـاري . فـأجـاب القشيف على هـذا قـائلاً : « إن معسكر الباشا كان عنـد سـدير وهو مكان ربما يَصل إليـه خلال عشرة أيـام أو اثني عشر يوماً من تاريخ مغادرته هذا المكان ، وأنه استلم رسالة من الباشا تصرح برغبته في انتظار وصول القشيف » كانت التأكيدات التي قدمها القشيف مغرية جداً . فقـد بدا متفاعلاً مع اهتماماتي وموضوع وصولي إلى معسكر البـاشـا حتى أني صممت على أن أقبل عرضه الطوعي بتزويدي بعدد كافٍ من جمال الحامية ليمكنني من الوصول إلى معسكر الباشا برفقته « إذْ أكد لي أنه سيوجـه جميع الرسـائل وأن الاتصـالات مع القطيف ما ينبغي أن تغلق . وأما بالنسبة لموضوع عودتي فإن البـاشـا سيتعهـد ذلك الموضوع ... » وسيتحدد تسليم الهدف من مهمتي خلال أيـام معـدودة بحسب ماأرى من إيجابيات نحو إقامة تعاون مشترك فقد بدا لي أن سياسة البـاشـا وجميع أفكاره ترتكز على افتراضات يحتمل أن تكون خاطئـة في بعض نقـاطهـا . وبما أني لاأستطيع أن أشكل من خلال الواقع الحالي أي رأي آخر بالنسبة للموضوع زيـادة عن الخواتيم التي أكدتها ، فإني أعتبر أنه من الحكمة أن ألتزم بالتعليمات التي تلقيتهـا وأن أقوم بما لدي من جهد لأحظى بمقابلة الباشا . من أجل ذلـك أرسلت رسـالـة في اليوم التاسع إلى القشيف أُعلمه بهـا أني وصلت إلى هـذا القرار النهـائي انطلاقـاً من تاكيداته ووعوده ، فكان الجواب الشفهي الذي أعطاه لحـامل الرسـالـة ـ لأن القشيف بالذات لم يحصل على العلم والثقافة الحرة ـ قد بـدا مرضيـاً ومشجعـاً وقـد وعد عدة مرات أنه سيفي بعهوده .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيڤان نيبيان ،

رئيس وحاكم المجلس ، بومباي

السيد الشريف

« لي الشرف أن أوجه لكم رسالة لدى متابعتي لسيري في السابع عشر من الشهر الجاري وأن أعلمكم بأني قد عقدت اجتماعاً هذا المساء مع (محمد آغا) (وكفتن آغازي) (وقشيف الأحساء) . وقد أدركت ضرورة أن أوضح لهذا الضابط الذي يشغل منصباً مرموقاً الحالة الصعبة والمعقدة التي أعتبر نفسي متورطاً فيها ، ولأطلب منه توضيحاً للنقاط التالية : أولاهما عن توقع وصولي إلى معسكر الباشا قبل رحيل سعادته ، مع العلم أني سأرافق جنود حماية القشيف في الثاني والعشرين من الشهر وهو اليوم المعين لمسيره ، فأجاب بأنه سيصل معسكر الباشا في سودَيَر بالتأكيد خلال فترة تتراوح بين عشرة واثني عشر يوماً من ذلك التاريخ ، وأنه سيؤمن حماية لترافقني . وأن الباشا كتب له مؤكداً بأنه لن يغادر من هناك قبل وصول القشيف وأنه ما ينبغي أن تراودني أية شكوك بالنسبة لهذه النقطة » .

« وفي إجابته على اقتراحي الثاني المتعلق بإبقاء الاتصال مفتوحاً أكد لي أن جميع الرسائل سترسل إلى القطيف . أما بالنسبة لعودتي من معسكر الباشا إلى القطيف فقد أكد لي بأن الباشا يملك وسيلة تأمين ذلك الموضوع » .

« لم أحصل على أية معلومات تمكنني من تشكيل رأي أكثر وضوحاً بالنسبة للأفكار المتوقعة للباشا من خلال المعلومات الوجيزة التي تشرفت بوضعها بين يدي مجلسكم الموقر في رسالة السابع عشر من الشهر الجاري ، فالاستعدادات القائمة من أجل رحيل القشيف قد اكتملت فأصبحت مضطراً لأن أحدد مسيري في الأيام

التالية ، وعلى الرغم من أني لاأتوقع وجود تعاون مشترك بين قوات الباشا فإني أتصور أني سأنهي موضوع مهمتي دون الحصول على مقابلة مع الباشا ، لكني أعتقد أن أياماً معدودات من الآن ستحدد تمكني من تحقيق هذا الهدف من أجل التحقق من مناطق نفوذه الرئيسية ومن أفكاره السياسية ، لكني أتوقع أن أواجه اعتراض الحكومة على هذه الناحية ، لذلك قررت أن أشرع بالمسير مع القشيف في الثاني والعشرين من الشهر الجاري ، مع ثقتي بأن هذا القرار سيلقى استحسان وموافقة الحكومة » .

« لي الشرف أن أكون ....

« الأحساء ١٩ تموز ١٨١٩ »

لاحظت أنه من الضروري تهيء هدية مناسبة للقشيف الذي أُخبرت بأنه ضابط ذو مركز مرموق في جيش الباشا . لذلك أرسلت له هدية لدى وصوله إلى المخيم عند الظهيرة ، فإذا به يتسلمها بغاية الرضى فعلمت من ذلك أنه كان مسروراً من سلوكي معه .

الحادي والعشرون من تموز (يوليو) :

رأيت أنه من الحكمة أن أرسل رسالة إلى شيخَيْ بني خالد لأتحقق منهما فيما إذا كانا لا يزالان مصممين على مساعدتي وحمايتي في طريق العودة . ولقد أمضيت عدة أيام وأنا في غاية الشوق للاجتماع بهما ، لكن رحيل القشيف ومشاجرتها مع قبيلة (العجمان) بالإضافة إلى ظروف محلية متعددة منها كوني تقدمت طالباً وجهة نظرهم بشكل أسرع من المعتاد ومنها طمسي لذلك الهدف البعيد الذي حدثتهم به من قبل والذي أجَّلا الخوض به حتى عودتي .

أرسلت الرسالة التالية :

من الكابتن سادلير :

إلى الشيخ محمد والشيخ ماجد آل عريعر ، شيخَي بدوِ قبيلة بني خالد ،

« مضت سنون طويلة وأسرتكم النبيلة ممتلكة لهذه الأقاليم ومعتادة على تبادل العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية . لكن التغييرات التي حدثت منذ ذلك الوقت وضعت حكام هذه المنطقة في حالة عداء مع الحكومة البريطانية بين الفينة والفينة ، خاصة خلال سلطة الوهابيين ،. ولقد أُنقذت هذه الأقاليم من تلك السلطة ، التي مُحِيَت الآن من الوجود ، وأعيدت إلى أسرتكم الشهيرة . وإنه لمن حسن حظي أن أصل إلى المنطقة في هذه المَرْحلة . وقد أعلمتماني شفوياً حتى الآن أن أسرتكم ترغب في تجديد العلاقات الودية السابقة التي ستسفر عن نفع كبير في الوضع الراهن الذي ترغب الحكومة البريطانية من خلاله أن تتعرف على التغييرات والتعديلات التي حدثت مؤخراً . فإذا ما برهن ذلك على وجود الميل الودي نفسه الذي أوضحتماه لي حتى الآن لصار من المؤكد أن ترغب الحكومة البريطانية في إقامة تلك العلاقات . ومن الضروري أن أكشف لكم عن حقيقةٍ هي أن سفينة حربية تنتظر عودتي إلى القطيف في الوقت الحاضر ، فهو الميناء الذي يخضع لسلطانكما بلا شك ، وأني اعتبر نفسي تحت حمايتكما من تاريخ وصولي إلى حدود أقاليمكما وخلال عودتي من معسكر الباشا وحتى تاريخ التقائي بالسفينة التي في مينائكما ، القطيف . ولا شك أن هذا الأمر سيهيئ لأسرتكما فرصة طيبة لتبرهن على مقاصدها الودية ، وذلك بممارسة نفوذكما لصالح مندوب عن تلك الحكومة خلال إقامته في أراضيكما » .

خاتم

كابتن سادلير

ترجمة دقيقة

« مؤرخة في الأحساء ٢١ تموز ١٨١٩ للميلاد و ٢٨ رمضان ١٢٣٤ للهجرة »

زارني الشيخ محمد ، الرجل الكامل الصَم والمتقدم في السن الذي لا يليق به أن يقوم بإجراء مفاوضات ، زيارة سريعة أكد لي فيها أن أكون مطمئناً إلى تمكيني من تحقيق رغباتي كلها ولم ينتظر من أجل الدخول في تفاصيل دقيقة ، لذلك قدمت له الرسالة التي جهزتها وغادر لكي يسارع في ترحيل القشيف . تلقيت جوابه بعد ساعات قلائل فوجدته مقتضباً ، وأغلقت حقيبتي التي عَهِدْت بها إلى الشيخ خميس لأسافر بواسطة (الفيستال) ، وهو الشخص الذي أتيت به دليلاً من بوشير . وقد اضطرني سلوك هذا الرجل إلى أن أصمِّمَ على عودته فقد قام بالكثير من المراوغات ، لذلك منحته فرصة العودة هذا المساء بعدما وعدني بالوصول إلى القطيف في الرابع والعشرين من الشهر الجاري .

أما الرسالة التالية التي أرسلتها إلى الكابتن بروس فتوضح الحذر الذي ينبغي أن يمارَس عند اختيار الأدِلاّء ومدى الثقة والاعتماد الذي يمكن أن يوضعا في تلك النوعية من الناس حتى ولو كان يتحلى بأفضل الصفات :

الأحساء ١٢ تموز ١٨١٩

عزيزي بروس ،

« بعد تأخري الاضطراري الذي تحدثت لك عنه في الرسالة السابقة انطلقت وفقاً لنصيحة الشيخ خميس تحت حماية شيخ بدوي (ابن شقيق ماجد ومحمد) عرفني عليه خميس ونظراً لأني بقيت عدة أيام رافضاً السير بهذه الطريقة ، ولم أتحرك في نهاية الأمر حتى تلقيت منه تأكيداً إيجابياً بأنه سيكون محل ثقة كاملة فقد عهدت ترتيب أمور السير واستئجار الدواب وغير ذلك لخميس الذي جمع كل شيء في أنسب وزن ممكن وحمَّل نفسه المسؤولية بكاملها ... » .

« وفي اليوم الخامس طلب خميس هدية للشيخ مشرف ، الأمر الذي رفضت

الموافقة عليه إلى أن نصل إلى غايتنا ، لكنه أصر حتى بدا عليه نفاد الصبر ، لذلك اضطررت إلى الموافقة فجهزت الهدية ، كما اعترض خميس على السعر الذي سُر من قبل بتقديره (وهو أربعمائة وخمسون قرشاً) فراودتني من هذا التصرف بعض الشكوك بأمانته ، فأرسلت الهدية مع خادمي الخاص وهو عربي فقبلها مشرف بامتنان ، لكنه أتى خيمتي قبل مضي نصف ساعة رافضاً تحميل الأمتعة أو إرسال الخيل ما لم أدفع له ستين دولاراً أجراً لها ، ومصرحاً بأن قيمة الهدية لا تكفي مكافأة لأتعابه » .

« سبق أن انسحب خميس بشكل خفي وأرسل رسالة خاصة لمشرف ، الأمر الذي عزوت إليه هذا التصرف وكنت قد منعته من الاتصال بمشرف بصدد هذا الموضوع توقعاً مني بأنهْ يميل إلى الاهتمام بمشرف أكثر من اهتمامه بي . وتصرف البدوي بشكل همجي فرفض أن يسمح لنا بالتحميل وأمر رجاله أن يعتزلونا ونحن على هذا الحال دون قطرة ماء » .

« أخذ خميس حذره سلفاً لتأمين وسيلة نقل لنفسه من الشيخ الذي كان مستعداً لأن يغادر معه » .

« وعندما وصلنا معسكراً للبدو عند أم ربيعة طلبت من خميس أن يؤمن الجمال لاحتمال انطلاقنا مساء ، وقد بلغته هذا الأمر في الثامنة صباحاً ، لكنه لم يكلف نفسه أدنى مشقة من أجل الجمال على الرغم من أنه الشخص الذي تم الاتفاق على استئجارها عن طريقه وبرضاه » .

« اضطررت بعد تأجيلٍ استمر ثلاثة أيام إلى إرسال خادمي الذي استأجر جمالاً غيرها خلافاً لما تم الاتفاق عليه عن طريق خميس ، فقد عرَّضنا أنفسنا إلى زيادة دولارين عن كل رأس وتأخيرٍ إضافي مقداره يومان » .

« ومن هنا ستدرك أنه كان مستحيلاً بالنسبة لي أن أكبح جماح نفسي ما دام

هذا الرجل باقياً إلى جنبي ، لذلك أمرته أن يتوجه إلى القطيف لإيصال بعض الرسائل وليهيئ نفسه للذهاب إلى بوشير ليوصل إليك هذه الرسالة ، وفي هذه الحالة يمكن أن يعطى جزءاً من أجرته[1] بينما لا يُدفع الباقي إلا من الطرف الآخر » .

« سادلير »

ينبغي علي قبل انطلاقي من الأحساء أن أقدم بعض الوصف لهذه المقاطعة . تدعى البلدة الرئيسية المحصنة فيها الهفوف ، أسوارها من الطين ترتفع حوالي خمسين قدماً ومحاطة بخندق عميق جاف ، لها بوابتان ، والبيوت التي داخل الحصن متواضعة ، توجد إلى الشرق منها قرية غير محصنة تحيط بها أراض زراعية محروثة ومزروعات نخيل ، ولا يصل تعداد سكان الهفوف وضاحيتها إلى خمسة عشر ألف نسمة ، قد يشكل ستمائة منهم قوتها العسكرية .

ثم حصن (المبرز) الذي يقع على بعد ثلاثة أرباع الميل شمالي هفوف ، قراه شامخة البنيان ومحاط بخندق عميق جاف ، ليس له سوى بوابة واحدة وضواحيه غير المسورة ليست باتساع ضواحي هفوف ، وعدد سكانه يقارب عشرة آلاف نسمة ، يعتبر أربعمائة منهم قوة عسكرية . تمتد مزروعات النخيل باتجاه الشرق لتزين قرى صغيرة وكبيرة غير محصنة ، يروى أنها تحوي خمسين ألف نسمة . تروي مزروعاتها كميات وفيرة من الماء العذب الذي يأتيها من الآبار ومن عدة بحيرات ، لكني لم ألمح أثراً لنهر أو جدول يشكل أي اتصال بين هذه البحيرات وعندما سألت عن هذا الموضوع أكد لي العرب والأتراك كلاهما عدم وجود مثل هذا النهر .

---

(١) على الرغم من محاولة تقييده وربطه بهذا الأسلوب لم يعد هذا الشخص إلى بوشير حتى مضى أربعة أشهر . وكان من حسن حظي أن أخذت حذري فأرسلت الرسائل على نسختين ، فأمنت النسخة الثانية مع مبعوث وصل السفينة . فدفع له مبلغ لقاء نقلها .

يزرع القمح والشعير والرز في الأراضي المجاورة لهذه المزروعات لكن فواكه الأحساء وخضارها ليست من النوع الجيد . وأما بالنسبة لما اقتنيناه فكان بعض المشمش الرديء والتين الجاف القاسي والبطيخ السيء ، كما أن للبصل شكل جزر لاشكل بصل ، ويُعزى هذا طبعاً إلى كون التربة رملية وإلى الزيادة المفرطة في الماء المستعمل للري . وينمو شجر الطَّرْفاء (وهو ذو أغصانٍ نحيلة) إلى ارتفاع عالٍ ، وهو مُقلم بشكل دقيق ويستعمل بشكل أساسي لسقف البيوت .

يمكن أن يُنتج هذا الوادي مؤناً تكفي سكانه ، لكن البدو يحتاجون إلى كل محصول التمر الذي يعطي مع الإمدادات التي ترسل إلى الداخل شهرة لتجارة رابحة مع البحرين عن طريق ميناء عنجير ونظراً لأن حركة ميناء عنجير قد أُعيقت مؤخراً بسبب قبيلة العجمان فقد توقف بيع الشعير والرز في الأحساء .

وبعد الظهر أنجز القشيف ذلك الجزء من وعده الذي يتعلق بإرسال الجمال ودليل (مهمندار) وحصان ، فكان المعسكر يتلاشى وبدأنا بالسير في الحال ، ولم أُسَرَّ بسماع أي شيء من القشيف منذ استلم الهدية ، وفي مساء هذا اليوم امتطى صهوة جواده ، وانطلق دون أن يسأل عني وتبعه الدليل بالرحيل ، وهذا يجعلني أستنتج أن حُسن وِفادة الغريب والاهتمام به لا يشكلان أي جزءٍ من المبادئ العسكرية للجيش التركي ، إذ إني لم أتلق أية إشارة تدل على اهتمام شخصي من قبل أي فرد من تلك الأمة خلال إقامتي مع الأتراك .

سرنا في الخامسة مساءً من اليوم الحادي والعشرين ووصلنا المكان المعين كنقطة تجمع في الثامنة في قرية حويفرات المُسورة والمحاطة بمزروعات كثيرة للنخيل ومزودة بكمية لابأس بها من الماء من ينبوع حارٍ وبحيرة كبيرة ، وقد بدا هذا الجزءمن الصحراء أرضاً قاحلة وموحشة ، وقد مررنا بمخيمين للبدو في خيام سوداء ، وقد قدرت المسافة بخمسة أميال باتجاه الشمال والشمال الغربي للأحساء ، وكانت سلسلة الجبال التي إلى الشرق منا تمتد من الشمال إلى الجنوب .

الثاني والعشرون من تموز (يوليو) :

كان جميع النـاس في هـذا اليوم مشغولين بمـلء أوعيتهم بـالمـاء ، إذ علينـا أن نسافر مساء سالكين الطريق الشمالي ، ولا يتوقع الأدلاء أن نصـادف ولو بئر مـاء واحـد خـلال المراحـل الثـلاث الأولى للمسير . لم يكن الأتراك يسمحـون لجمـالهم بالرعي خارج المعسكر خيفـة أن يسوقهـا البـدو ويهربوا بهـا جميعـاً . انطلقنـا في الخـامسـة والنصف مسـاءً سـالكين جهـة الشمال الغربي وتـوقفنـا في الصحراء في السادسة والنصف صباحاً من اليوم الثالث والعشرين . كان الخفراء متيقظين جداً وكان هذا المكان يقع في أرض أعلى من الأحساء ، حيث الصحراء قاحلـة كالمعتـاد فلا يبدو فيهـا سوى أجمـات صغيرة من الأعشـاب ، ولا يمكن أن يتردد على هـذه البقعة أناس كثيرون لأنه لا يمكن أن تدبر فيها ولا قطرة ماء .

الثالث والعشرون من تموز (يوليو) :

سرنا في الخامسة إلا ربعاً من مساء الثالث والعشرين وتابعنا طريقنا باتجـاه الشمال الغربي حتى الثانية إلا ثلثاً من الرابع والعشرين منـه حيث نزلنـا إلى جوار مخيم بدوي فنمنـا حتى بزغ ضوء النهـار حيث تحركنـا حوالي خمسـة أميـال بـاتجـاه الشمال ونزلنا عند آبار أم ربيعة وهي منطقة احتُجِزْت فيها ثلاثة أيام .

الرابع والعشرون من تموز (يوليو) مساءً

أبطل المسير بشكل غير متوقع وحططنا الرحال تلك الليلة .

الخامس والعشرون من تموز (يوليو) صباحاً

لم يسمح الأتراك للبدو ، كعـادتهم ، أن يسحبوا الجمـال للرعي خـارج المخيم . فالجمال جـائعـة جوعـاً مهلكاً والبـدو متـذمِّرون والأتراك يقسمون الأيمـان ، فولى البدو هاربين بعـدد من الجمـال ، وهم الـذين استلموا فيما بعـد قسماً من الأجور التي

وزعها شيوخ القبيلة الجشعون على شكل حصص لأصحاب هذه الحيوانات .

سرنا في الساعة الرابعة مساءً ، ونظراً لأننا لم نتوقع أن نصادف ماء فقد حُمِّلت جميع الجمال المخصصة للماء وتابعنا حتى الواحدة والنصف باتجاه الشرق عبر منطقة ذات تلال قاحلة أكثر تماسكاً من غيرها ، وليست رملية كالصحراء المنبسطة . فنزلنا هنا لأننا اكتشفنا ماء في بئر كبير في السهل الذي تطوِّقه التلال ، وقد بدا لنا أن هذا الماء ناتج عن تجمع أمطار الشتاء في هذا السهل ، فهو ماء غير مستقر لكنهم لم يرقبوا في هذا الماء احتراساً ولا نظاماً فسرعان ما جف البئر فازداد مسيرنا في الليل بطأ وغماً عما كان عليه في المسير السابق . وقد كانت الحامية تتألف من ستمائة جمل تتحرك على شكل عشرات وخمسينات ، فأمتعة كل شخص تشكل مجموعة منفصلة . ونظراً لأن ضوء القمر كان أضعف من أن يمكنني من تعليم الطريق بالبوصلة بأية درجة كانت من الدقة فإني لاأتصور سوى أن آخر جزء من طريقنا كان باتجاه الغرب والشمال الغربي .

بدت لي الحكمة والتعقل في ناحية واحدة من ترتيبات مسيرنا مما دفعني إلى أن أتذكر الدقة في تشبيه يدلي به العرب عندما يقارنون الصحراء بالمحيط ويعتبرون الجمل سفينة الصحراء . تقدم حارس يرافقه بعض الأَدِلاّء نحو الأمام بأمر من أحد ضباط الفرسان ، وقد رفع فانوساً كبيراً عالياً فوق عمود مثبت إلى محمل الجمل فبدا كأعلى ضوء لسفينة نجدة تمخر الماء ، حيث يتوقع لهذا العمود أن يلفت انتباه الشاردين . وأطلقت عيارات نارية من عدة مسدسات من المقدمة إلى المؤخرة خلال الليل لإظهار موقع مختلف المجموعات ولتجنب امتدادها إلى مساحة واسعة .

السادس والعشرون من تموز (يوليو) :

ملأنا مخزوننا من الماء ثانية بعد الظهر ، وكان هذا الظرف من حسن حظنا لأن البئر قد جف . سرنا في الرابعة مساء ملتزمين اتجاه الغرب ثم الجنوب

وحططنا الرحال في الثامنـة صبـاحـاً من اليوم السـابع والعشرين في موقع مرتفع لا يتوفر فيـه المـاء ، والهـواء أبرد نـوعـاً مـا ، والصحراء مغطـاة بكميـات أكبر من التجمعـات العشبيـة والشجيرات الصغيرة . وقـد راقبت شجرة الميموزا (السنـط) وهي مزهرة بالإضافـة إلى بعض الأشجـار البريـة الجرداء التي تنتج الخوخ ، وقد عرفتها لأنها تنتشر في جميع أنحاء الهند .

رأينـا بعض الـوعـول واثنين أو ثـلاثـة من الأرانب البريـة مقتـولـة على الطريق . وقد كانت المواقع المعـدودة التي رأيت فيهـا الوعول والظبـاء تلـك التي لا يتوفر فيها المـاء ، لأن جميع الآبـار عميقـة جـداً بـالنسبـة للحيوانـات ، ولأنـه لا يُتوصل إلى المـاء دون وسـائل مصنوعـة ، وإني لأتصور أن شهوراً تمضي دون أن تتمكن من تـذوق طعمـه . وقـد كان هـذا المسير على الطريـق المعـد للسير من الأحساء إلى (رماح) .

انطلقنا في الساعة الرابعة من مساء السـابع والعشرين وتـابعنـا على الطريق المرتفعة حتى منتصف الليل عندما ضللنا عنه ، فقد أصبحت الصحراء رملية ، ولم نتوقف حتى الساعـة الثـامنـة من صبـاح الثـامن والعشرين بطريق غربي . وقـد مات أحد الأتراكِ في الطريق ، بالإضافة إلى بعض الجياد ، مع العلم أننا لم نحصل على أي ماء خلال هذه المرحلة .

من حسن حظنا أن كان النهار غائمـاً وأبرد نوعـاً مـا ، وقـد شرد الجمل الـذي كان يحمل أعمدة خيمتي وجدرانها بسبب غفلة السائقين وضاع الجميع إلى الأبد .

وقد التقط أحد البدو قنفذة في الطريق وأحضرها لي هـديـة ، لم تكن تلـك القنفذة كبيرة كتلك التي اعتدت أن أراها في الهند ، وعندما أشبعت فضولي منهـا أعـدت هـذا المخلـوق الصغير إلى البـدوي الـذي كرر عليـه قـول بسم الله ثم ذبحـه وسلخه ونصبه فوق الفحم وصنع منه شواء رائعاً . والبدو يأكلون جميع الحيوانـات

البرية لأنها مخلوقة لصالح الإنسان ـ عدا الخنزير ، ولا يبدو عليهم اشمئزاز من تناول أي شيء تصل إليه أيديهم وتعتبر الحيوانات الموجودة في صحراء الجزيرة العربية على كل حال أقل من حيوانات أي برٍّ على وجه البسيطة . وربما يكون بإمكانك أن ترى خلال السير الطويل فوق منطقة مكشوفة لِناظريك ما يعادل اثني عشر جربوعاً وثلاثة أو أربعة أرانب برية صغيرة إلى درجة تلفت الانتباه ، وكثيراً من السحالي وما يقارب ستة من الجواميس ذات الصدر الأسود ، كما توجد بعض الحمامات الزرقاء ، أما الغربان فنادراً ماتُرى هناك .

الثامن والعشرون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في الرابعة مساء مسيرة ثلاث ساعات باتجاه الغرب حيث نزلنا في رماح فوجدنا فيها معسكر بدوٍ تابعاً لقبيلة سبيع التي يصل تعدادها إلى ألفي أسرة . هنالك سبعة آبار عميقة ، فتموْنتُ وأحضرت معي أربعة أعمدة وعجلتين لأنصب هيكلاً من أجل سحب الماء ، يبلغ عمق كل بئر سبع قامات ، وقد استعملنا الجمال لسحب الدِّلاء .

لم يصل كثير من الناس إلى المرحلة الأخيرة عندما انطلقنا منها . ولقد مات العديد من المتسولين الفارسيين وممن أتوا من كابول وانطلقوا معنا أملاً في مرافقة هذه الحامية ليتأكدوا من طريق مكة نتيجة للجهد والحرمان من الماء . وعندما تحركنا من هناك مساء لم يعد في حوزتي سوى دِنٍّ واحد من الماء الذي جلبته معي ، والذي كنت فيه حراً بقدر ماتسمح به الحكمة والتدبير . ومن موقعنا في هذه المنطقة (رماح) التي يظهر معناها من اسمها : وهو الرمح أو مكان المعارك التي تجري في وسط الصحراء ، تبدو أهمية هذه المنطقة من الصحراء . ولربما من السهل أن تمتلئ هذه الآبار ثانية ، كما أنه لا يتوقع أن نعود من هذا الطريق من أجل ذلك كان وضع اليد على أمثال هذه الآبار مسألة لها من النتائج الهامة في هذه الصحراء ما يعادل فوائد قلعة حصينة مشيدة للحماية في القارة الأوربية .

التاسع والعشرون من تموز (يوليو) :

شغلت عملية الاستقاء جميع الناس ، وانسحب مخيم العرب مبتعداً عنا مسافة ليفسح المجال للحامية . وقد وصل خلال النهار عدة أشخاص كنا قد خلفناهم ورائنا . وبعد الظهر حدثت عاصفة رعدية تبعها مطر غزير جداً فاقتلعت خيام المعسكر وانتقع جميع الناس في الماء . وهبط الليل قبل أن نتمكن من إصلاح الأضرار المتبقية التي كانت ذات نتائج خطيرة في موقعنا هذا ، فكل الأحمال كانت مشبعة بالماء . وقد سبق للباشا أن زار هذه المنطقة من عدة شهور مضت بعد استيلائه على درعية فعاقب هذه القبيلة لأنها أبت أن تنصاع لأوامره المتعلقة بإسهامها في القضاء على الوهابيين .

وفي هذا المكان سنحت لي فرصة مشاهدة الجمل وهو ينفذ عملاً شاقاً ربما يتصور أحدنا أنه رديء التكيف معه بحسب طبيعته ، وقد جعلتني الدهشة أعجز عن التعبير عن مثل هذا المشهد غير العادي الذي تحول فيه الجمل إلى حيوان للجر . وقد أخبرني القشيف بأن مدافع الباشا كانت تجرها الجمال بشكل رئيسي من البحر الأحمر إلى درعية .

لم يكن الأتراك أكثر تقدماً بكثير في علم الميكانيك من العرب الذين كان يُعهد إليهم عادة القيام بهذه المهمة الشاقة ، لذلك لم تكن ترتيبات شد العدة على الحيوان ، أو تكييف قدراته من أجل الحصول على أفضل مردود لتُتوقع من أي من الفريقين على الرغم من أن البرهان على قابلية أو ملاءمة هذا الحيوان قد تأكد ، ويمكن أن يطور بشكل يزيد نفعه عن طريق الجيوش الهندية لو كتب لها أن تؤدي خدمتها في تربة وبلد مشابه لهذا البلد .

الثلاثون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في السادسة والنصف صباحاً حيث تابعنا السير بأحمالنا ساعتين ، إذ يندر أم تتمكن الجمال من التحرك تحت وطأة أحمال مشبعة بالماء إلى درجة أننا لم

نتمكن من رفعها . وقد كان من الضروري أن نتحرك من هذه البقعة نظراً لأن البدو قد حُرموا من الماء مدة ست وثلاثين ساعة فربما لا يقاومون العطش أكثر من ذلك . كان طريقنا باتجاه الجنوب والجنوب الغربي عبر منطقة ذات تلال تغطيها الحصباء . ولقد غار ماء المطر في أماكن كثيرة فبدت الصحراء منعشة بهطول هذه الأمطار التي سببت لنا الكثير من الأذى . نزلنا عند سُمامة (الثمامة ؟) في الساعة الثانية عشرة فوجدنا كمية ضئيلة من ماء المطر في وادٍ صغير شديد الانحدار على ضفته أشجار السنط ذات الحجم الكبير وقد جعلني المنظر العام للوادي أجزم بأن سيلاً كبيراً يجري فيه بعد كل وابل مطر خلال فصل الشتاء . كان الجو بارداً من الصباح حتى الظهيرة ، وقد سببت لنا حرارة الشمس شيئاً من الإزعاج ، ولكن مما تجدر ملاحظته أنه لم تحدث أية إصابة ضربة شمس حتى في أشد الأيام حرارة على الرغم من أن الناس معرضون إلى حرارتها بشكل مستمر .

توجد مقاطعة نجد إلى الغرب من (رماح) ، وتوجد مقاطعة (الدهنا) في الاتجاه الجنوبي الغربي ، وتوجد مقاطعة سُمامة إلى الشرق . وعلينا الآن أن نجتاز مقاطعة نجد .

الواحد والثلاثون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في الخامسة والنصف صباحاً وتابعنا طريقنا على طول ضفة الوادي الصغير ، كانت التلال المرتفعة إلى جانبه مكونة من الحصى المغطاة بأحجار متفككة ،وهي جرداء تماماً وفي العاشرة والنصف أتينا آبار البيغة فوجدنا في أحدها بعض الماء الجيد . تابعنا بعدها حتى الواحدة بعد الظهر وهبطنا تلك التلال سالكين منحدراً وعراً جداً انبثقنا منه إلى سهل (العرمة) حيث حططنا الرحال في الثانية والنصف في مكان خال من الماء . كان القسم الأول من طريقنا يتجه نحو الجنوب الغربي ، وعندما اقتربنا من هذا المكان كان اتجاهنا غرباً . أما

هذا السهل فقد غطته الحجارة وهو أجرد تماماً . وقد وجدنا في الوادي بعض البحيرات الصغيرة المتشكلة من ماء المطر ، لكن السهل خال منها تماماً . وكان الوادي يتجه غرباً ثم إلى الجنوب الغربي ثم يضيع في الصحراء . وتعتبر العرمة قسماً من مقاطعة (المساجدي).

ولقد عانينا الكثير من إزعاج حرارة الشمس المحرقة خلال هذا المسير ، كما خُتم الليل بعاصفة رعدية مصحوبة بوابل غزير من المطر . كانت البقعة التي خيمنا فيها من هذا السهل منخفضة جداً فإذا بسيل من ماء المطر يندفع من الأراضي المرتفعة ويغمر المعسكر .

الأول من آب (أغسطس) :

سرنا في السادسة والنصف صباحاً ونزلنا سهلاً آخر ، فاجتزناه بالإضافة إلى سلسلة من التلال الرملية فوصلنا غَحْ البَبَّان في الثانية عشرة حيث وجدنا جدولاً من ماء المطر يدعى نِفوز الببان (بنبان) الذي أغرى القشيف للتوقف . ولقد أصابنا الغم من شدة حرارة الشمس . وكان طريقنا يسير غرباً ثم جنوباً ثم غرباً خلال الجزء الأول ، أما الأخير فكان يتجه غرباً . أرسل القشيف بعض الرجال العرب للحصول على معلومات عن الكتيبة التي أُمر بسحبها من السلمية لأنه لم يحصل على أية معلومات عنها حتى الآن . فجعلنا هذا الظرف نقوم بالتفاف باتجاه الجنوب .

الثاني من آب (أغسطس) :

سرنا في الحادية عشرة قبل الظهر باتجاه (منفوحة) ونزلنا في الجبال في الساعة الرابعة مساءً وهنا اضطرتنا إلى التوقف عاصفة رعدية رهيبة ووابل من المطر في ورطة مُزرية تماماً ، والهواء شديد البرودة .

الثالث من آب (أغسطس) :

تابعنا طريقنا إ لى منفوحة الـذي يتجـه جنوبـاً وخيمنـا في حـدود ميل من ذلك المكان الذي يحيط به حطـام واسع لأسوار وأبراج ، وهـذا يشير إلى أن هـذا المكان كان في يوم من الأيام مزدهراً . وتقع درعيـة في واد ضيق شـديـد الانحـدار إلى الشمال الغربي لمنفوحة وعلى بعد عشرة أميال عنها ، وهي الآن في حالـة دمـار كامل ، أما السكان الذين تبقوا أو نجوا من الذبح فقـد بحثوا عن ملجـأ لهم في هـذا المكان بشكل رئيسي . وخُتِم النهار بوابل غزير من المطر وعاصفة رعدية .

أرسل القشيف نصف كتيبة باتجاه السلمية ليمَكِّن المجموعة المتمركزة هنـاك من أن تجد نقطة التجمع ، ويبدو أنهم قد انشغلوا في قتال مع البدو ، ومع أن التقرير ذكر أنهم يصلون إلى مائة فارس فـإنهم لم يستطيعوا أن يتركوا مركزهم الـذي نزلوا فيه ليلتحقوا بمجموعتنا التي اضطرت في النتيجة إلى القيام بالتفاف نحو الجنوب .

وعندما نصحني القشيف في رماح بأن أرسل بدويين وأحد عنـاصري مسـافـة مرحلة نحو الخلف على أمل أن ينقـذوا الجمل ويستردوا الخيمـة التي فقـدت في اليوم الثامن والعشرين ، وافقت على الفكرة لأنه سبق أن قرر بأن يمكث في رماح مدة يومين . رجع صاحبـا الجمل ليبحثـا عن جملها وامتطى صـاحبي جمل ركوب سبق لي أن اشتريتـه من أم ربيعـة ورافقها . لكنهم أخفقـوا في بحثهم وعـادوا إلى آبـار رماح بعد ساعتين من رحيلنا ، وقد قَبض عليهم بـدو قبيلـة سبيع وأخـذوا سلاح صاحبي وجمله وأوشك أن يُستل سيف البدوي القاتل من غمـده ليضع حـداً لحيـاة صاحبي لولا أن ذكرهم بأنه عربي من الساحل الآخر متوسلاً إليهم أن يحفظوا عليه حياته ، فأجَّلوا قرار قتله إلى صباح اليوم التـالي حيث جُرد من ثيـابـه وسمح لـه بالذهاب بصحبة البدويين الذين عوملا معاملة لطيفة من قبل بدو تلك القبيلة . ولقد أجبر البدويان الهمجيان هذا الرجل التعيس على السير حافي القدمين أربعـة

أيام كاملة ، وكانا يعطيانه في كل يوم مقداراً ضئيلاً من حليب الجمل ولا يسمحان له بمشاركتهما ولو بلقمة واحدة من المؤن التي حصلا عليها من المخيم البدوي ، وقد وصلوا جميعاً قبل ظهر هذا اليوم .

ينبغي أن يُقطع الطريق الغربي من الأحساء إلى الدرعية باتجاه السلمية خلال عشرة أيام وقد عبَّر القشيف عن عزمه على السير من الطريق المعتاد على الرغم من أنه كان قد صمم منذ زمن بعيد أن يتجنب مواجهة قبيلة بني سعده لذلك حول طريقه فجأة باتجاه الشمال ثم الغرب وأرسل رسولاً ليأمر مجموعة السلمية بالالتحاق برماح المكان الذي ربما يسمع به خبراً عن تلك الكتيبة ، فانعطف لذلك نحو الجنوب . وبعد مسير مُضنٍ مدة أربعة عشر يوماً وصلنا هذا المكان ونحن تالفون تماماً من التعب . وقد كان سفرنا خلال الجزء الأول من السير ليلاً حيث تكون فرصة التعرض لهجوم ما ضئيلة ، الحالة التي لم تستطع فيها مجموعتنا القيام بواجبها المضاعف في صد هجوم من ناحية ، وفي حراسة جَمَّاليهم الذين يخصونهم من ناحية أخرى ، لأنه من دواعي سرورهم أن يندمجوا مع المغيرين أو أن يرموا بأحمالهم ويولوا الأدبار . وفي هذه الحالة سيكون مصيرنا المحتوم أن نسقط فريسة في أيدي هذه الجماعة أو تلك ، لأنه لابد لمخزوننا من الماء ومؤنتنا وأمتعتنا من أن تكون قد سقطت في أيديهم . لم أستطع الحصول على أية معلومات تخص مجموعة السلمية ، لكني تصورت من خلال القلق الذي بدا على القشيف أنها لابد أن تكون في موقع محفوف بالمخاطر .

حططنا رحالنا مدة ثلاثة أيام متوقعين عودة المجموعة من السلمية ، وقد كان لدي من الفراغ في هذه الفترة ما يسمح لي بزيارة منفوحة ، التي تحوي ما يقارب ألفي أسرة ، وفيها بعض البيوت الجيدة مبنية بالطين والحجارة ، وبعضها يتألف من طابقين نحو الأعلى وسطوح منبسطة . أحيط هذا المكان بسور وخندق أمر الباشا بمحوهما . أما قرية الرياض فواقعة إلى الجنوب على بعد ميل

تقريباً يفصلها عن منفوحة دمار الأسوار والبيوت . وسكان الرياض لا يعادلون بجودتهم سكان منفوحة ، وكل قرية محاطة بمساحات واسعة مزروعة نخيلاً تحصل على الماء من آبار عميقة . وفي فصل الشتاء تشكل السيول المندفعة من الجبال الجرداء جدولاً كبيراً يغمر الوادي . وقد كان السكان في تلك الفترة في حالة من البؤس تفوق أية فترة سبقت منذ تأسيس قوة الوهابيين . محيت أسوارهم التي كانت تشكل الحماية الرئيسية لممتلكاتهم . وقد وجد الكثير من سكان درعية ملاذاً لهم في بساتين النخيل . وكانت القوات التركية قد استهلكت محصول العام فلم يبق لديهم قمح ولا شعير يشترى ، ولم يكن في هاتين القريتين جواد واحد .

أظهر هؤلاء السكان مقاومة على الرغم من حالة البؤس التي يعيشونها ولم يسمحوا خلال اليوم الأول لأي فرد من مجموعتنا بدخول أي من القريتين ، فوضعوا المتاريس أمام بيوتهم وظهروا بأسلحتهم فوق السطوح المنبسطة . رفض شيخهم أن يزور القشيف . وقد ابتزوا بالمؤن التي عرضوها فيما بعد ما يعادل أربعة كراونات ألمانية ثمناً لكل شاة وطلبوا قرشاً ثمناً لكل ثلاث بيضات ، والنسبة نفسها في سعر الدراق الفاسد والتين ، كما كان البطيخ الأحمر والشمام رديئين جداً . وكانت الخضار الوحيدة التي بصرت بها قليلاً من الباذنجان والبصل والسبانخ . وقد اشترينا بعض البرسيم والتين من أجل الدواب .

كان أردأ نوع من لحم الجمل معروضاً للبيع في ساحة مفتوحة بجانب القرية حيث كان هنالك ما يشبه سوقاً كان يعقد كل يوم منذ وصولنا . بدأت ندرة وجود الأنواع الأخرى الجيدة من اللحم منذ أن غادرنا الأحساء ، حيث كنا نستعمل لحم الجمل على وجه العموم ، فحالما تظهر على أحد الجمال علامات المرض ، سواء كنا مرتحلين أو معسكرين ، تكررت كلمة باسم الله لتحمل السكينُ مسؤولية الانطلاق السريع باتجاه الجمل التعيس ، وسرعان ما ينفصل اللحم عن

العظم الـذي لا يفكـك عن بعضـه بعضـاً ، بـل يبقى الهيكل العظمي في السهـل علامة لطريقنا .

توجد زراعـة قطن في الحـدائق المجـاورة لكلا القريتين ، بينـما كانت فلاحـة القمح والشعير في الفترة التي سبقت قائمة على قـدم وسـاق ، بـالإضـافـة إلى الـذرة الهندية .

كنت فريداً بالنسبة للمجموعة كلها في استفساراتي التي تتعلق بآخر وابل من المطر الغزير فقد كان بالنسبة لي حدثـاً لم أكن أتوقع حصولـه في الجزيرة العربيـة في هـذا الفصل من السنـة . وقـد أخبرني القرويون أنـه لم يسبق أن حصلت مثـل هذه الظاهرة خلال ما يتذكره أسنُّ رجل عربي في هذه القريـة في سني حيـاتـه ، لكن الطقس المعتـاد خـلال فصـل الشتـاء بـارد جـداً في هـذه المقـاطعـة الجبليـة المرتفعة ، ففي هذا الفصل من السنة يتوقع هطول أمطـار غزيرة بشكل متكرر . وعندما وجهت بعض تساؤلاتي بصدد هذا الموضوع إلى أحد عرب منفوحـة أجـاب هاتفاً : « الله عظيم ، لقد عشت لأرى ثلاث آيات في يوم واحد : تركياً وإفرنجياً في منفوحة ، وأمطاراً في منتصف الصيف » .

كانت القرى الوحيدة التي ذكر لي أنها بجوار درعية هي : عِرزا ، الريـاض ، منفوحة ، ضرما ، عون ، رملـة . وإلى الجنوب توجـد القرى : سهميـة خـارجي وخوطا . كما ذُكر لي اسم يمامة أيضاً ، لكنهـا وصفت بـأنهـا ذات أهميـة ضئيلـة في الوقت الحاضر ، وعلى وجه الإجمـال لم تكن معروفـة لـدى الأتراك . عليَّ أن أشير إلى طريق نهري مرسوم في كثير من الخرائط الحـديثـة يجري قريبـاً من الأحسـاء وأن أعْـزوَ تشكلـه إلى سيـول كثيرة من أمطـار الشتـاء التي تشـق طريقهـا وفقـاً لاتجاهات الوديان التي بين جبال هذه المنطقة ، لكن كونها أنهاراً مؤقتـة لا يجعلني أرى ما يسوغ جعلها أنهاراً كبيرة . ومن المتوقع أن التجمع الطـارئ للمـاء في تلـك الوديان في فصل معين وغزارة الماء بالقرب من الأحساء يشكلان بحيرات طبيعيـة

غير متصلة ببعضها بعضاً على وجه الإجمال ، كما تصادَفُ آبار ومخزونات وينابيع في كل اتجاهٍ بجوارها . فهذه المياه بمجموعها أبرزت فكرة نهر أو سيل شق طريقه في زمن مضى باتجاه البحر . يُصِرُّ العرب في هذا الوقت على وجود نهر يجري تحت الأرض لم يَرَ ماءَه أي كائن حي ، وهم يتخيلون أن تلك الينابيع التي اندفعت فوق الأرض قد مُوِّلت من غزارة مياه ذلك النهر ، وأن ينابيع مماثلة تجاور البحرين تستمد وجودها من نفس المصدر . ولا شك أن هذا الوصف من ضرب الخيال أكثر من كونه كذباً متعمداً . وإن كوتزيبو ليعطي خلال رحلاته في إيطاليا وصفاً ممتعاً لجداول مائية تحت أرضية قرب المدينة المنورة .

طال تأخرنا في منفوحة حتى الثالث عشر من آب (أغسطس) عندما وصلتنا مجموعة سلمية حيث حصلت الحقائق التالية : كان يسكن (الخرج) بالقرب من سلمية أربعة شيوخ من قبيلة سعود ، اسم أحدهم عبد الله ويسمى الثاني عبد العزيز ، ويبدو أنهما اسمان مشهوران حتى الآن من سلالة محمد بن عبد الوهاب[1] . أخذ الباشا هذين الشيخين بالرحمة ووعدهما بحمايته في المستقبل . وعندما قرر سعادته أن يتنازل عن هذا الجانب من الجزيرة العربية أمر الجوقدار (الحاكم العسكري) باشا السلمية أن يفتك بهؤلاء الشيوخ ، ولكن نظراً لكون مجموعة جنده لم تتجاوز خمسين رجلاً فإنه لم يستطع تنفيذ أوامر سيده بشكل مكشوف فلجأ إلى الغدر ، حيث دعا هؤلاء الشيوخ إلى وليمة اختتمت باغتيالهم جميعاً . وكان ألف وستمائة بدوي قد أجبروا الأتراك قبل بضعة أيام من هذا الحادث على الالتجاء إلى الأسوار ، وقد تخلصوا من هذا المأزق لدى ظهور تعزيزات عسكرية .

وإن عدم الثقة الذي ظهر على سكان الرياض والمنفوحة إنما يعزى إلى

---

(١) محمد بن سعود وليس محمد بن عبد الوهاب .

تصرف الجوقدار ، إذ لم يتجرأ أي رجل منهم على القيام بمغامرة ضمن حدود معسكرنا . وقد بدا أولئك الذين تناقشت معهم في جوار القرية أعداء حقودين للأتراك ، وكانوا يجاهرون في الإعلان عن أنفسهم بأنهم على عقيدة الوهابيين . وكان الكثيرون من أقاربهم يسكنون رأس الخيمة شاكرين الله على هذا المكان ، فقد عبروا عن سرورهم به باهتمام بالغ .

الثالث عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الساعة الخامسة من صباح الثالث عشر من آب . كان الجزء الأول من طريقنا يتجه نحو الشمال ، ثم انعطفنا فجأة نحو الغرب متبعين طريق الوديان التي تشكلها التلال الجرداء حيث وصلنا إلى موقع حطام درعية في الحادية عشرة قبل الظهر . تمتد إلى الغرب سلسلة طويلة من التلال بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، كما تُرى سلسلة أخرى إلى الشمال متجهة نحو الشمال الشرقي . كان الدمار واسعاً جداً ، ويدل على موقع مركز المدينة المدمَّرة بقايا الأسوار المؤلفة من تراب أصفر وقد غطت الحجارة قسماً منه وتماسكت معه ، فالبناء في هذه المدينة كثيف ومتقارب ومرتفع على بروز طبيعي يحميه من أحد جوانبه وادٍ ضيق عميق شديد الانحدار ، ومن جهة الغرب سلسلة من الأبراج موصولة فيما بينها بسور[١] . ويشار إلى هذا الجانب الغربي باسم (الطريف) وهو

---

(١) يظهر بشكل واضح أن اساس هذا السور مبني بحجارة كبيرة مسطحة تكثر في الهضاب المتجهة شمالاً وقد كانت هذه الحجارة متماسكة بقوة مع التراب الأصفر الذي بني منه وحده القسمُ العلوي من الأسوار ، فهذا التراب شديد التماسك ومتواجد بوفرة في جميع مناطق هذا الجزء من الجزيرة العربية ، وعادة ماتبنى منه الغالبية العظمى من البيوت . وعملية البناء بسيطة جداً . تُحفر حفرة في المكان الذي يتوقع وجود هذا التراب فيه ويصب فيها ماء ليتمازج مع الملاط الذي تُشكل منه طبقات في عرض السور باستعمال بعض الألواح الخشبية السميكة والثقيلة التي تجعل على شكل صندوق طويل ، وعندما تنتهي إحدى الطبقات وتجف تضاف طبقة أخرى ، ونتيجة لذلك يمكن أن يبنى البيت من ثلاثة طوابق أو حتى أربعة تتكون =

منفصل عن البلدة الشرقية المسماة سلي بالوادي العميق الضيق الرئيسي . كان هذا الجانب أيضاً محاطاً بأبراج وسور ، ويحمل الوادي مسؤولية الاتصال مع الأجزاء الأخرى من المدينة الواقعة إلى الشمال والتي لم تكن محمية بشكل جيد إذا ما قورنت مع الجنوبي . يجري من خلال هذا الوادي جدول ماء على مدار السنة ، يزداد في الشتاء إلى مستوى سيل . في كل منهما على كل حال بقايا لبيوت عديدة جيدة ، هي الآن في حالة دمار كامل . ولقد محا الباشا أسوار الحصن بشكل كامل وأتلف مزروعات النخيل والحدائق . لم أشاهد ولو رجلاً واحداً خلال بحثي عبر الحطام كله .

كانت حدائق درعية تنتج المشمش والتين والعنب والرمان ، وكانت تمورها ذات مواصفات جيدة جداً ، كما ذكر وجود الليمون فيها بالإضافة إلى كثير من أشجار الفاكهة الأخرى ، لكني لم أكن أميز سوى البقايا المجدوعة لكل ماذَكَرت . ولا تزال تُرى بعض أشجار الطرفاء .

وبمجرد أن غادرنا درعية نحو اليسار دخلنا وادياً ضيقاً عميقاً فهبطنا منحدراً شديداً جداً ثم تابعنا طريقنا غرباً ثم شمالاً ثم غرباً من خلال جدول رملي بدا وكأنه مجرى سيل ، وتوقفنا في الرابعة مساء في عوينية ، التي كانت تسمى قديماً درعية ، وهي عبارة عن واد واسع من الحطام المنتشر ، فيه بعض السكان ومساحات واسعة من مزروعات النخيل وأشجار التين . وقد كان هذا الوادي أيضاً في زمن مضى ذا سكان طيبين ، لكنه يعرض في هذه الأيام مشهداً من مشاهد البؤس .

إنه لمن الصعوبة بمكانٍ أن يُتوقع حصول تحسن في أخلاق البدو بالتدخل

= جدرانها من كتلة واحدة صلبة من هذا التراب ، بحيث يَحتاج إلى جهد الأب وأولاده فقط . يتوفر حجر الكلس بالقرب من درعية ، لكن ندرة الوقود تعيق استعماله للبناء ، على الرغم من أنه يُحصل على كمية كافية منه من أجل الطرش ، ومن أجل التجصيص أحياناً .

التركي . لكن العرب يشتهرون على كل حال في عفة إناثهم المتحجبات ، فهم عربان رعويون (في منأى عن الاحتكاك برذائل المدن ونقائصها) ، وإنه لمن المؤكد أن أي مسافر يزور الجزيرة العربية لا يلاحظ استخفافاً بالعفة .

الرابع عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا من العوينية في الساعة الرابعة من صباح اليوم الرابع عشر وتابعنا طريقنا عبر الوادي الذي انفتح على سهل ، فتجاوزناه ودخلنا وادياً ضيقاً شديد الانحدار ، ثم صعدنا سلسلة أخرى من التلال هبطنا منها بطريق وعر جداً إلى سهل حَسِيَّة الذي تحيط به تلال متكسرة ومتفسخة ، لكن الطريق كان بشكل عام متماسكاً ، ولا تزال آثار مدافع الباشا ، ولم نعاني من صعوبة كبيرة في نقل مدافعنا ، باستثناء الطريق النازل من تلال درعية يوم أمس وهذا الطريق الوعر الذي سلكناه للنزول إلى هذا السهل . كان القسم الأول من طريقنا باتجاه الغرب ثم الجنوب ، وقد سرنا باتجاه الغرب خلال تجاوزنا لهذا السهل ، ووصلنا هذه البقعة بعد عبورنا طريقاً يسير غرباً ثم جنوباً ثم غرباً . ومن هنا حصلنا على ماء جيد من بعض الآبار ، وقد كانت الساعة الواحدة والنصف حين وصلنا حَسِيَّة .

الخامس عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً . وكان طريقنا المتجه نحو الشمال الغربي ممتداً فوق نجد فسيح ذي تربة حَصَوية ، نزلنا منه في الساعة السادسة بطريق منحدر وعر ، ثم عبرنا وادياً انتهى بنا إلى سهل فسيح . وفي العاشرة مررنا بحطام لأسوار وأبراج يطلق عليها اسم قصرُ البرَّا حيث توجد عدة آبار وعدد من أشجار النخيل ، ولا يوجد أثر لأي قاطن . وكان طريقنا إلى بقايا هذه القرية يتجه غرباً ثم شمالاً ثم غربا ، وتابعنا مسيرنا عبر هذا السهل الممتد المتسع حيث توقفنا في الواحدة بعد الظهر . يشير برج في زاوية حصن مربع السور إلى هذه البقعة

التي يطلق عليها اسم عوريز ، وقد حصلنا على ماء فيه طعم مُرٌّ من عدة آبار في هذا المكان . ويتجه هذا السهل نحو الشمال الشرقي بتأثير تلال وعرة متفسخة ، بينما يمتد السهل فيما بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، وتربة التلال مختلطة بالحصى وهي منبسطة تماماً ومجدبة ، وكان آخر جزء من طريقنا يتجه نحو الشمال الغربي .

السادس عشر من آب (أغسطس) :

سرنا في الثالثة والنصف من هذا الصباح بطريق غربي ثم شمالي ثم غربي . الصحراء مجدبة والتربة مخلوطة بالحصى . وفي التاسعة والنصف صباحاً وصلنا سرمدة (ربما ثرمدا) التي محيت آبارها ودمرت من قبل الباشا . يقطن هذه القرية بعض السكان وترى غيضات النخيل التي فيها من مكان بعيد ، ويلاحظ أن الأراضي المجاورة لها محروثة وخاضعة لرعاية كبيرة ، ويوجد إلى جوارها حطام قرية أخرى تدعى (مرية) توجد فيها عدة آبار لكن ماءها ليس لذيذاً على كل حال . وقد هب إعصار بعد الظهر حتى حجبت غيوم الرمل التي سبحت في الهواء ضوء الشمس الذي كان ساطعاً ومتوهجاً ، وأصبح الهواء لاذعاً من شدة حرارته .

لقد بدا هذا الإعصار كأنه عصفة من جهنم ، فكان من حسن حظنا أن هب في هذا الوقت المتأخر من النهار .

السابع عشر من آب (أغسطس) :

سرينا في الثالثة والنصف من هذا الصباح ، الصحراء منبسطة تماماً ومفروشة بالحصى ومجدبة كالمعتاد ، باستثناء بعض الأشجار الكبيرة . وفي الساعة الخامسة مررنا بقرية قَرِّيْن . وكانت عن يسارنا ، وفي الثامنة صادفنا بعض الحطام وبعض أشجار النخيل ، وكان طريقنا حتى الآن يسير بشكل مباشر نحو الشمال والشمال الغربي . ومن موقع هذا الدمار انعطفنا نحو الغرب وهبطنا وادياً

إلى شقرا وحططنا الرحال في التاسعة والنصف صباحاً . ينفتح السهل الذي قطعناه إلى الغرب بشكل مفاجئ*، ومن هذه البقعة قطع ظهورُ نجدٍ مرتفعٍ انحداراً شديداً . موقع شقرا منخفض جداً ، ويبدو أن أسوارها قوية جداً فقد صمدت ثمانية أيام في مواجهة قوات الباشا ، وقد دمرت الأسوار وبقيت البلدة قائمة . فيها مسجد جيد وسوق ، ومزروعات النخيل التي تحيط بها واسعة جداً وتروى بكميات كبيرة من الماء العذب المستخرج من آبار عميقة . ولسوء الحظ أن أربعة من العرب سقطوا في أحد هذه الآبار ولم يُنقذ سوى اثنين منهم .

وقبل أن ننصب الخيام وصلَنا خبرٌ مفاده أن مجموعة من بدو قبيلة عتيبة ساقت الماشية التي تخص سكان شقرا كلّها ، فأُرسلت مجموعة من جنود المعسكر للحاق بهم ، فعادوا بأولئك اللصوص المغيرين . كان عدد الذين أرسلوا إليهم من الأتراك عشرين رجلاً ، لقوهم في السهل وأحضروا منهم خمسة مساجين حُزت رؤوسهم . ولم يكن بالإمكان عبور الطريق الذي يصل إلى هذه القبيلة من خلال القيام بحملة ، وقد عاملهم الباشا بأشد قسوة كلما سنحت له فرصة لذلك .

عم بسبب هذا الحادث شعور بالخوف ، إذ حاول بدونا الذين ينتمون إلى قبيلة بني خالد أن يهربوا بجمالهم مدَّعين أن تلك القبيلة ستأخذ ثأرها منهم في طريق عودتهم . وقد تسلل اثنان من مجموعتي على الرغم من أني عينت جميع خدمي للمراقبة وسلحتهم بمسدسات .

الثامن عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة ، وقد تأخرنا ساعتين ونحن نحاول أن نجمع البدو الذين أَسَرّوا النجوى فيما بينهم وهرب كثير منهم بجمالهم . قطعنا السهل الذي يلي شقرا باتجاه الغرب ودخلنا وادياً قادنا إلى سهل صحراوي واسع جداً ذي سطح مفروش بالحصى ، وحثثنا الخطا تحت شمس محرقة حتى الواحدة بعد الظهر حيث توقفنا

عند سلسلة من التلال الرملية الحمراء القاحلة التي لم يتوفر فيها ماء ولا علف . ولقد ذقنا العذاب خلال مسيرنا عندما كنا نرى الماء عن بعد حتى إذا وصلناه لم نجده شيئاً ، فهو مجرد ظاهرة جوية عابرة في الصحراء ، وأحاط بنا ما يشبه البخار يسمى السراب كمحيط من الماء . مررنا في طريقنا على ما يزيد عن عدة آلاف من نبتة الحنظل التي لو كان لنا ان نستبدلها بما يعادلها من البطيخ لهيأت لحناجرنا الظمأى أعظم ارتياح يعقبه سرور .

اجتاز الأتراك الآن الحد الذي وعدوا بَدْوَ بني خالد أن يطلقوهم عنده مع الجمال التي استأجروها منهم ، بالإضافة إلى تلك التي قالوا عنها للبدو السيئي الحظ أنها ستعوض بعدد مماثل من قبيلة مطير (الدويش) . كان هؤلاء البدو حتى الآن خاضعين خضوعاً كاملاً لقوة الأتراك الذين أصرّوا على كونهم مسؤولين عن العدد الكامل للجمال التي انطلقت من الأحساء ، لكن سرعان ما ضرب بقرار التعويض عرض الحائط ، فطرد العرب بدون جمالهم ، فقد احتفظ بها للتعويض عن المفقودات التي تعهد الأتراك بتأمينها نتيجة للانشقاقات التي حصلت . وهكذا نرى أن الرجال التعساء الذين كانوا يستحقون ضِعْفَ الأجر الذي عُين لهم لأنهم ساروا مسافة احتاجت إلى ضعف عدد الأيام التي اتُّفق عليها قد انطلقوا على غير هدى عبر الصحاري الواسعة ، يحيط بهم الأعداء من كل جانب . إنهم قد عانوا المعاملة نفسها التي سبق أن عاناها الكثير من الحجيج تحت أيديهم .

التاسع عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً وأجهدنا المسير عبر التلال الرملية حتى التاسعة والنصف صباحاً أيضاً حيث نزلنا سهلاً وجدنا فيه تجمعاً رقيقاً وواسعاً من ماء المطر ، فحططنا الرحال ، وكان الطريق الخارج من السهل متجهاً غرباً . توجد بقايا قرية صغيرة مسورة على الجانب الغربي من البحيرة وبعض الآبار التي يشار

إليها باسم عيون السر . كانت حرارة الشمس لاذعة طيلة النهار والرياح الحارة تهب باستمرار حتى منتصف الليل . ولقد أراح العقولَ وأسكنَ ألَمها ظهورُ مساحة واسعة من الماء الذي اطمأننا إليه عندما ذقناه وعرفنا أنه ليس سراباً . ولقد أشبع العطش بمجرد أن اطمأن الفكر والخيال .

في الجانب الغربي من البحيرة أراضٍ سبق أن حرثت ونظفت إلى درجة تلفت الانتباه .

العشرون من آب (أغسطس) :

نزلنا في صدر هذا النهار لنريح الدواب ، ثم سار الناس أربع ساعات مساء باتجاه الشمال حيث ضللنا الطريق ووجدنا أنفسنا مرميين في حالة يرثى لها من الاضطراب حتى اضطررنا إلى الاستسلام للنوم دون أن نعرف أين كنا . ثم سرنا ثانية في الساعة الخامسة من صباح الحادي والعشرين وتقدمنا بالاتجاه الشمال الغربي حتى السابعة عندما صادفنا حطام بعض الآبار وساقية . ويبدو أنه قد سبق لهذه المنطقة أن حرثت في يوم من الأيام . ثم تابعنا نفس الطريق من هناك حتى الساعة العاشرة فوصلنا إلى بقعة مسورة تسمح بالتجاء ما بين عشر وخمس عشرة أسرة إليها ، أراضيها محروثة إلى درجة كبيرة ومشبعة تماماً بالماء . نزلنا في العاشرة صباحاً على ضفة بحيرة من ماء المطر الذي اندفع إلى هذه البقة نتيجة للأمطار الغزيرة التي هطلت مؤخراً ، ووجدنا على حدودها كمية من الأعشاب للدواب ، ويطلق على هذه المنطقة اسم عيسونية .

الثاني والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة صباحاً حيث مررنا بحطام قرية مسورة[1] عن اليسار

---

(١) لم يُذكر اسم هذه القرية ضمن ملاحظاتي ، وأخشى ألا أقدر على معالجة هذا الإهمال . المؤلف

وسهل واسع فيه آثار حراثة سابقة وهو الآن مغطى بالأعشاب ، ويتوقع أن هذه البقعة كانت تشكل - خلال فترة عمتها فيها السعادة - منزلاً ومحطاً مريحاً للمسافرين الذين أضناهم التعب . ثم توجهنا شمالاً ثم إلى الشمال الغربي حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً عندما نزلنا في بقعة تدعى موربة حيث توجد أيضاً علامات سكنى سابقة في السهل ، حفرنا في مجرى رملي فوجدنا ماء ، ولا بد أن وابل المطر في هذا المكان كان غزيراً جداً كغزارة كميات الأعشاب المتوفرة . كانت حرارة الشمس لاذعة سحابة ذلك النهار .

الثالث والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الساعة الخامسة ومررنا بعدة سواقي نضَّرها المطر وغطاها بالأعشاب وقد ساهمت هذه السواقي بنقل كميات كبيرة من الماء إلى البحيرة التي تدعى خبرة والتي يجاورها حطام ثلاثة أبراج كانت تعتبر ملاذاً لفالحي هذه الأرض الذين كانوا يشرفون عليها ويتعهدونها كل سنة . وصلنا إلى مزنب (أو المذنب) في التاسعة صباحاً ، وهي قرية مكشوفة كثيرة الآبار ، لكن ماءها يميل إلى طعم مُر ، ومزروعات النخيل فيها والأراضي المفلوحة التي على أكتافها واسعة ، طريقنا شمالي ثم غربي .

الرابع والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الرابعة والنصف من هذا الصباح ومررنا بتلال جرداء تماماً ومغطاة بحصى متفككة بطريق اتجه شمالاً ثم غرباً فوصلنا (عنيزة) في الثانية عشرة والنصف ظهراً . لقد تعرض هذا المكان إلى دمار كامل ، وقد أصاب هذا الحصن المصير نفسه الذي أصاب الحصون الأخرى التي سقطت نتيجة لغضب الباشا ، واستُبقيت بعض أشجار النخيل لأنها في وادٍ ، وتأتيها كميات كبيرة من مياه الآبار التي تروي البلد . وهو يعتبر بلداً ذا أهمية كبيرة بالنسبة لغيره في هذه المنطقة ،

كما يعتبر مركزاً تجارياً إذا ماأخذ موقعه الجغرافي بعين الاعتبار . وإن مرور القوافل الآتية من البصرة والكويت والقطيف والأحساء ودرعية عبر عنيزة كل عام أعطى هذا المكان درجة كبيرة من الأهمية . وهو واقع أيضاً في مركز حساس بالنسبة للمدينة المنورة والبحر الأحمر ، وكذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار جبل شمر (جبلاطئ) ، ولقد اعتبر على الدوام وسيلة الاتصال بين الخليج والبحر الأحمر ، ويتوقع أن يصبح مركزاً يتمتع بالأهمية الأولى نظراً لموقعه المركزي . في عنيزة حامية عسكرية لإرهاب هذه القبيلة التي تحتل الصحراء من جهة الشمال الشرقي حتى الحدود التي تحتلها قبيلة مطير الممتدة إلى شرق شقرا باتجاه الكويت ، ومن هناك إلى جهة الخليج يمتد سلطان قبائل بني خالد الذي يستمر إلى أقصى الجنوب حتى يصل إلى الأحساء . وإلى جنوب هذه المنطقة الرئيسية قبيلة العجمان المنيعة التي لا تعتبر على كل حال ذات قوة تكفي لمواجهة قبيلة بني خالد (١١) . وإلى جنوب غربي درعية توجد قبيلة عتيبة[1] التي أبيدت عن بكرة أبيها تقريباً . وإلى الغرب من عنيزة قبيلتا حَرب ومِسْرو اللتان تحتلان ذلك الجزء من منطقة حِجاج بين الرس والمدينة المنورة . من أجل هذا كله تبدو عنيزة مركز الجزيرة العربية من وجهة النظر الجغرافية والسياسية والتجارية ، وقد التقيت في شقرا وعنيزة بالعديد من تجار الكويت وزبير الذين ينتمون إلى قبيلة العتوب ، ووجدنا كميات من الرز الهندي ومواد أخرى في أسواقهم الشرقية .

الخامس والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في السادسة صباحاً ودخلنا سلسلة من التلال الرملية الحمراء ، فسرنا

---

(١) قبيلة عتيبة وقبيلة العتوب ليستا قبيلة واحدة كما سيتوضح من خلال النص . (المؤلف سادلير)

ليس صحيحاً أن قبيلة عتيبة أبيدت عن بكرة أبيها تقريباً كما يزعم سادلير وهي اليوم من أكثر قبائل نجد عدداً ـ المحقق .

فيها مجهودين ومثقلين حتى الثانية عشرة والنصف . رأينا بقايا آبار وآثاراً لفلاحة سابقة في الوديـان التي شكلتها هـذه التلال ، الأمر الـذي يـدل على أن الفلاحين يحاولون أن ينفصلوا عن البلد . كان طريقنا متجهاً غرباً ، وقـد وجـدنـا في هـذا المكان كمية من ماء المطر .

السادس والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة من هذا الصبـاح ، وبينمـا كنـا نتـابع طريقـاً يتجـه نحو الغرب وصلنا رَس ، وكان الوقت الواحـدة بعـد الظهر . وصلتنـا تقـارير يوميـة مفادها أن البـاشـا ينتظر وصولنـا إلى هـذا المكان ، وإني شخصيـاً كنت متوقعـاً عنـدمـا اقتربت من الرس أن تنتهي مشـاقي خلال يوم أو يومين حيث يحتمـل أن أنطلق إلى البصرة في طريـق عـودتي إلى الهنـد . كنت قـد أرسلت رسـلاً لإخبـار الوزير عن نبأ وصولي . لكن بحثهم واستخبارهم عن الوزير وعن البـاشـا ضـاعـا دون طائل . انتظرت عودتهم بقدر مااستطعت أن أتحمل أشعة الشمس الملتهبـة ثم أجبرت على التقـدم إلى الأمـام على أمل الحصول على مَلجـأٍ أو ظـل أو مـاء قليـل يروي ظمئي الذي ثَقُلت وطأتـه إلى حـد كبير . دخلت في مزيج من خيـام غير منتظمة ، بعضها فيها أتراك وبعضها فيها بدو الجزيرة العربية وبعضها فيهـا بـدوٌ غرباء وقليل منها من الأرناؤوط . لذلك طرَّفت خيمتي وأضفت إلى هذه المجموعـة المتباينـة العنـاصرِ حـاشيتي التي تحوي فُرسـاً وهنوداً وبرتغـاليين وأرمنيين . ولقـد كانت خيبة أملي مؤلمة جداً عندما زرت الأفندي الذي فوضه الباشا بـإدارة الأمور بعد رحيله ، فـإنـه قـد انطلق إلى المـدينـة المنورة في اليوم الـذي وصلنـا فيـه إلى عنيزة . ولقـد وجـدت محمـد أفنـدي الملقب أفنـدي الـديـوان ، أو السكرتير الأول لبلاط سعادة البـاشـا ، على درجـة ضئيلـة جـداً من الاطلاع على جغرافيـة هـذه المنطقـة التي استُخـدِم فيهـا سيـده ثلاث سنوات في حرب مستمرة ، فكان كطفـلٍ صغير لم يسبق له أن غادر أسوار مدينة القاهرة . ولقد وجـدت أنـه من الضروري

أن أطلب مُرافِقاً ، موافِقاً في هـذه الفكرة تـأكيـد القشيف ، إذ يحتمل أن أجعـل طريق عودتي باتجاه البصرة ، فأجاب الأفندي على هـذا الطلب بتـأكيـده لي أنـه لا يستطيع أن يستجيب إلى رغبتي في العودة إلى البصرة دون أوامر مسبقة لأنه أمر في غايـة الخطورة بسبب المسؤوليـة التي لا يتمكن من حملها شخصيـاً ، وقـال إنـه بـإمكاني أن أجتـاز الطريـق من المـدينـة إلى البصرة بشكل أسهـل بكثير وفي فترة أقصر . وبمـا أني لم أكن لأوافق على هـذا الرأي فقـد اقترح عليَّ أن أقوم برحلـة إلى بغداد بـالتوجـه نحو سوريـا ، وهي رحلـة ذكر أنهـا تُنجز خلال عشرين يومـاً . ألححت عليـه بـأن يجهز لي مرافقـاً وصرحت برغبتي في الحصـول على حرس من القبائل ، لكني وجدت هذا التركي الجاهل جازمـاً في قراره ممـا اضطرني إلى الكف عن المتـابعـة معـه ، وأن أتطلـع نحـو البحر الأحمر عـوضـاً عن الخليـج من أجـل الخلاص .

وقد وعـد هـذا الوزير على كل حـال بـأن يكلف شيخ قبيلـة عنيزة بتوجيـه رسـائلي إلى البصرة ، الأمر الـذي جعلني أستنتج أنـه من المستحيل أن أحصل على مبعوث خاص . هذا هو الحال في الجزيرة العربية .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيڤان نيبيان

الحاكم ورئيس المجلس ، بومباي

السيد الشريف ،

« لي الشرف أن أعلمكم بأني غـادرت الأحسـاء في الحـادي والعشرين من تموز تحت حمايـة الجنود الأتراك الـذين احتلوا تلـك المنطقـة مؤخراً سـالكين الطريق المباشر المار بـالسلميـة إلى موقع درعيـة ، الـذي استغرق مسيرة عشرة أيـام ، وهو الطريق الذي رغب القشيف بسلوكه ، ثم رأى أنه من الحكمة أن يغيِّره فتوجه بنـا

خلال مسيرة اليوم الثاني نحو الشمال الغربي إلى آبار رماح وهي النقطة التي تَوَقَّع أن يندمج فيها مع حامية السلمية . ثم اضطر إلى تغيير جهة مسيره خشية أن تتعرض مجموعته إلى هجوم من قبيلة العجمان أو سعادة اللتين هاجمتا آخر موكب عسكري عَبَرَ ذلك الطريق . ولدى وصولنا إلى رماح عرفنا أن الباشا سبق أن تحرك من معسكره الأخير القريب من حطام درعية ، لكني لم أستطع أن أحصل على أية معلومات دقيقة عن الاتجاه الذي تبعه . ولم تكن حامية السلمية تملك من القوة ما يكفيها للتحرك من أسوار ذلك الحصن الصغير فاضطر القشيف إلى التوجه نحو الجنوب إلى منفوحة حيث حط رحاله هناك في الثالث من آب (أغسطس) ، وقد أرسل أمامه نصف قواته لتمكن قوات السلمية من إخلاء موقعها » .

« استمر تأخرنا في منفوحة حتى الثالث عشر من آب عندما وصلتنا مجموعة السلمية ، وقد حصلت الحقائق التالية : كان يسكن في الخرج أربعة شيوخ ، بالقرب من السلمية ، وهم من سلالة سعود ، اسم أحدهم عبد الله واسم أحد إخوته عبد العزيز وهما الاسمان اللذان لا يزالان مشهورين حتى الآن في تاريخ سلالة محمد بن عبد الوهاب[1] . مد الباشا هؤلاء الشيوخ بعطفه ووعدهم بحمايته في المستقبل ، حتى أنه قدم لهم خيولاً . وعندما قرر سعادته أن يتخلى عن هذا الجزء من الجزيرة العربية أمر جوقدار باشا السلمية أن يفتك بهم . لكنه لم يستطع أن ينفذ أوامر سيده بشكل مكشوف لأن تعداد مجموعته لم يتجاوز خمسين رجلاً ، فلجأ إلى الخيانة والغدر إذ دعا الشيوخ إلى وليمة اختتمها باغتيالهم جميعاً . وقبل هذا الحادث بأيام قلائل أجبرت مجموعة قوامها ألف وستمائة بدوي من قبيلة العجمان الأتراك على الالتجاء إلى الأسوار ولم يتخلصوا من هذا المأزق حتى ظهرت الإمدادات العسكرية » .

---

(١) بل في تاريخ سلالة محمد بن سعود وأبيه سعود .

« ولقد أسفر هـذا التصرف عن نتـائـج سيئـة جـداً بخصوص عـودتي إلى القطيف ، الأمر الذي سعيت إلى تأمينه عن طريق الحصول على وعد خطي من شيوخ قبيلة بني خالد ، لكنه أصبح الآن عديم النفع نظراً لأن المنطقة كلها مدججة بالسلاح . ولقد حصل صدع آخر بالثقة التي وضعتها في القشيف ، أثر على عودتي ، وهو خارج عن حدود قدرتي ، فلدى مغادرتنا الأحساء وَعَدَ وكُلُّه لطف ووداعة بأن يسمح لبدو تلك القبيلة أن يعودوا مع جمالهم بعد تعويض ما يهلك منها من قبيلة الدويش . لكن القشيف الذي كان بعيداً جداً عن خُلُق إنجاز الوعد وضع يده على جمال تلك القبيلة نفسها التي هيأت له وسائل مغادرة الأحساء ، لذلك لم أعد أستطع أن أتوجه إلى رجال تلك القبيلة في بحثي عن حماية لي في طريق العودة ، أو أن أعتمد عليهم في نقل أية رسالة إلى القطيف حيث رست في مينائه السفينة الحربية التي تقوم بنقل رسائلي » .

« تمكنت خلال السير الذي أعقب منفوحة من زيارة بلدة درعية الحالية للتأكد منها ، فهي تقع على بعد عشرة أميال باتجاه الجنوب الغربي على شفا وادٍ ضيق عميق شديد الانحدار متشكل نتيجة لوجود جبال جرداء ، دُمرت الأسوار والحصون التي كانت تحيط بالمدينة ، كما مُحي عدد من البيوت ، فقد كان الباشا مصمماً سلفاً على أن يعامل هذا البلد بوحشية . وقبل مغادرته أمر بمزروعات النخيل والحدائق أن تتلف ، فأتلفت . ولا يوجد في الوقت الحاضر ولو عائلة واحدة تسكن في بقايا البلدة . أما أولئك الذين حالفهم الحظ ونجوا بأرواحهم من تدمير الحرب فقد كانت منفوحة ملجأهم الرئيسي الذي يحوي ما يقرب من ألفي أسرة منهم ، وفي هذه البلدة بعض البيوت الجيدة ، وقد ظهر العرب فوق أسطحتها المنبسطة مسلحين ومستعدين لمواجهتنا لدى دخولنا وقد سبق أن دمر الباشا أسوارها وأبراجها التي كانت تحمي ممتلكات السكان من أية هجمات من قبل البدو . ويفصل قرية الرياض عن هذه القرية دمار واسع مجردٌ أيضاً من

تحصيناته ، لكن مزروعات النخيل المجاورة لتلك القريتين قد استبقيت . ولقد استَهلَكَ الأتراك المحصول الضئيل لهذا العام ، ولا يوجد في هذه المنطقة جوادٌ واحد . وعلى الرغم من أن شيخَي هاتين القريتين قد استلما السلطة عن طريق الباشا فإنهما رفضا أن يستجيبا لدعوة القشيف لهما بأن يشرِّفاه بزيارة في المعسكر » .

« استغرق حصار جيش سعادته لدرعية ثمانية أشهر ، ومنذ ذلك الوقت لا تزال الجنود تستخدم كثيراً في الانتقام من قبائل البدو ، ولقد اتخذوا من أتفه التصرفات ذريعة ليحرموهم من قطعانهم . دَمَّرَ دِفاعات كل قرية من قرى نجد ، ومع أن أسوار الأحساء قد استبقيت لأن موقعها بعيد جداً لم يُظهِر القشيفُ احتراماً تجاه الثروات المالية للسكان ، فقد ابتز منهم ما يعادل مليوناً ومائتا ألف قرش هندي قبل مغادرته تلك المقاطعة . لم يلجأ الباشا إلى تلك السياسة إلا بعد أن عزم على التخلي عن هذا الجزء من الجزيرة العربية ، حيث صمم على اتخاذ هذه الإجراءات التي أغنى بها نفسه وأغنى جيشه تاركاً المنطقة بحالة من الضياع لم يسبق لها أن تعرضت إليها في يوم من الأيام . ويتوقع أن يستغل حالة الهدوء التي ستسهل عليه السيطرة على الجزء الغربي من الجزيرة العربية .

« إني لأتوجع حزناً وأنا أُعلم مجلسكم الموقر أني قد استُجررت لأكون شاهداً معارِضاً للتخريب والدمار اللذَين قام بهما جيش الباشا الذي سار إلى الرس فقضى عليها ثم انطلق منها متوجهاً إلى المدينة المنورة قبل يومين من وصولي إليها ، تاركاً في مكانه أفندياً ليقوم بمهامه . زرت هذا الضابط لأعلمه بحاجتي إلى إنجاز الوعود التي ما وافقت على أن أغادر الأحساء إلا بعد التأكيد على أنها ستنجز ، ولكن تبين لي أنها لم تكن قابلة للإنجاز بسبب تصرفات الأتراك أنفسهم التي سبق لي أن أوضحتها لمجلسكم الموقر . بقي علي أن أفكر في الحصول على حراسة آمنه لحمايتي في الطريق إلى البصرة ، التي تبعد مسيرة اثنتي عشرة مرحلة من عنيزة ،

وربما ألتقي في المرحلة التاسعة من المسير ببدو المنتفق وأجتمع بزعيمهم . رتب لي الكابتن تايلور عودة آمنة إلى البصرة . ولو جرت الأمور على حسب الاقتراح الأخير الذي وضعه الأفندي وجعلني أكف عن الإلحاح في الطلب لاضطررت إلى التوجه إلى أي مرفأ على البحر الأحمر حيث يمكنني أن أجد ما ينقلني إلى الهند دون أن أقدر على إنجاز المهمة التي كُلفت بها .

« لي الشرف أن أكون ، ..

« الرس ، ٢٦ آب ١٨١٩ »

السابع والعشرون من آب (أغسطس) :

كلفت بعض البدو الذين يعتبرون الأصحاب الفعليين للجمال التي نقلتنا من الأحساء إلى الرس بنقل رسائلي إلى القطيف والأحساء لأنهم كانوا على وشك أن يعودوا .

الثامن والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الساعة الخامسة والنصف صباحاً فوق سهل قاحلٍ مغطى بالحصى ، تنتصب على جانبه سلسلة من التلال الصخرية ، ومررنا ببعض القرى الصغيرة التي كانت مسكونة أثناء تقدم الباشا لكنها الآن مهجورة . نزلنا في الحادية عشرة إلا ربعاً عند آبار مطا التي لاتزال مميزة برقعة صغيرة مسيجة تأوي إليها بعض الأسر التي تقوم بحراثة وزراعة الأراضي المجاورة للآبار . كان طريقنا إليها متوجهاً نحو الجنوب ثم الجنوب الغربي .

التاسع والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الساعة الخامسة حيث الهواء بارد جداً فقطعنا سهلاً آخر قاحلاً تماماً ومغطى بالحصى ، وحططنا الرحال في الحادية عشرة إلا ربعاً قبل الظهر عند

آبـار تـدعى عـدّاس . ظهر لنـا من هـذا المكان منظر تلال متفسخـة منفصلـة عن بعضها ومبعثرة في كل اتجاه فوق هذا السهل الواسع . كان طريقنا إلى هـذه الآبـار غرباً ثم جنوباً .

الثلاثون من آب (أغسطس) :

سرنا في الرابعـة والنصف صبـاحـاً وتـابعنـا طريقنـا فوق السهل نفسـه حتى الثـانيـة عشرة حيث دخلنـا واديـاً سـاقنـا إلى سلسلـة من التلال تمتـد بين الشمال والجنوب ، فنزلنا ونحن نسير الهويني ، وكانت جمالنا الجائعـة تـأكل من الأعشـاب الخشنة التي كثرت في هذا الوادي . ثم نزلنا في تجويف واقع على الجانب الآخر من هذه السلسلـة فوجـدنـا بعض الآبـار . ويطلق على هـذه البقعـة اسم جرزويـة ، وعندما حططنا الرحال كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . أما هذه التلال فهي قاحلة تماماً ، لكنها تبدو سلسلة رئيسيـة على الرغم من أنهـا ليست مرتفعـة . كان طريقنا غربياً .

الواحد والثلاثون من آب (أغسطس) :

أصابنا اضطراب في الساعة الواحدة والنصف من هذه الليلة فحزمنا الأحمـال على الدواب ثم أنزلناها عنهـا . إذ الأتراك في حـالـة اضطراب دائم ويفتقرون إلى ترتيب أمورهم فهم لا يخططون لأي تحرك البتة . اضطجعنا حتى الرابعة والنصف ثم سرنا فوق سهل واسع جداً ذي حصى نـاعمـة ، تتنـاثر فوقـه الشجيرات المـألوفـة وتطوقه تلال صخرية متباعـدة ومتجهـة جنوبـاً . وفي السـاعـة العـاشرة اخترقنـا سلسلـة من التـلال ذات الرمـال الحمراء ، وكانت هنـاك فجـوات تشير إلى بحيرات صغيرة شكلتهـا ميـاه الأمطـار . وفي الـواحـدة والنصف تجـاوزنـا هــذه التـلال وحططنا الرحال في سهل غمرته المياه مؤخراً . تدعى هـذه المنطقـة وادي الميـة . كان طريقنـا يتجـه غربـاً . يبقى هـذا السهل في الشتـاء مغمـوراً بشكل مستمر ،

وتتجه مرحلتنا المقررة نحو آبار بجير التي توجهنا من أجلها غرباً ثم جنوباً ثم غرباً .

الأول من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الخامسة من هذا الصباح وقطعنا سهلاً واسعاً مفروشاً بالحصى ، وعندما توجهنا غرباً دخلنا مجرى رملياً تصل من خلاله سيول إلى هذه السهول . توقعنا أن نجد ماء فيه ملوحة ، وكنا قد ملأنا كل أوعيتنا بالماء . وعندما حططنا الرحال في الخامسة والنصف مساء وجدنا كمية كبيرة من الماء العذب بِحَفْرِنا بعض الآبار ، ويمكن أن تُعزى هذه الظاهرة إلى هطول المطر بشكل غير معتاد في هذا الفصل . تدعى هذه المنطقة مشاش باطن العورمة .

الثاني من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الرابعة والنصف صباحاً وقطعنا الجزء الغربي من هذا السهل الرملي المنبسط الذي يعتبر تماسُك رملِه معتدلاً . يتجه جبل ماوية غرباً ثم شمالاً ، وهو يُرى من مسافة بعيدة لأن السهل منبسط . تحركنا حول النهاية الشمالية وحططنا الرحال غربي الجبل في الواحدة بعد الظهر . وفي هذا المكان ذكرى تاريخية ، إذ هو المكان الذي واجه فيه عبدُ الله تقدمَ إبراهيم باشا لأول مرة ، حيث كان معه عشرة آلاف رجل على جمال عربية وحيدة السنام ، لكنها هزمت في الحال لوجود بضع مئات من الجياد تحت إمرة أوزون علي ولا تزال جثث الوهابيين منتشرة فوق الوادي عرضة للشمس .

الثالث من أيلول (سبتمبر) :

سرنا في الرابعة والنصف من هذا الصباح فوق منطقة تلال متفسخة ، وعندما توجهنا غرباً دخلنا وادياً يخترقه عادة سيل من أمطار الشتاء يتجه نحو الجنوب الشرقي وهنا وجدنا آباراً ، فاستقينا ، وكانت الساعة الحادية عشرة

والنصف ، وعندما انتهينا تابعنا في طريق غربي من خلال سهل تنتشر عليه تلال صخرية هنا وهناك . وفي الثانية عشرة ليلاً أتينا على السلسلة الرئيسية التي تبدو متجهة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي تمر من خلال درة حميج حيث توقعنا أن نجد ماء ، وعندما يئسنا تابعت مجموعتنا تقدمها فأصبحنا منفصلين . شرعت في تقدمي وتحركت ببطء حتى العاشرة صباحاً من اليوم الرابع حيث وصلنا الحناكية . وفي هذا المكان وجدنا مركزاً للأتراك تأمَّر عليه رجل يدعى عَجَم أُوغلان وهو رجل فارسي ، برهن على أنه جندي مضياف ومُنتمٍ إلى تبريز . عاملني باهتمام بالغ فقدم لي من الطعام أفضل ما كان مختزناً لديه ونشر سجادته واعتنى بحصاني ، وبعدما أنعشني بخبز وقهوة وأريكة هيأ لي مكاناً للنوم . وفي الثالثة بعد منتصف الليل وصلت المجموعة المتأخرة والأمتعة وتابعوا زحفهم إلى المعسكر أفراداً وجماعات حتى السابعة صباحاً من اليوم الخامس .

كانت الحناكية محطة لكتيبة مهمتها تغطية المدينة والتقاط بدو نجد ، وهي منفصلة من هذه الجهة عن طريق الحجاج . توجد كمية كبيرة من الماء ، والعلف متوفر . وهنالك بقعة صغيرة محصنة لها أربعة أبراج وفيها أربعة مدافع صغيرة . عززت الكتيبة من مجموعتنا فوصلت إلى مائتي رجل . تحدَّد الوادي الضيق الشديد الانحدار الذي يروي السهل بتأثير سد من الحجارة المركبة فوق بعضها بعضاً بشكل رديء ، وهو يحمل مسؤولية القيام بغرض آخر وهو منع سيول الشتاء من الفيضان بشكل مفاجئ فوق الأراضي المنبسطة التي تُحرث وتُزرع كل سنة لتكون الممول الرئيسي للمدينة المنورة . فاحتياطي الماء الذي يجمعه السد يبقى عدة شهور بالإضافة إلى الآبار التي تمكِّن المزارعين من الحصول على محصول وافِر .

الخامس من أيلول (سبتمبر) :

سرنا هذا المساء وتوجهنا في البداية نحو الجنوب الغربي عبر قاع الوادي الضيق ومنه إلى سهل مغطى بأحجار متفككة ثم دخلنا سهلاً قاحلاً مفروشاً

بالحصى ومطوقاً بتلال صخرية ، تحي مجاري السيول الهابطة منها عدة بقع من السهل تتناثر عليها شجيرات وغيضات أعشاب وبعض الشجيرات التافهة . دخلنا ديرة بين التلال ونزلنا وادياً ضيقاً شديد الانحدار فيه كمية كبيرة من الماء وبقايا جدران لدعم الضفاف . التلال المحيطة بهذا الوادي عالية وصخرية وقاحلة ، في قاعه أيضاً عدد من الأشجار الكبيرة من النوع الراحي ، وهذه الأشجار تختلف عن غيرها في أن لها عدة أغصان وتشبه الورقةُ منها راحة الكف ، كما يبدو أن ثمرها على هذا الشكل ، وتدعى الشجرة داون ويدعى الثمر الذي ينضج بنكهة الزنجبيل (بلانش) . كان الوقت منتصف الليل عندما دخلنا هذه البقعة بعد أن نفذنا مسيراً منتجاً تجاوزنا فيه مسافة طويلة . كان الهواء رطباً والقمر يتألق بلمعانه ولسوء حظي أن تعطلت بوصلتي بسبب طول السير بحركات ارتجاجية مفاجئة .

السادس من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من الوادي في الثالثة مساءً ، وبعد مسيرنا في طريق جبلي صخري دخلنا وادياً رملياً يتوفر فيه بعض العلف وينتهي بالسهل الذي يصل إلى المدينة المنورة ، تغطي الحجارة المتفككة مساحة واسعة منه ، وهو قاحل تماماً ويعطي صورة عن أكبر مظهر من مظاهر الجدب . نزلنا في الساعة الثالثة من صباح اليوم السابع في بقعة اعتبرها أدلاؤنا المحط الأمثل ، لكننا وجدنا عندما طلع علينا الفجر أننا قصرنا عن مخططنا فأعدنا التحميل باقتراح مني للتوجه إلى المدينة . لكن الباشا أصدر أمراً بأن يتوقف الجميع حتى الظهر بسبب توجه كتيبة نحو المدينة .

وبما أن المسيحيين ممنوعون من دخول المدينة المنورة فقد أمر سعادته بشقر آغازي أن يقودني من الطريق المباشر القريب من المدينة ، لكنه لفت نظري إلى احتمال أن أشعر بالاستياء إذا ما صادفنا رجالاً وطنيين أو متعصبين للدين ، لأنهم

لن يتوانوا عن التصريح بتعليقاتهم التي يصعب إسكاتها في مكان بهذا القرب من المدينة المقدسة ، حيث يجبر الأتراك على التصرف بكل احترام كتصرفنا كمسيحيين أمام أضرحة القديسين والرهبان . كان هذا أول مظهر رأيته بين الجنود الأتراك عن موضوع تدخل الدين منذ وصولي .

لم يؤبه بثياب أوربي مار . وكان الجنود خلال المسير الطويل المضني يظهرون أخلاقاً رفيعة بشكل دائم تجاهي . شعرت برغبة قوية لزيارة المدينة أو الحصول على فكرة متكاملة عنها ، لكن التعقل والنظر البعيد إلى العواقب مَنَعاني من أن أعرض نفسي إلى إهانة . دخلت الآن أرض معتقدِ وتوجُّهِ المسلمين ، لذلك طلبت من الآغا المكلف بإرشادي أن يشق طريقه مبتعداً ، فتقدمنا في طريق يتجه إلى شمال المدينة لندور حول جبلٍ[1] صخريٍ شامخ ، ومررنا بحطام قرية بركاس التي كان فيها ما يقرب من مائتي بيت ، وهي تؤوي الآن ما يقرب من ستين شخصاً . توجد في السهل غزارة في المراعي وجدول من الماء العذب وعدة آبار . ثم قطعنا جدول ماء مُرٍّ يجري من خلال المدينة ويتوجه إلى آبار علي عبر وادٍ فيه قاع ذو سيل واسع يُموَّل في الشتاء من الجبال . وصلت في الساعة التاسعة مساءً وقد أضناني التعب والجهد . كان الدكتور (أنطونيو سكوت) الذي ينادونه باسم حكيم باشي رجلاً إيطالياً يقوم بالمهام الطبية المتعلقة بأسرة الباشا قد جهز عشاءً تركياً بَدَا منعشاً على الرغم من كونه في هذه الساعة المتأخرة وأنه تنقصه جميع المنعشات السريعة الأخرى .

بمجرد أن دخلنا الوادي الذي يقود إلى هذه البقعة لم يعد جوادي قادراً على تحمل وزني أكثر مما تحمل فسقط من تحتي . لقد أُجهِد هذا الحيوانُ كثيراً حتى أنه

---

(١) يتوقع كونه جبل أحد المذكور في السورة الثالثة من القرآن ، ويمثل تذكاراً لمحنة أصابت جيش محمد ﷺ .

لن يستطيع بذل أي جهد آخر لإيصالنا إلى الخيام التي تُرى أضواؤها من مكاننا في ذلك الوقت ، فاضطررت إلى تجريده من جهازه وعدته وأمتطي جملاً كان في حالة من الجهد تعادل ما كان عليه الجواد . كنا قد أمضينا ثلاثين ساعة في المسير الذي لم نستقي خلاله سوى مرة واحدة .

الثامن من أيلول (سبتمبر) :

وصل الباشا في الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم وترجل عند خيمة حكيم باشي نظراً لأنه لم يكن لدى سعادته من وسائل الراحة والتسلية أكثر من خيام حريمه المهيأة عند آبار علي . لم تكن حاشيته كبيرة العدد ، لكنهم بشكل عام يرتدون ثياباً ثمينة ، وهم مسلحون . أوكَلَ الباشا إلى طبيبه أن يطلب مني القيام بزيارة له دون الدخول في مراسم تشريفات أو جلسات عمل ، فهذه الأمور ستؤجل إلى ساعة مناسبة من نهار الغد ، فأذعنت لطلبه ، واستُقبلت استقبالاً ودياً ، ثم قُدمت القهوة بالإضافة إلى الغليون . كان الفنجان الذي قُدِم لسعادته موضوعاًفي صحن مرصع بالماس ، أما التي قدمت لباقي القوم فكانت قواعدها مصنوعة من الفضة .

أسهب سعادته في اعتذاره بالنسبة لموضوع المسير والإزعاجات التي لا بد أن أكون قد عانيت منها الكثير مبيناً أن عودتي من رَسْ إلى عنيزة ما كانت لتلقى استحسانه لأن الطريق ليست آمنة ، وأن عملاً ما في غاية الأهمية كان قد اضطره إلى الانطلاق من الرس ، لكن تلك التأخيرات وخيبات الأمل ما كانت لتجتنب في ذلك الطريق .

أجبت على كلام سعادته بأني كنت حريصاً بشكل خاص على أن أصل إلى معسكره الذي في الدرعية ، لأن ذلك سيفسح لي فرصة تقديمي لسعادته تهاني النبيل الأعظم الحاكم العام في البقعة نفسها التي حصلت فيها القوات المسلحة

للإمبراطورية العثمانية تحت إمرة وقيادة سعادته على نصر يُشار إليه بالبَنان . ولقد بدت على سعادته علائم سرور طافح عندما علم أن أخبار نصره وصلت إلى مسافات بعيدة مثل كلكوتا ، وأنه كان لنتائجه ذلك التقدير العالي المستوى .

قال : إنه كان يرغب في أن يُعرَفَ شخصياً لدى السلطات الإنكليزية في الهند التي كان بينها وبين والده درجة كبيرة من الصداقة والود ، حتى أن والده كان يتفق في الرأي في جميع الأوقات مع كل طلب للبريطانيين ، وكان يرغب بشكل خاص أن يوضح عن ميله في جميع المناسبات إلى إقامة علاقات صداقة دائمة مع الإنكليز ، فهو يفضلهم على جميع الشعوب الأوربية الأخرى . دخل الباشا في تحقيق مطول عن الهند ، امتدادها وثرواتها ، عدد الجنود والمدن والسفن الحربية ... وإلى ماشابه ذلك ، وبدا في شوق إلى الحصول على فكرة عامة عن جميع هذه النقاط خلال المقابلة الأولى .

امتدت هذه الزيارة حتى الثانية عشرة حيث قُدمت القهوة بشكل متكرر وجُددت الغلايين عدة مرات حتى خِفْت ألا تُختم حتى الصباح . بدا الباشا خلال زيارتي راغباً في أن يثبت في ذهني فكرة كونه جندياً في غاية الأُنس . فقد قدم لي مقداراً ضئيلاً من السعوط (النشوق) من علبة ألماسية جميلة . ولدى انسحابه من الجلسة ذكر أن إقامته في آبار علي لن تتجاوز ظهر اليوم التالي وأنه سيكون سعيداً بالاجتماع بي في خيمتي صباحاً ، وانكفأ إلى خيمة حريمه .

في صباح اليوم التاسع خرج سعادته من خيمة حريمه حاملاً أكبر أبنائه على ذراعيه واسمه عثمان بك ، وكان أحد ضباط حاشيته يحمل ابنته فاطمة . استَقبلت سعادته عند مدخل الخيمة وقُدته إلى كرسي وضع عن يمينه وعن يساره كرسيان ، أحدهما من أجل تشريف حكيم باشي الذي يستطيع أن يجلس أثناء حضور الباشا . جدد سعادته مناقشة مساء أمس وقد استفدت من التبكير في اغتنام فرصة قدمت فيها لسعادته رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام ورسالةالشريف بحق

رئيس المجلس في بومباي ، فإذا بسعادته يأخذهما ويقرأهما بإمعان . عندما قدَّم سعادتُه نفسَه لي ذكر أنه شخصياً ليس معروفاً لدى تلك الحكومة حتى الآن إلا من خلال المراسلات الودية التي تم تبادلها بين والده وبين السلطات البريطانية في الهند . فأجبته أن الاتصالات الحالية تعتبر قاعدة لعلاقات صداقة شخصية دائمة أعربت له بها عن أملي في أن تستمر دونما انقطاع . ثم إني قدمت لسعادته السيف الذي كان قد هيئ ليكون عُربوناً لتحقيق ذلك الهدف . ولقد بدا سعادته في غاية السرور ، وأخذ يتفحص الفن في إتقان صنع السيف باهتمام بالغ ، وعندما استل النصل صرح بأنه واحد من أروع السيوف التي سبق له أن رآها ، واغتنم هذه الفرصة ليثني على الحاكم العام في ذوقه الرفيع الذي يظهر في اختياره لهذه الهدية .

بعد مناقشة إطرائية قصيرة أمر سعادته الخدم بالانسحاب ليدرس الرسائل للمرة الثانية ، ثم دخل في تفاصيل مطولة عن الإجراءات التي تظهر آثارها في الدرعية ذاكراً أن تدمير هذه المدينة ناشئ عن أوامر وجهت من استانبول . وقد عبر عن أسفه لعدم اطلاعه على خطط وآراء الحاكم العام قبل فترة من الزمن . واستفسر سعادته بشكل خاص عما إذا جرى أي اتصال بين السلطات العليا بصدد هذا الموضوع ، فاقتصرت جوابي على أني لم أُعلم فيما إذا كانت قد حصلت مثل هذه الاتصالات أم لا . ثم صرح الباشا بأنه لا يعتبر نفسه حراً في صياغة أي جواب بالنسبة لموضوع على مثل هذه الأهمية دون استشارة والده الذي سيوجهه إلى تقديم الجواب المناسب لهذه الرسائل .

ونظراً لأني شعرت بالقلق تجاه التأخير الذي سينجم عن هذا الإجراء فإني أوضحت لسعادته عن رغبتي في العودة إلى بومباي بأقصى ما يمكن من سرعة باعتبار أن ميناء جدة يهيئ أفضل فرصة للحصول على مركب . وطلبت من سعادته أن يعيد النظر في موضوع الرسائل وأن يتجنب إن أمكن تأخيري الذي

سينشأ عن استشارته لمعالي نائب ملك مصر (الذي سيبرهن رده على تملق كثير أيضاً ، باستثناء مزية ضئيلة يتوقع أن تتحقق من استشارته) فرجوت سعادته ألا يطيل فترة التأخير بل أن يصيغ جوابه ويسمح لي أن أرافقه في طريقه إلى مكة ، ومن هناك إلى جدة حيث يمكنني أن أوجه صوراً صادقة عن اتصالاتي إلى السيد الذي سيضعها بين يدي باشا مصر ويوضح البواعث التي دفعتني إلى طلب جواب دون ترقب استشارة معاليه .

رفض معاليه أن يصيغ أي جواب محتجاً بأنه لا يملك ذلك الامتياز ، وأنه يشعر بالسرور في الإسراع بتوجيه آرائي إلى جدة حيث بإمكاني أن أترقب عودته من الحج ، وخلال هذه الفترة يصل الجواب من القاهرة ، كما طلب سعادته مني أن أوجه رسالة إلى السيد صولط مفصلاً فيها طبيعة الاتصالات التي فُرض علي أن أقوم بها .

عندئذ أعلمني الباشا أن سياسة هذه الحملة موجهة من قبل أبيه بأوامر من الباب العالي في الإمبراطورية العثمانية ، وأنه هو بالذات جاهل تماماً للأهداف البعيدة التي دفعت البلاط العثماني إلى إرسال الحملة مشياً على الأقدام وقد أصدر سعادته أوامره بأن تكون الدرعية آخر حدود عملياته العسكرية ، منتظراً بعد ذلك التعليمات الأخرى الآتية من والده . وخلال هذا التأخير أرسل بريداً بعيداً إلى الأحساء والقطيف للحصول على مؤن لأن جيشه كان في حالة شديدة من العوز والكرب ، وأنه خلال هذه الفترة بالذات قد يكون للاتصالات مع البريطانيين أكبر الأهمية ، فبمساعدتهم سيصبح من السهل ترتيب سحب جزء من قواته ، وإن الصعوبة الأساسية التي تواجه هذه الخطة تكمن في سحب سلاح المدفعية الذي يُفضل تحاشيه بوجود سلاح البحرية .

أعلمني سعادته أن إمام مسقط كتب له رسالة يعرض عليه فيها استخدام زوارقه ضد الجواسميين في أي وقت يشير الباشا إلى أن الفرصة مواتية لذلك ،

لأنه عند سقوط درعية وتقدم الأتراك إلى الأحساء كَتب سعادتُه رسالتين للإمام ، لكن الإمام لم يتخذ أية إجراءات بصدد السير بهذه الخطط ، لذلك أقلع الباشا عن هذا الهدف .

أدركت أنه من واجبي أن أوضح لسعادته أن العلاقات السلمية والودية والمراسلات المتبادلة حتى الآن بين إمام مسقط والحكومة البريطانية دفعت حكومة بومباي إلى أن تعتمد اعتماداً كاملاً على جهود الإمام في تشجيع مقترحات الحكومة تجاه الحملة المعتزمة ، وأن الإمام قد أخذ العهد على نفسه بتقديم التشجيعات والتسهيلات . وقد قاد هذا التشاور إلى الخاتمة التالية :

لم تزد توقعاتنا كثيراً عن نتيجةِ إشارةِ معالي نائب الملك عن كونه جوابَ إطراء ، فسيعبر عن تقديره للهدية التي قدمت لابنه ، والضوء الذي تَرى السلطات البريطانية من خلاله نتيجة الحرب القائمة ضد نفوذ الوهابيين ، الأمر الذي يمكن أن يدفع القوتين إلى الالتقاء من أجل توحيد موارد البلدين مما يبرهن لمعاليه بشكل أكثر وضوحاً على حسن نوايا الحكومة البريطانية في الهند لتمتين علاقات الصداقة الثابتة بالإضافة إلى النوايا الحسنة التي أظهرها معاليه في الماضي وحتى هذه الأيام .

بدا سعادة إبراهيم باشا في غاية السرور نتيجة لتهاني الحكومة البريطانية الإطرائية وللهدية النموذجية التي أرسلَتْها إليه ، فلا بد لهذا النوع من الاتصالات من أن يجعل الباشا يرغب في أية مشاورات يخطط إلى إجرائها في المستقبل بين سعادته وبين أية سلطات تعينها الحكومة البريطانية والتي يتوقع لها أن تسفر عن رضى متبادل . ولقد تبين أن هدف المهمة المتعلقة بتعاون مشترك ضد رأس الخيمة غير عمليّ نتيجة لظروف لا يمكن التنبؤ بها وكأن هذا الفصل المتقدم من السنة يهيء علاجاً للظروف الراهنة عن طريق القيام بإجراءات يتوقع لها أن تساعد على إنجاز هذه العهود .

لدى دراسة الخواتيم السابقة وجدت نفسي متحفزاً إلى إدخال السرور إلى قلب سعادته بموافقتي على انتظار نتيجة إشارة معالي نائب ملك مصر وبإرسال رسالة إلى السيد (صولط) موضحاً له تفاصيل الاتصالات التي جرت وطالباً منه أن يستعمل صلاحياته للإسراع برحيلي إلى الهند .

والآن وقد اختُتِمت المشاورات عبّرَ سعادته عن رغبته في أن يكون الفطور جاهزاً ، وهي الوجبة التي يوليها سعادته قليلاً من الاهتمام . تستلزم مراسم الفطور التركي أن يُقدم كل صحن بشكل دَوَراني ، وأنَّ على كل ضيف أن يأكل من الصحن نفسه مستعملاً ملعقة خشبية فقط . وعندما أُعلِن عن الفطور أخذ سعادته مقعده الذي يقع عند رأس الطاولة دون أن يظهر عليه أي ارتباك . استعمل ملعقته وشوكته وسكينه ببراعة فائقة ليتناول فطوراً مشبعاً . وقد بدا أن النوع الوحيد الذي لم يستسغه من المائدة الإنكليزية إنما هو الشاي ، إذ إنه لم يستعمله ، لذلك قُدم له وعاء من شراب حُلوٍ بديلاً عنه ، ثم ختم المشهد بالقهوة والغلايين ، وبقي سعادته حتى الحادية عشرة يناقش مواضيع متنوعة ، منها أن الخدم الفارسيين لفتوا نظره فإذا به يطرق نقاشاً طويلاً عن الاتصال الأخير بين الحكومة البريطانية وملك الملوك الذي لم يَبْدُ أن لدى سعادته رأياً مناسباً ومتكاملاً عنه . وفي الساعة الحادية عشرة عاد سعادته إلى حريمه ليرقد إلى ما بعد الظهر ، وهو الوقت المعين لانطلاقه إلى المدينة المنورة .

العاشر من أيلول (سبتمبر) :

بما أن سعادته وعدني بأن يرسل رسولاً إلى القاهرة فقد استغلَلْت هذه الفرصة لأوجه الرسالة التالية :

« إلى هنري صولط ،

« القنصل العام لجلالتها في مصر .

« سيدي ـ لي الشرف أن أرسل رسالة من سكرتير رئيس حكومة بومباي إلى عنوانكم ملحِقاً بها نسخاً عن الرسائل الموجهة من قبل النبيل الأعظم الحاكم العام ، والشريف رئيس المجلس في بومباي إلى سعادة إبراهيم باشا قائد الجيش التركي في الجزيرة العربية . ستطلعون من خلال دراستكم لهذه الرسائل على الخلفيات التي قد تدفع السلطات البريطانية إلى أن توجه رسائلها لسعادته وعلى فحوى المهمة التي أُوكلت إلي .

« وصلت القطيف في السادس عشر من أيار على أحد زوارق الشركة الموقرة ومن هناك وصلت الأحساء بعد رحلة أليمة . ولقد انتابني شعور بالخزي عندما وجدت أن الآراء السياسية للباشا أوحت إلي بفكرة عامة معاكسة تماماً للتوقعات التي سبق لي أن تصورتها نتيجة للتقارير التي وصلت مؤخراً إلى السلطات البريطانية في الهند ، وإن رحيل سعادته من الجزيرة العربية ليس بعيداً . عندما أخذت بعين الاعتبار الخلفيات التي كان النبيل الأعظم الحاكم العام نفسه قد أرسل رسالة بصددها إلى إبراهيم باشا ، والتي يرجح أن يكون ردُّ فعلها على معالي محمد علي باشا رضىً كبيراً نظراً لأنه سيتعرف على نتيجة المغامرة الأخيرة التي حظيت بدرجة عالية من التقدير ، أدركت أنه يتوجب علي أن أتعهد رحلة إلى معسكر سعادته ، وقد أكد لي أنها لن تتجاوز عشرة أو اثني عشر يوماً .

« تسبب امتداد مسيرنا عن أحداث كثيرة غير متوقعة ، وقد اضطرني رحيل سعادته المبكر إلى المدينة أن أرافق الكتيبة التركية إلى الرس التي انطلق منها سعادته ميمِّماً المدينة قبل يوم من وصولي إليها ، فحاولت أن أعود إلى (البصرة) لكن الوضع العام في الجزيرة العربية في الوقت الحاضر جعل من المتعذر القيام بمثل هذه الرحلة دون دليل ، وهو أمر لم يكن لدى الضباط الأتراك صلاحية لمنحه دون أمر مسبق من سعادته . فلم يبق أمامي عندئذ أي بديل عن التوجه إلى المدينة التي وصلتها في السابع من الشهر الجاري ، نظراً لأن رحلتي التي

نفذتها كانت في غاية ما يتصور من الضنك والجهد خلال أسوأ فصل في السنة على الإطلاق وعبر منطقة صحراوية آلت الآن إلى أرض قفرة نتيجة لدمار الحرب وتخريبها .

« فوّض سعادته ضابطاً اسمه محمد آغا ، بشكور آغازي ، ليقودني إلى آبار علي التي تبعد ثلاثة أميال عن المدينة ، وهو المكان الذي عسكرت فيه أسرة سعادته ، حين تشرف سكني هناك بحضور سعادته . ولقد دفعتني إلى المدينة ضرورة ملحة بالتأكيد . وعلى الرغم من عدم التمكن من تحقيق ولو هدف واحد من المهمة التي نُدبت لها فإني اعتبرت أنه من الواجب علي تقديم الرسائل التي عُهد بها إليّ لسعادته بالإضافة إلى سيف مهيأ خصيصاً له ، تلقاه سعادته بأعلى ما يتصور من علامات الرضا . إن عهود السلطات البريطانية في الهند على الإخلاص لَتَدْفعُها إلى الرغبة في تمتين أواصر الصداقة الثابتة والنوايا الحسنة تجاه الحكومة البريطانية . وقد أظهر معالي نائب ملك مصر ميله إلى تعزيزها وتقويتها بكل وضوح ، وهي المشاعر نفسها التي أثق بأنها ستدفع سعادة إبراهيم باشا إلى الموافقة على خوض أية مشاورات مستقبلية مع السلطات المعيَّنة من قبل الحكومة البريطانية ، والتي ستسفر بلا أدنى شك عن رضى كبير متبادل . وإني لواثق من أن هذه الدوافع والتوقعات ستكون منسجمة تماماً مع خطاب المركيز النبيل إلى سعادة إبراهيم باشا .

« عبر سعادته عن أسفه العميق تجاه التبدلات الاضطرارية التي أعاقت سير أموري وتجاه تأخر رسائل السلطات البريطانية الذي ثبط آماله في الالتقاء مع رغبات النبيل الأعظم الحاكم العام فقد كان من دواعي سرور الباشا أن يعيش مع أفكاره لو صدف أن أُعلم عن تصميم السلطات البريطانية في الهند في وقت أبكر ، كما عبر عن رغبته في أن يوصل الموضوع إلى معالي نائب ملك مصر لأنه يَعتبر طلبَ إشارته ذا أهمية بالغة ، ولأنه يتوقع حدوث بعض الاتصالات بين الحاكم

العام ونائب ملك مصر ، ربما لم يطلع عليها سعادته بعد . وقد استفدت من تصميم سعادته أن تمكنت من إرسال رسالة إلى القاهرة لأضع بين أيديكم الخطوط العامة لنتائج الاتصالات التي قمت بها .

« كان سعادة إبراهيم باشا في شوق عميق لأن يتحقق من مدى التأكيدات التي طُلب مني أن أنقلها لسعادته بالنسبة لتعاون قوى الجانبين مع النتيجة المحتومة لمثل هذا الإجراء ، فأعطيته مالدي من تعليمات مرتبطة بهذا الموضوع ، مع تأكيد على تصميم الحكومة البريطانية على فتح اتصال دوري ومشجِع مع سعادته مما دفع إلى بدء تبادل الآراء في الوقت الحاضر .

« أما الموضوع المشار به إلى معالي نائب الملك فناشئ عن إحجام إبراهيم باشا عن وضع أي رَدٍ لرسالة الحاكم العام بدون تعليماته . لذلك أستعطفك لكونك السلطة البديلة عن الحكومة بأن تعرض على نظر معاليه الخلفيات التي من أجلها وَجَّه الحاكم العام رسالته لسعادة إبراهيم باشا والنتيجة التي يمكن أن يسفر عنها التعاون مع القوات المسلحة البريطانية التي ينبغي أن تساهم في ترسيخ حكومة الباشا وأمانها ، ذلك لأن أفكار الباشا موجهة نحو امتلاك الجزيرة العربية أو محو نفوذ القبيلة الوحيدة المتماسكة التي يشكلها الوهابيون وحلفاؤهم ، والتي أصبحت الآن مقهورة .

« إني على ثقة من أن نصائح معاليه حول الموضوع الذي استعطفتك لتوضيحه ستمكِّن سعادة إبراهيم باشا من أن يصيغ جواباً مناسباً لرسالة الحاكم العام ، وإن تأخري في ينبع ، وهو المكان المعين لسكني حتى يعود سعادته من الحج لن يمتد طويلاً إذا لم تكن هنالك ضرورة ماسة لذلك .

« لم يحالفني الحظ منذ وصولي إلى المدينة في الحصول على أية معلومات أستند إليها من أجل تشكيل رأي واضح عن السياسة التي أمر سعادة خليل باشا باتباعها

للسيطرة على العاصمة صنعاء (عاصمة اليمن) . وأنت تعرف بلا شك أنه لا يوجد مندوب سامي ولا وكيل أعمال في مُخا (ميناء يمني على البحر الأحمر) في الوقت الحاضر لذلك لن تدري حكومة بومباي بالتعديلات التي يمكن أن تحصل في مينائها . ونظراً لأني أتوقع أن أمُرَّ بِمُخا في طريق عودتي أجد نفسي ملزماً باتباع أية معلومات تضفي بها عليّ ، والتي ستساعدني بلا شك وتكون عوناً لي في إرسال استفساراتي إلى المصادر الرئيسية التي قد أتمكن من تشكيل رأي عن طريق توجيهاتها . (١٢)

« لي الشرف أن أكون ، ...
« آبار علي ، قرب المدينة ، ١٠ أيلول ١٨١٩ »

الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) :

حدث بعد ظهر هذا اليوم حادث يؤسف له . فقد وصلت حامية عسكرية في طريقها من ينبع نحو المدينة إلى نقطة تبعد ثلاثة أميال عن آبار علي عندما انفصل أحد الضباط الأساسيين عن الحرس ، وهو ابن الوزير ، بسبب شوقه للوصول إلى المدينة في أبكر وقت ممكن ، واندفع إلى الأمام بحماية خمسة رجال خيالة . وفي طريق ضيق بين الجبال هاجمتهم مجموعة من قطاع الطرق التي تغزو هذه الجبال باستمرار وبأعداد كبيرة ، فجُرح ابن الوزير جرحاً بليغاً في ركبته ورُمي أحد الخيالة في صدره ، وهرب الخيالة الباقون ووصلوا آبار علي قائلين : إنهم تركوا الرجلين ميتين ، فأُرسِلت مجموعة إلى مكان الحادث لتحضر جثتي الرجلين اللذين زُعم أنهما قتلا فوجدتهما في حالة يرثى لها ، فجيء بهما إلى المعسكر . ولم يظهر غضب الجنود الأتراك في رد فعلهم تجاه محنة رفاقهم من جراء هذا التصرف ، فقد أوكلوا إلى الله أخذ الثأر من أولئك الذين لن تصل أيديهم إليهم .

الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) :

وصل محمد أفندي (موهردار : حامل الأختام) شقيق الضابط المجروح إلى المدينة ليزور أخاه ومعه تعليمات لإجراء تعديل في أمر مسيرنا بسبب عدم وجود عدد كاف من الجنود للحماية ، ولذلك تحول مقصدي إلى ينبع التي سيتوجه إليها الحريم لكي يُنقلن عن طريق البحر إلى السويس . سترافق الركب أيضاً أفراس الاستيلاد الخاصة بسعادته ، وهي تتألف من ثلاثمائة فرس وجواد تشكل خيرة نسل الجزيرة العربية . وقد جمعها سعادته من القبائل المختلفة في المناطق التي زارها ، فهم غالباً ما يحتفظون بجواد أو فرس بهدف الحفاظ على تكاثر النوع الأصيل . لذلك ستبقى تلك الأجزاء من الجزيرة العربية محرومة من الجياد الممتازة سنين طويلة ، بينما ستنتشر في مصر على نطاق واسع ، فقد أرسل سعادته أعداداً كبيرة منها حتى الآن عدا تلك التي يخرج بها الجندُ من الجزيرة العربية .

لو كان لا يزال في حوزة العرب الذين بجوار طريقنا جواد من الفصيلة الجيدة فإن صاحبه لم يجازف في إحضاره إلى مخيمنا ليعرضه للبيع لأنه يتوقع أن يصادر الجواد ويعود صاحبه على قدميه ليضحك منه قومه . والطريقة التي تتبع في شراء الخيول جديرة بالملاحظة . إذا رأى المشتري جواداً هو غرضه فإنه يتقدم بطلب لصاحبه الذي يسمح له بفحص الحيوان . أما إذا كان الجواد معروفاً بأنه من نسل جيد فإن صاحب الجواد ينشر سجلاً نظامياً عن نسبه ، عندئذ يعيِّن المشتري السعر ويسمي المبلغ ، ثم يجيب المالك من طرفه بكلام حازم بالكلمة الأحادية المقطع : لا ، فيُزاد المبلغ المعروض لدى سماعها ، وهكذا إلى أن يشبع البدوي جشعَه . في هذه الطريقة من المساومة سمة أصيلة جداً ، فالمالك لا يعرض رغباته ولا يحدد أي سعر لبضاعته حتى يحصل على معلومات عن حاجة المشتري وعن السعر الأعلى الذي تتحمل حالته المادية دفعه ، وتحدث هذه الصفقات مع الغرباء والمسافرين . أما المقايضة التي تحدث بين البدو فلا بد فيها من تحديد

السعر ، إذ لا تزال شائعة بينهم عادة تثبيت القيمة عن طريق عرض عدد معين من الجمال المكافئة للمبلغ .

وصلت قافلة حجاج دمشق وهي في طريقها إلى مكة صباح هذا اليوم ، إذ إن باشا الشام ، وهو صالح باشا (ذو ثلاث حواشي) ، مكلف بحماية الحجاج وبوَضْعِ الغطاء الجديد للكعبة . أما إبراهيم باشا ، الذي يتمتع أيضاً بمنصب ثلاث الحواشي ، فإنه مكلف بتأمين حماية للقوافل من هذا المكان إلى مكة ، لأنَّهُ يُعتبر باشا جدة وأرض محمد[1] المقدسة . كنت متشوقاً إلى تشكيل تقييم لأعداد الحجيج الذين وصلوا في حماية باشا الشام ومشاهدتهم وهم يقتربون من المدينة المنورة ، لكني لم أستطع أن أحقق هذا الأمل . كان ضمن حاشية الباشا عدة مدافع لغرض إطلاق نيران التحيات في مناسبات معينة . وقد أشار إلى وصولِ المدفعِ إحدى طلقاتِه . علِمت من الأتراك الذين عادوا من المدينة هذا المساء ، وكذلك من خدمي الذين كانوا هناك بغرض زيارة ضريح الرسول[1] أن عدد الحجاج كبير نوعاً ما ، وهو أقل بقليل من ذي قبل ، فيروى أن عدداً كبيراً قد هلك في العام الماضي وهم في طريق عودتهم بسبب النقص في الماء ، الأمر الذي يُعزى إليه كون العدد في هذه السنة لا يتجاوز خمسمائة حاج . وحجاج هذه القافلة من استنبول ومن أتراك آسيا كدمشق وغيرها . لكن المرء يتوقع أن يرى عدداً أكبر من المتدينين من هذه البقاع الشعبية الواسعة . وقد أمر السيد الكبير بإصلاح جميع مستودعات الماء وتنظيف الآبار وإعادة تأسيسها ، وقد نُفذ الأمر هذه السنة ، ولم أسمع عن هلاك أي شخص خلال المسير .

ليس في حوزتي وصف كامل للمدينة المنورة لأنه لا يُسمح لغير المسلمين بدخول هذه البقعة المقدسة ، فلم أحصل على فكرة كاملة عنها . تقع المدينة المنورة

---

(١) ﷺ .

في غورٍ وسْط أعظم الجبال الصخرية الجرداء . أسوارها وحصونها مبنية من الحجارة والكلس ، وجميع مآذنها ملساء ومطروشة ، وهي تهيء لسكانها ملجأً رائعاً . لها ثلاث بوابات ، إحداها لدمشق ، وهي أقرب إلى كونها قلعة من كونها بوابة ، نصب على هذا الحصن عدد من المدافع ، وفي هذه النقطة بالذات يُنشر العلم الأخضر أيام الجُمع . أما البوابتان الباقيتان فهما لُجمان ومصر ، فوق كل منهما فتحتان لثلاثة مدافع . تنشر في الأعياد أعلام خضراء على هاتين البوابتين . توجد داخل المدينة حديقة واسعة يكثر فيها النخيل والرمان وكروم العنب وبعض الفاكهة ذات النوع الجيد ، وتحتل الخضار الدرجة الأولى ، والباميا بشكل خاص . يَروي المدينة جدول يدعى عيسون زرقة ماؤه عذب ، وفيها أيضاً عدة آبار . توجد أربعة قبور مقدسة بالإضافة إلى قبر الرسول[1] وهي قبور أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة[2] . في المدينة مسجدان أيضاً وقاضٍ واحد ومفتيان أحدهما لمذهب الحنفية والآخر للشافعية ، مهمتهما تفسير الأحكام والعقائد . فيها ثلاثون كلية ، أو بالأحرى مدارس تعليمية من أجل تثقيف الشباب . وقد ارتفعت نسبة النفقات هذا العام إلى ستمائة دينار صرفت على إصلاح القبور والمساجد والأبنية المقدسة الأخرى . وإذا كان بالإمكان الاعتماد على المبلغ أكثر من ذلك توجب أن تُجرى الإصلاحات بشكل متكرر وأن تجدد ، حتى أنه نادراً ما يرى أي شيء متداعياً في الوقت الحاضر باستثناء قبر الرسول[1] بالذات الذي يبدو وكأنه لم يُلمس . يعيش جميع سكان المدينة على التبرعات التي يرسلها الأشخاص الذين يرغبون في أن تُقام عبادات وشعائر بأسمائهم ، كما أن الحجاج يوصون أبناءهم بدفع جزء من ميراثهم فيها ، ويرسل السيد الكبير مبلغاً كبيراً . إن العالم الإسلامي يتبرع في الحقيقة لدعم هؤلاء المتسولين الكُسالى العاطلين عن العمل ، فإذا بهم

---

(١) ﷺ .

(٢) قبر علي ليس في المدينة المنورة وإنما في النجف بالعراق رضي الله عنه ـ المحقق .

يَثْرون ، وبسبب ثرائهم يعتقــدون أن لهم الحـق في أن يكـونــوا متغطرسين وأن يعـامِلـوا حتى المحسنين إليهم بـازدراء واحتقـار . يسرفـون على الطعـام في بيـوتهم بسخاء على الرغم من أنهم مشهورون بالجشع . تتمول المدينة بكميات كبيرة من المـاء ومع هذا لا يزال الغريب مضطراً إلى شراء كل شَرْبة ماء يحتاجهـا وأن يـدفع عنـد كل ضريح بشكل طوعي حيث يتوجه عنده بالدعاء . وتوزع المبالغ التي يدفعهـا الحجيج على شكل حصص . ولا يدفع سكان المدينة أيـة ضرائب . أشـار حسـاب دقيق إلى أن عدد المساكن فيها يصل إلى ستة آلاف ، نصفها مـدمر ، ويصل عـدد السكان الإجمالي إلى ثمانية آلاف نسمة .

في شمالي المـدينـة زروع نخيل واسعـة وحـدائـق فيهـا سكان كثيرون ، وإلى الغرب آبار علي التي تحولت إلى دمار في هذه الأيـام . وفي هـذا الوادي الممتـد بين الجبال التي في الجهة الجنوبية الغربية عدة قرى ومزروعات نخيل .

وعندما اكتملت ترتيبات مسيرنا تقرر أن يكون الرحيل في الخامس عشر من الشهر الجاري . النساء يتقدمن الطابور في عربات (التختروان) التي توصف بأنها خشنة جداً وغير مريحة أبداً . تتركب كل عربة من عمودين أو دِعـامتين طـويلتين متوازيتين ، تثبت في مركزها منصـة عليهـا عرش مغطى بـالقماش لكي لا يخترقـه بصر ولا هواء . يحمل هـذه الآلـة جملان أحـدهمـا متقـدم والآخر من ورائـه بحيث يُقحم رأسه في جسم العربة لكي يتمكن من رؤية طريقه ، وترتفع نهايات الأعمـدة فوق جهازَيْ الجملين .

وقد استعملت هذه الناقلات على نحو مفيد جداً من أجل نقل المدافع القاذفة المثبتة على قواعد كمدافع الهاون وغيرها من العتاد الذي لا يعتبر بحـد ذاتـه وسيلـة نقل لافتِقـارِه إلى عجلات ، فتركب على العرش المرتفع ، ويوضع المِـدفع القـاذف على المنصة ، وترتب الجمال كما ذكرت آنفاً .

لكن هذا الأمر لا يتماشى مع جمال الجزيرة العربية لأنها بطيئة جداً بالنسبة لهذا الحمل المجهد ، فهي مرهفة لأن أصحابها لا يُلقون عليها أحمالاً ثقيلة . وهي أفضل من جمال مصر لأنها أكثر نشاطاً وتستطيع أن تعيش على الشجيرات التي تجدها في الصحراء خلال مسيرها اليومي . أما الجمل المصري فهو عبارة عن حيوان كبير وثقيل جداً ، ويحتاج إلى مقدار كبير من الحنطة والعلف ولا يستطيع أن يسير بخطاً سريعة .

كان أدلاّؤنا بعض الخيالة العائدين إلى مصر ، أما الباقون فهم من بدو المغرب المتوجهين إلى ديارهم ، وهم لا يتلقون أي أجر ، فهم يعيشون على النهب من خلال غاراتهم ، وقد ساقوا معهم ثمار جهودهم ، وهي تتألف من جمال وخيل من جميع الأعمار والحجوم ومعها النساء والأطفال والعبيد الذين سلبوهم خلال غاراتهم الحاقدة المختلفة .

وقد ظهر على المغاربة استياء كبير بسبب الأسلوب الذي طردهم به الباشا بعد حملة شاقة تحملوا فيها أعظم نصيب من الجهد ، خاصة في حاميات الحراسة ، ولم يَمنح سعادته ولو دولاراً واحداً أُعطية لأولئك الرجال التعساء الذين تبعوه راجين إحسانه من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى شواطئ الخليج . دُرِّب هؤلاء الرجال تدريباً خاصاً جداً من أجل هذه الخدمة لأنهم أيضاً بدو منشّؤون على نفس العادات التي نشأ عليها بدو الجزيرة العربية ، ومؤهلون لكل مشقة ويعيشون على أي غذاء حتى الأعشاب الضارة والحشائش والحيوانات التي يمكن أن ترمي بها الصدف في طريقهم . وهم بشكل عام أشد عنفاً ونشاطاً من بدو الجزيرة العربية ، ويقال : إنهم أكثر شجاعة لكني أعتقد أن هذا يُعزى إلى كونهم أفضل أسلحة ، وبالطبع أكثر تضلعاً في استعمالها . امتطى كل رجل حصاناً عربياً بدا مظهره مزرياً بلا شك على الرغم من كونه حيواناً أصيلاً تتجاوز كفاءته التوقعات التي قد تتكون لدى الإنسان من النظرة الأولى . ومن عادتهم أن يركبوا

الجمل ويسوقوا الحصان المجهز بجهازه ، بنادقهم القديمة طويلة جداً وحرابها ثابتة ، والطرف الغليظ من البندقية آخذ شكل البندقية ذات الفتيل ويُستعمل الزناد بالطريقة التي يستعمل بها زناد البندقية الفرنسية ، وأتصور أن تكون القطعة بكاملها فرنسية الصنع أو ألمانية ، ومع الكثير منهم مسدسات وسيوف ضالعة أيضاً ، لكن السلاح الذي يقيمون عليه معظم الاعتماد إنما هو البندقية ، ويتخذون خلال مسيرهم هيئة الجند ويهجمون بأقصى سرعة . يطلقون صيحة مع إطلاق بنادقهم ثم يندفعون بسلاحهم الذي يحملونه بأيدٍ مرتفعة فوق رؤوسهم وإلى الخلف ، حيث تستعمل كلتا اليدين لاستعمال السلاح . وهم يعلقون ركاباً على شكل مِجرفة يَضرب جسم الحصان فيندفع إلى الأمام بشكل مستمر ، لكن عملاً من هذا القبيل سيكون له أثر تخريبي على جسم الجواد أو الجمل القتالي الذي لا يظهر عليه من الصمود في المرة الثانية ماظهر منه في المرة الأولى لأنه شعر بعنف الهجوم السابق . من هنا برزت فكرة أن رجال البدو المغربيين أشجع بكثير من بدو الجزيرة العربية .

الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من آبار علي في السابعة صباحاً بطريق غربي عبر الجبال ، فأتينا بعد مسير ميلين على المنطقة التي جرح فيها التركيان قبل عدة أيام ، حيث يهيمن جبلان صعبا المرتقى على المَمَرّ الذي سُمِعت فيه طلقة مسدس ، وهنا أُرسل البدو ليترقبوا وصول أي مسافر وحيد يتوقع أن يحالفه الحظ بمرورنا ويرجو مساندتنا . وعندما تابعنا المسير في الطريق الجبلي وجدنا شجيرات كثيرة عديمة النفع وازدادت الجبال الصخرية ارتفاعاً . وصلنا في الخامسة مساءً إلى بقعة مميزة ببرج صغير أبيض منتصب على قمة جبل باتجاه الغرب على سفحه بئر عميق ذو ماء عذب ، فخيمنا على أرض قليلة الانحدار تكتنفها الكثبان من كل جانب ، فيها أشجار كبيرة كثيفة وأشجار صغيرة .

السادس عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الخامسة صباحاً وتابعنا طريقنا عبر جبال الوادي نفسه . هذه الجبال عالية وصخرية وقاحلة ، تُرى في الوادي عدة شجيرات والطريق جيد ومفروش بالحصى ، بينما يستحيل عبور الجبال التي في الجهة الجنوبية الشرقية . حططنا الرحال في الثانية عشرة عند بئر ناءٍ لا يحوي كمية كافية من الماء مع العلم أن طلبه يعتبر حاجة ملحة قبل هبوط الظلام .

السابع عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً ، وتابعنا طريقنا عبر الوديان مثل يوم أمس فوصلنا الجديدة في الثانية عشرة ، وهي قرية بائسة ذات أكواخ مبنية من الحجارة يرتفع قسم من أبنيتها فوق نجد منبسط يقابل سفح الجبل . أما القرية المنخفضة التي تحوي عدة حدائق نخيل فتقع في الأغوار . الماء فيها عذب ، لكن البطيخ والقثاء وغيرهما مما اقتنينا لم تكن جيدة . لا تسطع الشمس على هذا الوادي أكثر من ثلاث ساعات يومياً ، مما يجعله بقعة غير صحية . أما القبائل التي تسكن الجبال وتحمي هذا الممر فهي مسروح وميمون . وقد شقّتا طُرقاً على طول أعالي الجبال بهدف جمع أكبر عدد من القوات على نحو سهل ، وكان مدخل واديها منيع التحصينات في يوم من الأيام ، وجميع الأفراد مسلحون بالمسدسات والغدارات[1] وما شابهها فعندما تقدم طوسون باشا (ابن محمد علي باشا) بجنوده دافعوا عن واديهم بعزيمة كبيرة إلى درجة أنه لم يتمكن من عبوره دون أن يفقد كثيراً من رجاله . تابعنا طريقنا إلى قرية الحمراء التي وصلناها في الثانية عشرة ليلاً فوجدنا مؤنة من ماء مستساغ نوعاً ما لم يلبث أن ارتشفته الجمال التي لم يسبق لها أن استقت منذ انطلاقنا من آبار علي .

---

(١) بندقية عتيقة الطراز . (المترجم) .

الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً فإذا بكل شخص تقريباً يشكو من فقدان جمال أو متاع أو خيل ، فالأتراك لا يضعون أية حراسة أو رقابة خلال الليل ، وكانت اللصوص ناشطة تماماً خلال الليلة التي مضت . كانت الجبال والوديان كما هي عليه تقريباً . وفي السابعة مررنا فوق تل ثُمَّ نزلناه سالكين طريقاً صخرياً صعباً ووعراً يتشعب إلى فرعين ، الفرع الذي ينعطف إلى الجنوب يسير إلى مكة وجدة ويلتقي مع ذاك الذي يأتي من الحمرا متجهاً إلى المرتفعات ، والفرع الثاني يتجه إلى الغرب وهو الذي سلكناه إلى (بير السلطان) حيث وصلناه في الحادية عشرة قبل الظهر ، كان بئراً عميقاً جداً ومليئاً بالماء العذب ، وعلى الهضبة التي فوق البئر مباشرة حطام مسجد ، فخيمنا في سهلٍ رمليٍ صغير منبسط تتكاثف فيه أشجار عديمة النفع . أما الطريق إلى بدر فهي إلى الجنوب من هذه السلسلة حيث تجتمع القوافل المصرية والدمشقية بشكل دائم لتتابع إلى مكة ، وعندما تصل إحداها إلى هذه المرحلة تطلق نار التحية فتجيب عليها الأخرى لتتبادلا نبأ الوصول .

التاسع عشر من أيلول (سبتمبر) :

حططنا الرحال صدر هذا النهار لنعلف الجمال وأرسلنا بدو المغاربة إلى الأمام لنتمكن من المتابعة باطمئنان أكثر بعد الظهر . فسرنا في الثالثة وتابعنا طريقنا باستمرار حتى بزوغ الفجر حيث انبثقنا من التلال ونزلنا في ميلحا ذات الآبار المالحة .

العشرون من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من ميلحا حيث تأخذ الطبيعة مظهراً جديداً ،فتنفتح على سهل واسع يطوقه البحر الأحمر من جهة الغرب . وصلنا ينبع في العاشرة صباحاً ، وهو ميناء عربي بحري متواضع محاط بسور من الحجارة غير المتماسكة ، ويبدو

عليـه أنـه يتـداعى ، وقـد قـاموا برفعـه حـديثاً على نمط الأسوار القـديمـة ذات التطويق الكامل ليؤمن حمـايـة لجميع السكان . لاتزال الأسوار القـديمـة وإحـدى بواباتها قائمـة ، لكنهـا لا توحي بقـدم تركيبهـا على الرغم من أن ينبع مينـاء قـديم جداً . والمنطقة التي يطوقها هذا السور فسيحة تكفي لاستيعـاب خمسـة أضعـاف عدد البيوت ، لذلك لاتزال بُقَع واسعـة عـديـدة مخصصـة لأكوام الروث والمقـابر والحفر المعدة للجمال والخيول الميتة ، مما يؤدي إلى تلويث هوائها .

ليس لينبع مصدر ثابت للماء ، إذ يحصل عليه بجمع ماء المطر في حفر عميقـة مغطاة ، ولا يتوقع لهذا الماء أن يبقى بحالة جيدة أو يتحسن نتيجة لحفظـه فيهـا لأن بناءها سيء ولأنهم لا يهتمون كثيراً بصفـاء المـاء عنـدمـا يخزنونـه . أمـا الآبـار الغائرة في البلد فتعطي مـاء يصل في رداءة رائحتـه إلى ردائـة المـاء الآسن الـذي يتجمع في جوف سفينة . وقد صدف أن الأمطـار لم تهطل في هـذه المـدينـة منـذ ثلاث سنوات مما أدى بينبع إلى أن تصبح شبـه مهجورة . بينمـا يمكن الحصول على ماء طيب من آبار علي بعد ثلاثة أو أربعة أميـال بـالقرب من بقـايـا حصن رفعـه طوسون باشا لحماية معسكره .

كانت ينبع مستودعاً للذخيرة ومركزاً لتدريب الجنـد من أجل تعزيز جيش الباشا بالإضافة إلى أنها نقطة التجمع بين الطريق البحري الآتي من قناة السويس والقصير والطريق البري الـذي تسلكـه القوافل الآتيـة من السويس خلال أربعـة وعشرين يوماً ، مع العلم أن مؤن الماء على هذا الطريق غير مستقرة .

هنالك بلدة أخرى تدعى ينبع تبعد مسافة قصيرة إلى الجنوب منهـا بـاتجـاه الداخل ، يكثر فيها الماء وتُنتج حـدائقهـا خضـاراً تموّل المرفـأ البحري . لم أستطع أن أزور هذا المكان لأن الجو كان شديـد الحرارة والرطوبـة ، كما أن صحتي ضعفت كثيراً . وقـد اقترحت مرة أن نُغيِّر اتجـاه المسير بـالتحرك نحـو ينبـع الثـانيـة لاعتقادي بأن ظهور الماء والحـدائق سيهيء لي وسيلـة استجمام ، لكني أقلعت عن

هذه الفكرة فيما بعد لأني علمت أن البلدة الداخلية أكثر سوءاً من الناحية الصحيـة من الميناء البحري .

كانت إقامتي في ينبع بشكل خاص تعيسة جـداً بسبب الحُمى التي هـاجمتني ، ولم يكن في حـوزتي دواء ولا مسـاعـدة طبيـة . عـاد الرسـول الـذي كُلف بنقـل الرسائل في التاسع عشر من تشرين الأول يحمل نبأ بغيضاً مفاده أن السيد صولـط متغيب عن القاهرة ، لكنه أحضر معه رسائل من معالي محمد علي باشا إلى سعادتـه الذي يقيم في جدة منـذ مـدة ، فقررت أن أبحر في أول زورق يتجـه إلى هنـاك . وقد وصلتها على زورق مكشوف خلال أربعة أيام .

وعلى الرغم من أني وصلت ضحى اليوم السـابع والعشرين فـإني لم أستطـع أن أدبر أيـة وسيلـة للراحـة أو النوم أو الطعـام على هـذا الشـاطئ حتى مسـاء اليـوم التالي . وكان سعادته مشغولاً كثيراً بتدقيق حسابات حاكم جدة الـذي على وشـك أن يُعفى من منصبـه ، فلم يتـذكر أنـه كان من الضروري أن يرسـل شخصـاً مـا لينقل لي رغبة سعادته فيما يتعلق بالوقت الملائم بالنسبة له ليمنحني أُذُناً صـاغيـة ، لذلك أصبحت مضطراً لأن أُعَبر لسعـادتـه عن قلقي ، وقـد استقبلني مسـاء اليوم التاسع والعشرين فصدَّر حديثه بكلمات الاعتذار المعتادة ليلفت انتباهي إلى غض النظر عن عدم إرساله أي شخص لاستقبالي . لم يكن نقاشنا ذا أهمية كبيرة ، فقد كان يحيط بسعادته عدد من الشخصيات ذوي الصلة بالحاكم المصاب بالخزي الآن ، وكانت استفساراته موجهة نحو أسعـار الرز والسكر والأقمشـة المنسوجـة التي تبـاع على شكل قطع محدودة الأطوال في كلكوتا ، لكني لم أستطع أن أقدم له معلومـات وافيـة عن هـذه الأمور ، بل تجرأت على إقحـام سؤال يتعلق بمـوضـوع الردِّ الـذي وصل من القاهرة ، فـأجـابني سعـادتـه بـأنـه ربمـا يتوفر لـديـه فراغ في المستقبل لمناقشته ،فصرحت لسعـادتـه أنـه ربمـا يكون من الأفضل أن يـذكر لي اسم أحـد وزرائه أو ضباطـه لأتمكن من الاتصـال بـه عن طريقـه ، لأني لم أعرف حتى الآن

شخصاً أستطيع من خلاله أن أنقل أي توسل لسعادته بِحُرِّية ، لكنه لم يظهر عليه أنه أَعَار هذا الطلب أي اهتمام . وعندما عدت من منزل سعادتـه رافقني اثنـان من حاملي المشاعل أصلهما من مصر ،وهما يريان أيضاً أن لهما الحق في ممارسـة سلطتهما المزعومـة على الوضـع الراهن في هـذه المنطقـة وكأن البـاشـا متقمِّصٌ في جسـديهما ويسير في البلد ، ذلك لأنهما أتقنا تعلم حرفتهما بدقة ، فما كادا يخرجان من البوابـة حتى شرعا يزعجان الحجاج المتسولين التعساء الـذين استسلموا إلى النوم على أرض الشـارع دون أي عـازل وأكثرهم بلا غطـاء وهم يُعطُـون صـورة عن أزرى مشهـد للبـؤس . كانت جميـع شـوارع جـدة مـزدحمـة بـالنـاس التـابعين لمختلف البـلاد الإسلامية ، إلى درجة أنـه كان يصعب التجـاوز من أحـد الشوارع إلى آخر خلال النهار .

أما مدينة جدة فهي ذات بنـاء جيـد ، إذ تحوي كثيراً من المنـازل الفسيحـة الشامخة ، ونـادراً مـاتتمكن من استيعـاب الحجـاج والأشخـاص الـذين تهيـأت لهم ظروف الثراء ، أمـا المُعـوِزون وأولئـك الـذين أنفقـوا مـا لـديهم من مـال خـلال مواصلتهم رحلة طويلة شاقة لأداء هذه الشعيرة من دينهم فهم معرضون إلى أقصى أنواع البؤس بشكل مستمر . كما توجـد عـدة مخيمـات لأمثـال هؤلاء النـاس خـارج المدينة ، وإني لأرى أن هذه الزيادة في أعداد الناس لتحتاج إلى مؤن تكفي ثلاثة آلاف شخص . يتكون هذا الحشد من هنود شقوا طريقهم من أبعـد الأصقـاع عبر سرات ومـالبـار وكلكـوتـا ، وأتى بعضهم من السنـد ، وعَرب كثيرون من عُمان والساحل المحاذي لها ، مفضلين طريق البحر الأحمر ليـدركوا الواجبـات الـدينيـة المتعاقبة والمتواقتة ، كما يُرى عدد لا بأس به من مسلمي الملايو ، ويعود عـدد كبير من الأتراك من هذا الطريق نحو القصير ومنهـا إلى القـاهرة ومصر العليـا ، كما أني لاحظت عدداً كبيراً من عرب المغرب أيضاً . ومضت أيـام كثيرة دون أي اتصـال مع الباشا ، فانتهزت فرصة قمت خلالها بزيارة للوزير لأنقل له رغباتي فقـال إنـه

لم يُعلم بالموضوع من قريب ولا من بعيد ، وأن الباشا سيبحر خلال أيـام قلائل ، وأنه إذا ماسمع أي شيء عن المسألة فـإنـه سيعلمني . وبمـا أن البـاشـا قـد استـدعى الوزير في هذه اللحظة فقد طلبت منه أن يقدم طلباتي لسعادته .

لا زالت الأحوال العـامـة تتكشّف عن اضطراب لا يوصف منـذ يوم وصـول الباشا إلى جدة بعد أدائـه فريضـة الحج ، فقـد تورط أشخـاص كثيرون من جراء تـدقيـق حسـابـات الحـاكم وذاقـوا شتى أنـواع التعـذيب لانتزاع اعترافـاتهم بشـأن الاختلاسات المزعومة ، كما قُدر للحاكم سيد علي أن يعاني من إهانات كثيرة .

بما أن يوم رحيل سعادته قد تعين في السادس عشر من أيلول فإني قد التمست مقابلة أخرى أمكن أن تتحقق في الثـاني عشر منـه . وقـد عبر سعـادتـه عن بعض الأسف تجاه التأخير الذي عزاه إلى عدم قـدرتـه على تـأمين كاتب يتمتع بـإمكانيـة صياغة رسالة بالعربية ، وأنه سيأمر بإجراء استقصـاء أكبر عن رجل منـاسب يوم غد ، وسيعبر في رسالته التي سيصيغها عن أسفـه لعـدم إجراء هـذه الاتصـالات في وقت أبكر ليتمكن من الاندماج مع آراء الحكومة البريطانية .

عبر سعادته عن رغبته في إرسال هديـةٍ منـاسبـةٍ مع الرسـالـة فطلب رأيي في اختيارهـا قـائلاً : إنـه يصعب الحصول على أي شيء يتلاءم مع المنـاسبـة في هـذه الظروف . فكان جوابي لسعادته أن قيمة المادة المرسلة في مثل هذه الأوضاع ليست مسألةً ذات أهمية نظراً لأن الهدية الودية إنمـا تقـدر بـالأسلوب الـذي نقلت بـه ، ويُقدَّر ثمنها بالتعبير عن علاقات الصداقة المتبادلة التي ترافقها . عبر سعـادتـه عن رغبته في إرسال حصان عربي وفرس ، طالبـاً مني أن أحيطهما برعـايتي وأن أكون الوسيط في تقديمهما للنبيل الأعظم الحاكم العام ، الأمر الذي وافقت على القيـام بـه بلا شك ، وعبر سعادته عن عزمـه على منحي علامـة تقـدير قـائلاً : إنـه يتوجب عليه تقديم حصان إكراماً لي فما كان مني إلا أن وجهت شكري العميق لسعادتـه ، وأعلمني أنه أمر بتجهيز زورق لنقلي إلى مُخا .

وبما أنه كان من الضروري بالنسبة لي أن أتعرَّف على جواب سعادته فقد طلبت منه أن يكرمني بنسخة عن الرسالة ، إذ قد تكون ضرورية في حال طروٌ أي حادث ولكي أتمكن من صياغة ترجمة لها ،فتكرم سعادته بموافقته على هذا الطلب .

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني أرسل لي نسخة عن الرسالة على أن أعيدها بعد دراستها وأرسل له لقب وعنوان الحاكم العام ، فاستجبت لطلبه وأرسلت له نسخة عن رسالة كانت في حوزتي تحوي اللقب الذي يشكل (أشرف الأشراف) جزءاً منه ، فجَرَتْ بسبب هاتين الكلمتين معارضة خطيرة لأنه لقب يختص به الرسول محمد[1] فقط ، فطلبت من الشخص المرسل أن يلفت نظر المعارضين إلى أنه يمكن استبداله بلقب (أمجد الأمجاد) بسهولة . محَّص سعادته هذا الموضوع بحماس شديد جداً عوضاً عن أن ينظر إليه بإحساس طيِّب ، مع أن لقب عباس ميرزا يماثله تقريباً ، وكذلك لقب نواب أشرف ، ومختلف صيغ ألقاب هذه السلالة تستعمل بأشكال متعددة لتعبر عن نبلٍ واستعلاء في النظام السائد لكتابة الرسائل عبر منطقة الشرق كله بالإضافة إلى اللغة العربية ، وكما هو الحال في اللغة الفارسية . ناقش سعادته ومستشاروه هذه النقطة حتى هيمن الغضب الديني على مفاهيمهم . ولقد تم في هذه الحالة تحاشي ما من شأنه أن يثير الاعتراضات التافهة باقتراح لقب يفيد المعنى نفسه .

كانت زيارة ثلاثة أو أربعة من سائسي خيل سعادته الذين أتوا لانتقاء الهدية آخر تلميح وصلني بصدد الخيول التي سبق لسعادته أن أمر بتحميلها على الزورق الذي عزموا على إرسالي به إلى مخا ، أما الآن فإنه قد تعمَّد ألا يكسبني الشرف أو يجاملني في أن يُريني الحيوانات التي سبق له أن طلب مني أن أكون

---

(١) ﷺ .

واسطة تقديمها ، والتي تشاورنا معاً بصددها في المقابلة الأخيرة ، لكني لم أعلق على هذه الناحية بشيء .

أحضر أحد أقارب سعادته إلى مسكني بعض قطع من جهاز حصان وذكر أنه مكلف بنقلها لتكون ملحقات للخيل المعدة للحاكم العام ، وقد أرسلها الخازن محلولة من رباطاتها .

وتتألف هذه القطع من عِذار[1] وطوق صدري وحِلس[2] طليت بالذهب والفضة ، وزوج ركابٍ فضي . لكن سرعان ما يلاحظ الناظر إلى الحِلس حالته البالية ومظهره الممزق ، مما أشار إلى أنه كان في يوم من الأيام جهازاً نافعاً لسعادته في كثير من المناسبات . ثم إني لم أرَ أن تقديم رأيي في موضوع سبق لي أن استشرت به سيعتبر ذنباً خطيراً يخالف مبادئ الأدب عند الأتراك وهو أمر لا أتوقع أن يسوغه الجهل المطبق على عقولهم ، فطلبت من حامل الملحقات أن يعود بصحبة الرجل الذي سيحمل رسالة شفهية إلى الوزير عن هذا الموضوع ليعلمه « أني أجلت قبول جهاز السرج حتى تسنح لي فرصة إجراء مناقشة معه ، طالباً من أجل هذا الغرض أن أُعلم متى وأين سيحصل لي الشرف في زيارته » فأعطيت المواد لرسول سعادته لينقلها إلى الخازن في طريق عودته ريثما تجري بعض النقاشات مع الوزير ، لكن لم تتيسر لي فرصة إجراء مناقشة معه لأنه لم يعلمني عن وقت فراغٍ يمكنه أن يستقبلني فيه .

استدعي حينئذ حكيم باشي طبيب معاليه الذي كان يعمل كمترجم لكي يُعرفهم على الدوافع أو على الخلفيات التي كانت وراء اعتراضي ، فأطْلعت ذلك الرجل على تلك الظروف وطلبت منه أن ينقل لسعادته استعدادي لخدمته في

---

(١) العِذار : ماسال من اللجام على خد الفرس . (المترجم)

(٢) الحِلْس : قماشة توضع تحت السرج . (المترجم)

تقديم الإيضاحات إليه شخصياً ، لكن سعادته فضل أن يكون ذلك عن طريق المترجم ، فتقدمت بما يلي : إن الجُلّ[1] ليس من المتمات الضرورية ، ونظراً لعدم إمكانية الحصول على جُلٍ جديد أو في حالة جيدة ، فلعله من الأليق أن يُستغنى عنه . وفَوَّضت المترجم في حال احتياج سعادته لإيضاحات أكثر بأن يقدم له رأيي بأن القطع التي سبق لها أن استعملت لا تعتبر هدية مناسبة لرجل نبيل يشغل ذلك المنصب الرفيع في ظل الحكومة البريطانية ، كالمنصب الذي يشغله النبيل هاستينغز الآن .

أمر سعادته حكيم باشا بأن ينقل لي الرسالة الشفهية التالية : « إنه نظراً لكوني قد قدمت اعتراضاً بصدد موضوع تجهيزات الحصان فإن سعادته قد أمر بإنزال الخيول إلى البر ، وأن الجواب قد أُلغي ، كما أمر بإتلاف الرسائل ، وإن سعادته يأمرني بالرحيل غداً في الزورق الذي أعِد لنقلي إلى مُخا ، وإنه سيوجه رسالة إلى الحاكم العام لدى وصوله إلى القاهرة راداً معها السيف الذي أهدي إليه » .

عند ذلك توضح لي أن سعادته كان يرمي من خلال هذا التصرف إلى تقليص منزلة السلطات البريطانية في أعين حاشيته وأعين سكان جدة ، وأنه رغب في أن ينتحل لنفسه صفة التفوق والاستعلاء لا التساوي ، وهي الصفة التي لا يحق لأي باشا أن يطالب بها . إنهم يقيمون وزناً كبيراً لمراسم الهدايا ، تماماً كما يقيمون للألقاب . لكنه عندما رفض استعمال كلمة معينة بدعوى الالتزام بأحكام الدين ، أصبح من الحكمة تقديم تعبير آخر من أجل تجنب إثارة الاعتراضات التافهة والخصومات وجرح المشاعر .

أما بالنسبة لموضوع الهدية فقد سبق لي أن رفضت الإدلاء بأي رأي عنها

---

(١) الجُل : أغطية مزركشة لسرج الفرس . (المترجم)

على الرغم من الإلحاح علي بشكل متكرر من أجل ذلك خلال المقابلة . فلو أرسل السرج والجل إلى الزورق مع الخيل لما بقي مجال لإبداء أي رأي ، لكن نظراً لأن التجهيزات قد أرسلت إلي خصيصاً وهي محلولة لكي تُرى بوضوح فإني لم أتوقع سوى أني إذا رفضتها بشكل عنيد فإن ذلك سيعرضني إلى أن أوصم بأني وافقت على الهدية وصرحت باستحساني لها عندما كان الكلام علنياً وعلى رؤوس الأشهاد فقط ، الأمر الذي يحمل في طياته معنى الاستخفاف المتعمد .

أوكلت المسألة إلى الوزير والخازن اللَّذَيْن كانا يبدوان لي أنسب شخصين يمكن أن يتِم التعديل من خلالهما دون أية مراجعة أخرى ، خاصة عندما يرافق الرسالة الشفهية اعتذار معقول للتراجع عن ذلك القسم الذي بدا مزعجاً في ردي ، لكن نفوس جميع أولئك الأشخاص كانت تفتقر إلى الرغبة في كسب رضا الآخرين . وطالما أن قِلة احترامهم اقتصرت على شخصي بالذات فقد وجدت نفسي عازماً على أن أظهر عديم الإحساس تجاه ماظهر منهم ، لكنه كان من المحال أن أتظاهر بأني أجهل أمراً مشهوراً عندهم على نطاق واسع وعلى مستوى أدنى تركي .

تُعطى الثياب التي رأيتهم يرتدونها للمعتمدين منهم والخدام فقط ، وربما لا يتنازل سعادته بأن يقدم لوزيره أو مدير مكتبه أية قطعة منها .

لذلك لم يبق في جعبتي سوى جواب واحد للرسالة الأخيرة التي أرسلها لي وهو أني كنت قبلت تجهيز الزورق لو كانت الظروف على غير هذه الحال . فينبغي عليَّ الآن أن أُدبر مركباً على حسابي الخاص لينقلني إلى المقصد الذي أفضله لنفسي لا ما يفضله لي غيري وفي التوقيت الذي يتلاءم مع مصلحتي على أكمل وجه .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى هنري صولط :
القنصل العام لجلالتها في مصر .

سيدي ، إني لأعبر عن أسفي لأني لم أحْظَ باستلام جواب لرسالتي السابقة التي أرسلتها إلى القاهرة مع مبعوث سعادته خلال إقامتي في ينبع ، أو جدة . وعند عودته أوصل رسالة السيد (بيير) وأعلمني عن غيابك . كانت إقامتي في ينبع مفعمة بالتعاسة بسبب إصابتي بالحمى في الوضع البائس الذي كنت فيه ، لذلك توجهت إلى جدة بمجرد أن أصبحت قادراً على التماسك على متن الزورق .

١ ـ لم يكن استقبالي في جدة لائقاً ، وحدث تأجيل طويل اعتذر سعادته من أجله وعزاه إلى عدم وجود كاتب يستطيع أن يدون رسالة بالخط العربي .

٢ ـ عبر سعادته خلال المقابلة الثانية التي حصلت بعد وصولي بعدة أيام عن عزمه على صياغة جواب للحاكم العام يُبلغه فيها عن أسفه العميق لعدم حصول هذه الاتصالات في فترة أسبق ليتمكن من مشاركة الحكومة البريطانية أفكارها وأهدافها ، وطلب مني أن أقوم بانتقاء حصان وفرس للاستعمال الخاص بالنبيل الأعظم الحاكم العام فأعلمته أن من واجبي تنفيذ أمره ، وعلمت أنه مصمم على تقديم الهدية .

٣ ـ أعدَّ سعادته الجواب وأرسله لي لأدرسه طالباً مني أن أرسل له لقب وعنوان الحاكم العام فاستجبت لذلك وأرسلت له نسخة عن رسالة كانت في حوزتي تتضمن لقب (أشرف الأشراف) فأثيرت اعتراضات خطيرة جداً عليه لكونه يخص الرسول محمداً[1] فقط . ولكي أتجنب الصعوبات وأتحاشى إثارة الاعتراضات التافهة لَفَتُّ نظرهم إلى إمكانية استبداله بلقب (أمجد الأمجاد) بسهولة .

---

(١) ﷺ .

٤ ـ أمر سعادته بتحميل ثلاثة جياد على المركب الذي أُعِد لنقلي إلى مُخا ، اثنان منها للنبيل الأعظم الحاكم العام وواحد لي شخصياً ، ولم يشرفني سعادته أو يجاملني بالسماح لي برؤية الحيوانات التي طَلب مني أن أكون واسطة لنقلها للنبيل مع أنه استشارني قبل ذلك في تقديمها ، ولم أنطق ببُنت شفة تعليقاً على هذا الموضوع .

٥ ـ أمر سعادته الخازن بإرسال جُلٍ مطليٍ بالذهب لعزمه على تقديم الملحقات الضرورية للخيل ، ووفقاً لتعليمات سعادته أُرسلت إلي هذه الملحقات مكشوفة ومحلولة عن بعضها بعضاً لكي تسهل رؤيتها ، فإذا بالحِلس وغيره من القطع بالية تماماً وممزقة فطلبت منهم أن يعيدوها إلى الخازن إلى أن تتهيأ فرصة للتشاور مع وزير سعادته . وأرسلت طلباً للوزير ألتمسه أن يشرفني بمقابلة ، لكن هذا الأمر لم يتحقق .

٦ ـ عبَّر سعادته عن سخطٍ كبير بسبب رَدِّ الملحقات فتقدمت إليه بالجواب التالي عن طريق الطبيب حكيم باشا وسيط سعادته الذي قام بعمل المترجم : (نظراً لكون الملحقات متممات غيرِ ضرورية ولعدم التمكن من الحصول على قطع جديدة منها فإنه أدعى إلى الحكمة الاستغناء عنها ، لأنه لا يمكن أن تُعتبر الأدوات التي سبق أن استعملت هدية لائقة برجل نبيل يملأ المركز السياسي المرموق في ظل الحكومة البريطانية ، كالذي يملؤه (المركيز هاستنغز) الآن .

٧ ـ وجَّه لي سعادته جواباً نقله الشخص نفسه وهو : نظراً لكوني رفضت نقل الملحقات التي أَمر بإلحاقها بالخيل فإنه أمر بإنزالها من المركب وبإتلاف الرسائل وأن أستعد للرحيل في اليوم التالي بالقارب الذي أُعد لنقلي إلى مخا ، وإن سعادته سيدبر كاتباً لدى وصوله إلى القاهرة ليرسل رسالة مناسبة للحاكم العام يعيد معها السيف الذي أُهدي إليه .

٨ ـ أما بالنسبة لتصرُّفي تجاه هذه النقاط فكان كالتالي : اعتبرت نفسي مخولاً بمعرفة موضوع جواب سعادته لأن التعليمات التي أُمرت باتباعها كانت ترسم لي خطاً معيناً علي أن أسلكه في ظروف معينة كان يُتوقع أن تبرز أمامي . وذكر سعادته بالإضافة إلى ذلك عن حاجته إلى كاتب للعربية موثوق في إمكانياته ، وكان قد أرسل لي نسخة عن الرسالة لدراستها . أما بالنسبة للّقب فإن ألقاباً كثيرة على غراره منتشرة بينهم ولم يسبق لي أن سمعت بإقامة أي اعتراض عليها ، مع هذا تم تحاشي كل ما يثير الاعتراضات التافهة بتقديم لقب يوحي بالمعنى نفسه .

٩ ـ أما بالنسبة لحجة سعادته المزعومة التي سببت استياءه وغمه فيتوجب علي أن أُعلمك بأنه سبق أن خصني باستشارته إياي والتماس رأيي فيما يتعلق بملاءمة الهدية التي طَلب مني أن أكون الوسيط في تقديمها ، لذلك لا أتصور أني انتهكت مبادئ الأدب والتربية السليمة في تقديم الرأي الذي سردته عليكم في الفقرة السادسة .

١٠ ـ جعلتني التعليمات التي تلقيتها من أجل أن ترشدني في خطواتي أُعلمك أنت بشكل خاص عن طبيعة استقبالي ، فإليك الصور الرئيسية عن هذا الموضوع بالتفصيل :

انطلقت من الأحساء معتمداً على تأكيد بأني سأصل معسكر سعادته في غضون عشرة أيام ، وبعد مسير مُضنٍ استمر خمسة وثلاثين يوماً وصلْتُ منطقة تبعد مسافة مرحلة عن سعادته ، وكان في عنيزة ، وهو يعرف تمام المعرفة أني كنت برفقة (قفتن آغازي) ، لكنه لم ينتظر وصولي ولم يتخذ احتياطات ليؤمن لي اتصالاً أسرع بسعادته . ونظراً لأنه لم يفوض أي شخص للاتصال بي ، بسبب وضع الجزيرة العربية في تلك الآونة فقد اضطرني إلى التوجه نحو المدينة ـ مع أنه كان بالإمكان تحاشيها ـ ثم أنجزت عودتي إلى البصرة باطمئنان .

١١ ـ لم تظهر سمات التهاني العامة على وصولي إلى آبار علي ، الأمر الذي

يتكشف عن نفورٍ واضحٍ في نفس سعادته ، لكنه كان أنيساً في نقاشه وشرفني بحضوره إلى مقر سكني . أما تصرف سعادته عند مناقشة المسألة الأساسية وتصميمه على التماس إشارة القاهرة بالنسبة لجواب الرسالة فإنما يدلان على غرور ذاتي عميق ، اضطرني إلى الموافقة على الانتظار مما سبب لي تأخراً يزيد عن شهرين ، كما ستلاحظ لدى مراجعتك تاريخَيْ رسالتَيّ .

١٢ ـ توقعت لدى وصولي إلى جدة أن أجد شخصاً من حاشية معاليه مندوباً لاستقبالي أو لزيارتي بعد نزولي ، لكنه تحاشى هذا الأمر متعمداً ، ولم يوافق على طلبي الذي أكدت فيه على التعرف على وزيره أو (أمين سره) لأتمكن من الاتصال بسعادته عن طريقه ، لذلك لجأت إلى تركيز اتصالاتي مع أشخاص أدنى من جميع الأشخاص المقربين إليه .

١٣ ـ أطنبت في إيضاحي للأمور بقصد إعطائها أفضل قالَب لتوضع بين يدي معالي محمد علي باشا فربما يشعر بضرورة دراسة تصرفات سعادته بما يستحق من اهتمام وليعبر عن عدم رضاه عن هذا النوع من تبادل العلاقات لأنه سيعجل في حدوث احتجاجات شديدة اللهجة .

« لي الشرف أن أكون ، ....

« جدة ، ١٤ تشرين الثاني ١٨١٩ .

السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) :

صعد سعادته السفينة في صباح اليوم السادس عشر من تشرين الثاني مودعاً بتحية من جميع المدافع التي كانت على البر والتي كانت على الماء ، الأمر الذي استنتجت منه أن أتراك مصر غيرُ غافلين عن ضرورة إقامة مراسم التشريفات العامة التي يطلقون عليها اسم (فنطزية)[1] . وفي صباح السابع عشر أبحر

(١) إطلاق مدفعي متحرر من قيود الشكل .

سعادته باتجاه قُصير دون أية نية لزيارة ينبع . كُررت التحية في هذه المناسبة حتى فرغ المرفأ من جميع السفن . لم تتجلَّ البهجة التي عبر عنها سكان جدة بعد رحيل الباشا واستبداده على قسمات وجوههم فحسب بل انطلقت حناجرهم تتحدث عنها جهاراً في جميع المجتمعات . وقد عَين الباشا قبل رحيله الرئيس حجي حسن ، الذي كان قائدَ الأسطول ، ليقوم بالمهام التي كان يقوم بها الحاكم الأخير سيد علي الذي أعفي من منصبه لاتهامه بتخصيص العائدات التي استمدها من ممارسته للتجارة في جدة لمنفعته الخاصة . هذه هي مبادئ العدالة التي يعتبر الباشا نفسه في ظلها مخولاً على المال الذي اكتسبه هذا الرجل بتجارته مع الهند في سفنه الخاصة وبرأسماله الخاص محتجاً بأن وضع مثل هذا الرجل كوضع عبدٍ يعود الحق في ماله لسيده . ساعدت هِراوات الجلادين كُتَّاب سعادته في تسوية حسابات (سيد) الذي رأى نفسه مجرداً مما اكتسبه خلال عشر سنوات ، وانقلب إلى متسول يطوف على غير هدى في المدينة التي كان فيها حاكماً في يوم من الأيام .

سررت في صباح اليوم الثامِن عَشَر لِتَلَقّي زيارة من قبل الحاكم الجديد يرافقه السيد عربي جيلاني وعدد من التجار الذين كانوا معتادين على تبادل المحادثات مع الإنجليز . وقد عبَّروا عن أسفهم لأنهم لم يكونوا قادرين على إظهار اهتمامهم بي خلال وجود الباشا لأنه لم يصرح لهم عن رغبته في ذلك ، وقد اعتبروا صمته تحريماً ، ولم يرغبوا في إجراء أية محادثات خاصة خشية أن يستثيروا يقظة الباشا . سبق لرئيس حسن أن زار (كلكوتا وبومباي) خلال قيادته لسفن أسطول الباشا ، وقد عبر عن امتنانه تجاه المعاملة اللطيفة التي لقيها هناك . أما (عربي جيلاني) فقد قدمت أسرته للإنكليز خدمة فريدة من نوعها ، خاصة خلال الحملة التي قاموا بها في مصر عندما تمكنوا من خلال اهتمامهم بشريف مكة مِن الحصول على تمويلات ضخمة من المواشي ودعمٍ للأسطول . لكن سطوة الأتراك

في هذه الآونة تجعل أمثال هذه الخدمات خاضعة بكاملها لنزواتهم ، مع أن الأفراد يكونون أحياناً نزاعين إلى توجيه مصالحهم نحو أصدقائهم السابقين . ويبدو أن الرعب الناتج عن مسدسات الباشا وهراواته أكثر تأثيراً على الناس من الذهب البريطاني ، فإنه على الرغم من جميع توسلاتي لم أستطع أن أحصل على رسول ينقل رسائلي إلى القاهرة مما أجبرني على أن أكون على أتم الحذر بالنسبة للأسلوب الذي أرسلهم به .

قررت أن أبقى في جدة على أمل تلقي جواب من السيد صولط قبل وصول مركب من الهند ، وهو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامي الآن لأنه يستحيل الاتصال ببصرة أو العودة من أي طريق آخر ، وليست هناك أية ضرورة فعلاً للقيام بمثل هذه المحاولة المحفوفة بالمخاطر ، فهي لا تخدم أية مصلحة عامة .

أولاً : لو كان بإمكان المراسلين أن يعودوا من الرس إلى بصرة فالقطيف ثم ما يليها لعلمت الحكومة مسبقاً بإخفاق المهمة ، من جهة أخرى لو أخفق هؤلاء الرجال بالمحاولة ما كان ليبقى أمامي أي أمل في النجاح .

ثانياً : ينبغي أن يكون وصولي إلى الخليج بعد اختتام الحملة بوقت طويل .

وجهت رسالة[1] إلى الشريف السيد ألفِنْستون عضو المجلس في بومباي مفصلاً النقاط المختصرة السابقة .

الآن وقد انتهت شؤون مهمتي فسأسعى إلى جمع مخطط عن الإجراءات التي قام بها الأتراك في الجزيرة العربية بحيث يكون أقرب ما يمكن إلى الصحة من

(١) أُرِّخت هذه الرسالة في جدة ، الثامن عشر من تشرين الثاني نوفمبر ١٨١٩ ، وقد وُجهت إلى كلكوتا (راجع الملحق ب) .

الملاحظات التي دونتها في مناسبات سابقة وفي روايات أوثق مَنْ مَثَّلَ على مسرح آخر الحملات التي قام بها سعادته ، وذلك بمقارنة التقارير المختلفة عن معاركهم كما رويت عن أكثر الضباط والأشخاص ذكاء ممن تورط في هذه المآثر مبتدئاً بوصف مختصر لإبراهيم باشا . (١٣)

هو أكبر أبناء نائب ملك مصر ، أنجبته أرملةٌ تزوجها معاليه ، تكون أختاً لمصطفى بك ، وهو ضابط متفوق . يقال إن إبراهيم باشا وُلد بعه شهور قلائل من زواج والديه ، مما يؤيد الرواية التي تقول : إنه ليس سوى ولد متبنى لمحمد علي . وعندما ترعرع أمضى سنةً كرهينة في إستنبول نُقل بعدها لاستلام مركز (دفتردار : رئيس ديوان) في القاهرة فأبدى براعة في شؤون الرَّيع ، لكنه كان مُفرطاً في إدمانه على الخمر وجلِفاً مع الأشخاص المستخدمين عنده . وعندما شَن محمد علي باشا حملتَه الأخيرة ضد المماليك في مصر كان إبراهيم بك على رأس ثلاثمائة فارس . وقد اشتهر بأنه جندي جريء ، إذ انتهت تلك الحملة بقتل جميع المماليك الذين سقطوا في يد الباشا واختتمت بقتل وحشيٍّ لكل من سكن القاهرة وقرى مصر العليا منهم . ثم أُرسل لِجَمْع الريوع ، ولتحويل القرى إلى المزارعين الجدد بمساعدة عدد من الموظفين الأقباط الذين أفلحوا في اختلاس مبالغ طائلة ، وعندما عاد إلى القاهرة وجد أنه معين لقيادة الجيش الذي تقرر إرساله لطرد المماليك إلى ماوراء إبريم فنفذ هذه المهمة وعاد إلى أسْنة مع عدد من المساجين ورجال آخرين قبلوا حماية البك الشاب . وهنا فُصلوا عن بعضهم بعضاً ووضعوا في بيوت أشخاص متفرقين بوصفهم يخصون البك الشاب ، لكنه أرسل بعد فترة قصيرة أمراً من القاهرة إلى محمد أفندي (ابن الوزير الحالي لإبراهيم) ، وهو الآن بوظيفة (حامل الأختام) بأن يفنيهم عن آخرهم ، فأطاع الأفندي أوامرَ سيده وباشر الذبح فيهم بيده . وبعد هذه الإجراءات نُصِّب حاكماً عاماً لمصر العليا (عام ١٨٠٩) واحتفظ بمركز دفتردار . زاد خلال فترة حكمه من مقادير الريوع وفقاً

لأوامر أبيه وأنفق مبالغ طائلة من أجل تطوير الثقافة وتوسيع رقعة انتشارها . لكن جميع تصرفاته اتسمت بالعنف والقسوة في حفاظه على النظام ، ففي إحدى المناسبات أمر البك الشاب بأن يشوى أحد الأقباط على سَفّودٍ ، واتهم أحد القبط بالاختلاس فأمر بجمع كومة من القش والخشب المقطع المغمور بالمازوت وتقدم (الخوجا سليمان) فأضرم النار بالكومة بمساعدة أحد جلاديه . ولسوء الحظ أن هذه الوحشيات لم تكن مقصورة على أشخاص مرتكبين لجُنْحات معينة بل امتدت في عدة مناسبات حتى وصلت إلى المقربين من أسرته ، ولو أردت أن أروي عن المجازر الكثيرة اللاإنسانية التي تكشفت لي مع تفصيلٍ لدقائق ظروفها وأسماء الأشخاص المتورطين فيها لازداد هذا الكتاب إلى حجم هائل .

وفي عام ١٨١٣ نُصّب إبراهيم بك (باشا ذو حاشيتين) وعُين للخراج ، وقيل إن قسوته في تصرفاته تعود إلى المسؤولية التي حملها في هذا المنصب وأمله في الحصول على ترقية في المستقبل ، فهذان الأمران أثرا بشكل حساس جداً على سلوكه . كان مدمناً على الخمر واللهو ومتابعة الزي الأوروبي فيضع زجاجة الخمر والكأس على طاولته وتراه متداعياً على كرسيه لكنه كان يتحرى أقصى ما يمكن من السرية في أمثال هذه الشؤون .

وفي عام ١٨١٥ عين قائداً للجيش الذي تقرر أن يشق طريقه داخل شبه الجزيرة العربية وكانت المجموعة الأولى من الجنود قد وضعت نفسها تحت تصرفه بصفتهم متطوعين . لكن العدد لم يكن كافياً لذلك أصدر أمراً نصحه به إبراهيم[1] (وكان حينئذ وزيره) يمنع أي عسكري من استلام أمر إعفائه من الخدمة وإجبار جميع الجنود على المتابعة . وكانت الخطوة التالية تغيير سُرُجِ خيل الفرسان واستبدالها بأمثال تلك التي يستعملها المغربيون أو البدو الأجانب لتحل

---

(١) فرّ هذا الرجل سراً فيما بعد واستخفى ، واستبدل بالوزير الحالي سليمان آغا .

محل السَّرْجِ المملوكي المستعمل في القاهرة ، ثم استبدلت هذه ثانية بسُرُج رومانية ، لكنها بقيت دون استعمال واستبدلت بسرج من الطراز البغدادي ، كما أجبر كل جندي معه حصان على أن يتزود بجمل لنقل أمتعته ولاحتمال أن يحتاجه للركوب في بعض الأحيان لأن الحصان المصري لا يتحمل المشقات ومشيته بطيئة لاتؤهله إلى أن يرغب به العرب ، وكان من الضروري أن تكون الجياد في أعلى درجة من النشاط في جميع مراحل المسير . وبما أن الحكومة لم تتحمل أيَّ جزء من تلك النفقات فقد كثر لغط الجنود على الباشا الذي عرضهم إلى نفقات لم يسبق لها مثيل .

وبعد إشراف سعادته على ركوب المشاة ومسيرهم في طريق قصير نحو ينبع عاد إلى القاهرة ليرتب أموره مع والده نائب الملك تاركاً فرسانه بالقرب من القاهرة على أُهبة الاستعداد للانطلاق وقد قرر منذ البداية أن يتوجه مائتان فقط من السويس إلى ينبع عن طريق البر بينما سلك سعادته طريق قصير ، وكان يشرف على خدمته بعض المماليك فقط ، ولدى دخوله أرض (محمد)[1] المقدسة صمم سعادته على اعتزال اللهو والمسكرات فأهدر كل ما كان مختزناً عنده منها مما أتى به من القاهرة ، وكان ذلك قبل انطلاقه نحو المدينة .

أمر الباشا بأن يقام معسكره في ميلقا بالقرب من ينبع حيث بقي الجند بانتظاره هناك مدة أربعين يوماً يترقبون دعمهم بالجمال وغيرها من قبيلة جُهينة البدوية والتي تحتل الجبال الممتدة من المدينة إلى ينبع مع قبيلتي ميمون (من حرب) وعوف (من حرب) وحتى مكة من جهة الجنوب ، فاضطر أخيراً إلى إرسال قوة ضد أول قبيلة منها فوضعت يدها على ألف من جمالها وساقت ألفي رأس من أغنامها وقتلت مائة وخمسين من رجال القبيلة بينما جُرح اثنان فقط من مجموعة الباشا .

---

(١) ﷺ .

فمن هذه الواقعة وحدها يستطيع المرء أن يخرج بتقييم عن عدم التوازن بين الطرفين .

أمر الجيش المؤلف من مائتي فارس تركي ومائتي فارس بدوي مغربي وتسعمائة من المشاة بالإضافة إلى ثلاثة مدافع بالتحرك نحو الحناكية والتحقت به مجموعة أوزن علي المؤلفة من أربعمائة فارس ماهر كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون قيادة منفصلة في ظل قائدهم الذي يعتبر ضابطاً بارزاً ، وقد سبق له أن تعهد حماية المدينة بمساعدة بعض الجنود الآخرين وذلك عندما غادرها طوسون باشا متوجهاً إلى مصر . فقدت قوات الباشا حوالي أربعمائة من رجالها خلال إقامتها في ميلقا بسبب رداءتها من الناحية الصحية . فهي تشبه ينبع في جوها . ثم أرسل الباشا بعد إقامته خمسة وعشرين يوماً في الحناكية قوة ضد قبيلة حرب فسلبت منها ألفاً وخمسمائة جملاً واستاق الجنود ستة آلاف شاة وكميات كبيرة من التمر .

رأى كثير من شيوخ البدو أن يندمجوا مع الباشا خوفاً من قسوة رجاله الساعين إلى النهب وعندما اتحد الباشا مع أولئك العرب أرسل كتيبة أخرى ضد قبيلة عتيبة التي تحتل ما بين الدرعية ومكة من الصحراء ، وعندما وصلتهم أخبار عزمه على الإغارة عليهم لجأوا إلى الفرار واستاقوا معهم الأغنام والجمال ، لكن سبعين شخصاً منهم وقعوا في الأسر بين يدي الباشا المغضب الذي استهل ذبحاً بأولئك التعساء بسيفه الخاص الضالع ، فقد كان هذا الإخفاق حاسماً بالنسبة للأتراك الذين عانوا شقاءً كثيراً وهم في طريق عودتهم بسبب النقص في الماء والمؤن ، إذ كانوا يتوقعون أن يحصلوا على كميات كبيرة منها بنهبهم خيام البدو الذين سبقوهم إلى الآبار فسدّوها وأتلفوا كل شيء لا يطيقون حمله .

تلقى الباشا وهو في طريق عودته إلى الحناكية خبر تعيينه باشا بثلاث حواشي لأنه حاز لقب باشا جدة بعد وفاة أخيه طوسون ، فصار من الضروري أن يعود إلى المدينة ليستلم المعطف المزركش بالفراء ويعلن هذا القرار ، كما التقى

بـه وهو في طريق عـودتـه إلى الحنـاكيـة شيـوخ قبيلـة عنيزة مـع رجـال كثيرين آخرين حيث تعاهدوا على ميثاق أمن متبادل ، لـذلـك شَيَّـد سعـادتـه مستودعـاً للذخيرة في هذه المنطقة .

كانت المغامرة التاليـة موجهـة إلى عرب جبل شمر حيث شكل من أجل هـذا الغرض كتيبـة مؤلفـة من ستمائـة فـارس تركي عُينوا حراسـاً للمؤخرة ليـدفعوا قوة قوامها ألف بدوي على الخيل وخمسة آلاف بـدوي يمتطون الجمـال نحو الأمـام ، وهم مجموعـون من تلـك القبـائـل التي التحقت بـه . ونظراً لأن البـدو كانـوا يشكلـون طليعة الجيش فقد قتل منهم مائتان وجرح ثلاثمائة وفقدوا عدداً كبيراً من خيولهم وجمالهم ، بينما لم يقتل من الأتراك سوى خمسـة ولم يجرح سوى عشرة . لم يكتسب الأتراك سوى اليسير من الناحية المادية في هذه الحملة ، فإذا أَلحَقتْ إلى اسم الباشـا موجة رعب أخرى تيقن البدو بأنهم قد خدعوا بشكل فاضح .

وعندما احتج شيوخ العرب على هذا التصرف أمر البـاشـا أوزن علي مع جزء من قواته ومدفعين بالتقدم إلى ماوية لإرهاب جماعة الوهابيين الذين بدأوا بمهاجمة مخيمات أولئك البدو . أرسل شيخ قبيلـة مطير ـ الـدويش الواقعـة إلى الشرق من عنيزة اقتراحاً إلى الباشا يعبر فيه عن رغبته بعقـد اجتماع معـه في مـاويـة فتوجـه سعادته إلى هناك وبينما هو في الطريق وصله خبر عن حصول معركة قتـاليـة بين قوات أوزون علي والوهابيين الذين هُزِموا هزيمة منكرة في تلك البقعـة ، سُجلت في اليوم الثاني من كانون الأول ، ووصل البـاشـا في الوقت المنـاسب فقـط ليقضي على حياة السجناء الذين سقطوا في أيدي رجـال المنتصر ، وبهـذا زاد عـدد الآذان التي رغب سعادته في إرسالها إلى القاهرة تَقدِمَةً لمعـاليـه ، إذ جعلتهم صعوبـة نقل الرؤوس يستبدلونها بأزواج من الآذان ، وقد ذكر أن عدد الوهابيين الـذين ذبحوا تجاوز عدد جنود أوزون علي . وفي هذا اليوم تقرر مصير عبد الله لكنـه هرب إلى الرس ومنهـا سلـك طريـق عنيزة ثم إلى الـدرعيـة ، ولم يظهر ثـانيـة على مسرح الأحداث .

جمع الباشا كل قواته في ماوية بعد أن تلقى بعض التعزيزات فوصلت إلى ألف وأربعمائة من المشاة وستمائة فارس وثماني قطع مدفعية عادية ومدفع قاذف ومدفع هاون ، بالإضافة إلى مائة رجل مختصين بسلاح المدفعية ، كما يمكن أن يصل عدد المشاة إلى أربعمائة أو خمسمائة وأرسل ضابطاً إلى الفرسان القادمين من القاهرة ليبلغهم أمرَ التحاقهم بالجيش .

أرسل شيخ (مطير) ابنه ليهنئ الباشا بالانتصار الجديد ، فرُتبت الأمور بينهما وأسفرت عن التحاق هذا الشيخ بالباشا حيث استقبل بكل علامات السمو والتشريف . كان الباعث الذي دفع الشيخ إلى الاندماج مع الباشا ضد عبد الله باعث حزازة أو كراهية ناتجة عن قتل عبد الله لإثنى عشر شيخاً أو مسناً من قبيلته وهم من أقارب الشيخ الحالي (١٤) . وعندما أصبحت الجمال والمساعدات بمختلف أنواعها غزيرة وفائضة عن الحاجة باشر الباشا بنقل المستودعات والمؤن إلى الأمام واستعد لمحاصرة رَسْ . وقد قام سعادته خلال فترة الراحة هذه بانتزاع مؤن إحدى القبائل الصغيرة التي تنضوي تحت الاسم العام لقبائل عنيزة ، وكانَ ذلك أن هذه القبيلة أُمرت بالتجمع والالتحاق بالباشا ، وقد أُعطوا مهلةً مقدارها ثمانية أيام ، لكن هذه الفترة كانت قصيرة جداً بالنسبة للمسافة التي شرعت في قطعها ، وقد قيل : إن هذا الكلام حق وعادل ولكنه لم يُقبل كحجةٍ مقنعة ، وقد التقى سعادته بالقبيلة وهي في طريقها للالتحاق به ، على الرغم من ذلك حرمهم من كل مالديهم من أغنام ووزعها على الجنود الذين وصلوا مؤخراً من القاهرة .

وغذ سعادته السير مع قواته حتى وصل تلك البلدة التي قال : إنه مصمم على أن يستولي عليها قبل أن يعطي إذنه بإقامة معسكره وقبل أن يترجل فرسانه عن خيولهم ، لذلك أمر (طوبشي باشي) بدفع سلاح المدفعية إلى الأمام حتى يصل إلى بُعد ثماني خطوات عن الأسوار وأن يباشر الرشق المدفعي باتجاه أقوى المعاقل .

ونظراً لكون جنوده مكشوفين ولتعرض رجال المدفعية إلى رشق كثيف من نيران الأسلحة الخفيفة فقد تجاوز القتل في الأتراك عشرة أضعاف ماقتل من المحاصَرين الذين دافعوا عن المدينة بمعنويات عالية . مرت ثلاثة أيام وسعادته يرشق نيران مدفعيته على هذا المعقل وعلى السور المحاذي له والذي ذُكر أخيراً أنه خُرق ، أَمر بالهجوم ، ولكي يتمكن المشاة من عبور الخندق أمر بصنع حزم كبيرة من عيدان طويلة لفروع أشجار النخيل وملء عدد من الأكياس بالقش . تم انتقاء ستمائة من المشاة من أجل الهجوم ، فرمى هؤلاء الرجال بأنفسهم في الخندق ، لكنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا إذ تبين أن حزم العيدان والأكياس لم تكن كافية وفتح العدو ناراً مدمرة من فوق الأسوار على الجنود وعلى المواد السريعة الاشتعال التي تحيط بهم ، وصار الباشا بمعاونة مماليكه يرمي بالرصاص كل جندي يحاول الانسحاب . وكانت نتيجة ذلك أن عانى المشاة التعساء من خسائر فادحة . وقد أصدر أمره بحرمان أولئك الذين قتلوا من حقهم في الدفن بسبب تأجج غضبه من الهزيمة . وامتد حصار رَسْ ثلاثة أشهر ونصف ، وهي فترة أبدى فيها وهابيو رَسْ فناً وعِلماً أكثر مما أبداه القائد التركي . كلفت بطاريات المدفعية التي شكلها الباشا (اثنين وخمسين ألف كراون ألماني) ، واستهلكت أحمال أربعمائة جمل من ذخيرة البنادق لإطلاق النار إلى داخل البلدة ، ورمى رجال المدفعية ثلاثين ألف قذيفة بلا جدوى . شيدت منصات من أشجار النخيل إلى ارتفاع مناسب يمكّن الجند من الرمي إلى داخل البلد وقُرّب المدفع بحيث لامس حافة الخندق . ثم جربوا هجومين آخرين لكن عدوهم استطاع أن يصدهم في المرتين ويُفقدهم عدداً كبيراً من الرجال . وعندما رأى الباشا أنه عاجز عن إنجاز مهمته اضطر أخيراً إلى الدخول في مفاوضات وإلى رفع الحصار . لم يُسمح لأي جندي من جنوده بالتغلغل في المدينة ، وسمح لهم بشراء كل مايحتاجون إليه من السكان ، بينما تبقى الرس في حالة حياد إلى أن يتقرر مصير عنيزة . قتل في هذه المعركة تسعمائة تركي وجرح ألف وآلت بهم الأمور إلى محنة شنيعة . أما المحاصرون من سكان الرس فقد

فقـدوا خمسين قتيلاً فقـط وسبعين جريحـاً . وحـالف حـظ طيب حـاميتين كانتـا تنقلان كميـات كبيرة من المؤن بـالوصول بسلام ، وهـذا يـدل بـلا شـك على قلـة اليقظة والاحتراس من جانب الأتراك لأن المنطقة منبسطة ومكشوفـة بكاملهـا ، وقد أكد سكان رَسْ أن التراب الأصفر الذي شيدت منه أسوارهم يتميز بـالالتصـاق والتماسك السريع إلى درجة أنَّ قنابلهم لم تؤثر فيه . (١٥)

التفت سعادته بعد ذلك إلى (الخبرا) التي استسلمت بعد حصـار يوم واحـد وسار من هناك باتجاه عنيزة التي ترك فيها عبد الله موقعاً عسكـريـاً ، ونظراً لأنـه ولّى إلى درعية فإن مشايخ بلـدة عنيزة دخلوا في مفـاوضـات ، لكن حصنهم كان قد نسفَ بالمـدفعيـة فـانـدلعت النيران في مستودع للـذخيرة كان مُصمَّماً فوق أحـد الأبراج ممـا فسح لهم الـدخول بسهولـة إذ استسلم المـوقـع العسكري وسُمـح لمن فيـه بالمغادرة مع السلاح والمتاع ، وقد استغرق هذا الأمر خمسة أيام .

ضَرب بعد ذلك حصاراً على بريدة فاستسلمت خلال ثلاثة أيـام كان يـدعى شيخ هذه المدينة (حجيلان) وهو في العـام المـائـة والعشرين من عمره وذكر أنـه كان لمشورته وزن عند الوهابيين لكن تقـدمـه في السن وضعف حـالـه حـالا دون تمكنه من إقامة متراس في وجه الباشا ، وكان الوهابيون يزدادون تشاؤماً يوماً بعد يوم وزاد من فزعهم انسحاب عبد الله إلى الدرعية حيث بقي فيها مغلِقاً بابه دونه وخامداً لا يقوم بأي نشاط ، ثم استسلمت جميع القرى التي في هذه المقاطعة .

بقي الباشا شهرين في هذه المنطقة ينتظر التعزيزات ليتمكن من التقدم نحو شقرا ، وعنـدمـا اقترب من هـذه البلـدة بـاشر من اليوم الثـاني بقطع مزروعـات النخيل ، الأمر الـذي دفع السكان إلى إبعـاد خيراتهم عن موقعهم العسكري الـذي أُجبر على الاستسـلام تـــاركين أسلحتهم وأمتعتهم في الحصن ، وقـــد سمـح لهم بالرحيل . ومكث البـاشـا في هـذا المكان في حـالـة ركود مـدة ثلاة أشهر ينتظر التعزيزات والمؤن .

تحرك بعد ذلك إلى ضرما التي كانت في درجة عالية من الازدهار وهاجمها في اليوم الرابع ، وقد صُد في بداية الأمر لكنه احتل المدينة . التجأ ثلاثمائة من الموقع في بيت ثم استسلموا وسمح لهم بالرحيل بلا أسلحة تحت إمرة زعيمهم المسمى سعود وهو خال عبد الله . وهنا عاد مزاج الباشا إلى ما كان عليه من ميل مألوف إلى الغضب ، فقد استخدم الجنودَ سبعة أيام كاملة في تذبيح سكان هذا البلد ، وقدمت لهم المكافأة المعتادة ومقدارها أربعة كراونات ألمانية لكل زوج من الآذان يقدم في هذه المناسبة ، وقد سنحت الفرصة لكثير من الجنود أن يملؤوا جزادينهم دون أن تمتحن شجاعتهم ، حتى أن الباشا نفسه كان يُظهِر مهارته في إطلاق نار مسدسه كما كان يفعل أبخس جندي .

أختتمت هذه الأفاعيل في بداية شباط (فبراير) عام ١٨١٨ حيث كان الطقس بارداً والأمطار تهطل بغزارة .

استعد سعادته للهجوم على الدرعية وأرسل أوامره إلى التعزيزات التي كانت على الطريق للالتحاق به ، وكانت تتألف قواته من مدفعَيْ هاون ومِدفع سويدي قصير ومدفعَ قاذف ، وأربع قطع مدفعية خفيفة زنة إحداها خمسة كيلو غرامات وخمس بنادق تركية وواحد وخمسين رامي بندقية ومائتي مهندس وواحد وعشرين فنياً وأحد عشر زَرّاعاً للألغام ، ووصل العدد الإجمالي للمشاة إلى أربعة آلاف وثلاثمائة بينهم ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون من الأرناؤوط والباقي أتراك ، ووصل عدد المغاربة أو الأجانب إلى ألف وثلاثمائة رجلاً ، كما وصل فيلق أوزون علي إلى أربعمائة وفيلق رشوان آغا إلى ثلاثمائة ، يضاف إلى هذا كله الخيول الأجنبية التي تصل إلى أربعمائة ، وكان مجمل تعداد الخيل ألف وتسعمائة وخمسون .

الفرسان ، الأتراك والأرناؤوط التابعون للباشا	٨٥٠
الفرسان ، التابعون لأوزون علي	٤٠٠
الفرسان ، التابعون لرشوان آغا	٣٠٠
	———
	١٥٥٠
الفرسان ، الأجانب	٤٠٠
	———
	١٩٥٠
المشاة ، أرناؤوط	١٧٢٥
المشاة ، أتراك	٢٥٧٥
	———
	٤٣٠٠
المشاة ، أجانب	١٣٠٠
	———
العدد الإجمالي	٥٦٠٠

استُهل الهجوم على الدرعية من جهة الشمال أو بالأحرى من قرية تسمى فيزل التي تتكون من حدائق متناثرة مع البيوت ومحمية بسور وأبراج . وقد تم احتلال هذه القرية بعد سبعة أيام حيث أُجبرت قوات عبد الله على الالتجاء إلى السور الذي فصل قرية (فيزل) أو (جنين الفيزل) عن أوسع تقسيمين من تقسيمات درعية . ارتاح الباشا عدة أيام في هذا المكان مما فسح للأعداء فرصة تقوية أنفسهم في هذا الموقع الجديد ، الأمر الذي كلف الباشا جهود سبعة أشهر . وقد حصل حادث خطير في جانب الباشا ، فقد نُسف مستودع أسلحته وبقي جنود المدفعية بلا ذخيرة مدة تقارب الشهرين . أما القرى المجاورة لدرعية فقد تهيأت للتخلص

من هذا الرباط عندما رأت أنه قد طال فأمرت جنودها بالانتشار ليبقوا خاضعين للمراقبة لكنهم مع ذلك تراجعوا عن جزء كبير جداً إلى درجة أنه لم يعد بإمكان من تبقى منهم تغطية هذه المسافة الواسعة وتطويقها فوجد الباشا نفسه مرغماً على بدء الهجوم فأمر جنوده بالهجوم على أحد جوانب (طريف) ومن حسن حظه أن العدو توقع الهجوم من الجانب المقابل ، ويسمى سَيْل حيث استعد للمقاومة هناك ، فتقدمت جنود الباشا وربحت طريف دون إطلاق رصاصة واحدة . وقد كان هذا الظرف مواتياً للغاية . ذلك لأن القسم الأعظم من فرسانه مرَّ عبر الوادي الضيق الشديد الانحدار الذي يعتبر فخاً لكل عدو . كانت المقاومة من جانب سَيل أكثر عناداً ، فقد صمدت هذه البلدة ثلاثة أيام لكن المهاجمين نجحوا أخيراً لأنهم أكثر عدداً . وعندما كسب الأتراك مدينة فيزل هاجر عدد كبير من عرب درعية ولم يعودوا إليها ثانية . وأصبحت قوات عبد الله ضعيفة من ذلك التاريخ إذ بقي معه خلال هذا الهجوم الأخير ألفان من الآلاف الأربعة الذين بدأوا مقاومة هجوم الأتراك فاضطر عبد الله للتراجع إلى المكان الوحيد الذي بقي أمامه وهو حصن أسرته الواقع على أحد أطراف (طريف) حيث اعتصم هناك مع مائتين من رجاله ، وهم فلول قواته ، وفي هذا المكان تحملوا قذف قنابل الباشا ثلاثة أيام ثم طلبوا المفاوضات .

وعندما قام عبد الله بزيارة الباشا وضع عدة شروط للتفاهم ، فطلب العفو عن الجنود الذين بقوا مخلصين معه بالإضافة إلى إخوته وأسرته على اتساعها ، والحفاظ على المدينة وسلامة شخصه بالذات . تكشف سلوك الباشا طيلة فترة هذه المقابلة عن قمة في الغطرسة على الرغم من أنه لم يَهزِم بشكل كامل بعد . أما الأمور التي وضعها الباشا فكانت : العفو عن الجنود وعن إخوته وأسرهم ، أما المدينة فلا يعطي أي تعهد تجاهها ، وأما بالنسبة لسلامة شخص عبد الله فإنه يتعهد سلامته حتى تاريخ وصوله إلى القاهرة . (١٦)

عاد عبد الله إلى حصنه ليفكر ملياً بهذه النذارات[1] التي كتبت عليه في مستقبل أيامه . وفي الرابع من أيلول ١٨١٨ سلم نفسه ليدي الباشا .

تجهز عبد الله وأسرته من أجل الرحيل إلى مصر وتمّت ترتيبات إرسالهم إلى هناك . وقد تلقينا تقارير عن مصير عبد الله ونحن في الهند . لكن أحد أبنائه فكر في الأمر وهو في الطريق وتيقن أن الشقاء يتربص به وبالمجموعة كلها فعزم على أن يخلص نفسه واستطاع تدبير أمر هروبه خلال المسير ، ولم يُكشف غيابه عن الركب حتى اختفى كل أثر للطريق الذي سلكه ، فقال بعضهم إنه اتجه شمالاً وقال آخرون إنه فرَّ إلى الجنوب والتحق بالبدو الموجودين عند حدود اليمن ، وهم مجموعات لا تزال تحافظ على أواصر صداقة مع الوهابيين . وقد حققْتُ في أمر هذا الرجل مراراً لكني لم أستطع الوصول إلى أية معلومات ، وأكد البدو جهلهم التام لموضوع هروبه خيفة أن يَطْلبوا منهم تعريفهم بالمكان الذي لاذ إليه ، ولم يكن الأتراك يتطرقون إلى هذا الموضوع مطلقاً في أحاديثهم بل طُمس بشكل كامل ولم يرسل أي تقرير عنه لمحمد علي باشا . وقد أنكره إبراهيم لأنه لم يكن يرغب في أن يُحتجز في هذه المنطقة للقيام بمهمة مطاردته ، وحيثما طرح هذا الموضوع في جلسات السمر الخاصة وصف هذا الرجل بأنه أحمق ومعتوه بهدف تخفيف عواقب انتقاد هذا الحدث الذي بدا لي في غاية الأهمية[2] .

لو أن عبد الله فرَّ من درعية وتباعد أفراد عائلته لتوجب على الأتراك أن يبقوا في الجزيرة العربية وينتشروا على شكل مجموعات صغيرة لاقتفاء آثارهم ولكان نجا بعضهم بعد أن يكون الأتراك قد استُنزفوا . كان جميع أفراد هذه

---

(١) النذارة : عكس البشارة ، جمعها نذارات . (المترجم)

(٢) الذي فر هو مشاري بن مسعود شقيق عبد الله وليس ولده وقد هرب من المعسكر عند الجديدة بين المدينة المنورة وينبع وعاد إلى الدرعية ودعا لنفسه ، لكن غدر به محمد بن معمر الملقب بالأعرج وسلمه للعسكر ومات في سجن عنيزة وقيل في العراق .

العائلة مدركين تمام الإدراك أن مصيرهم سيتقرر في اللحظة التي يسقطون فيها بين يدي الباشا . وإنه ليبدو أن هذا الذي يطلق عليه اسم الأحمق هو الرجل العاقل الوحيد بين أفراد أسرته .

ظهر اعتراض على هذا الرأي الأخير بحجة أنه لم يكن أفراد هذه الأسرة يتوقعون أن يحميهم بدو الجزيرة العربية من اللحظة التي قضي فيها على نفوذهم لأن البدو كانوا مكرهين على اتباع تلك العقيدة ، أو أنهم على الأغلب موالون إليها طالما أن الطائفة التي تعتنقها لاتزال قوية ، أو تبعوها من خلال تشوّفهم إلى غنية ، فبسبب هذه الصفات الخاصة التي تميزوا بها استطاع سعيد أن يصل إلى الحصول على منفعة مستمرة منهم فصار نادراً ما يسمح لهم بالبقاء خاملين لأن إهمالهم يعود بالضرر على قضية عبد الله الذي حصر نفسه بشكل خاص ضمن الحصون والمدن عوضاً عن أن يطبق على مؤخرة القوات التركية ويمنع عنهم المؤن لكن أفدح خطأ ارتكبه بدا في تقديمه لهم تلك الضحايا في معركة ماوية .

عندما أُزيحت دعائم العقيدة الوهابية من الجزيرة العربية صرح بدو نجد وكل أولئك الذين اجتمعتُ بهم من البدو دون استثناء أنهم على مذهب أهل السنة ، وهم حريصون جداً على عباداتهم ولا يهملون أياً من الصلوات المفروضة مهما كان المسير طويلاً في أسفارهم وتحت أشق أنواع الحرمان والعوز . ويظهر تناقض غريب عند مقارنة هؤلاء البدو مع الأتراك الذين يتسمون بثقافة روحية أكثر لكنهم لا يسمحون للدّينِ أو للصلوات أن تتعارض مع راحتهم واطمئنانهم أبداً .

ألمحتُ آنفاً أني التقيت مع بعض الأشخاص الذين لا يزالون يجاهرون بأنهم على تلك العقيدة في منفوحة والرياض ، وهم بقايا سكان درعية السابقين ، لا العرب البداوة ، وكان عددهم ضئيلاً . وقد عرفت منذ ذلك الوقت أن (القشيف) قد فكر ملياً بالدمار الذي لحق بتلك المدن خلال فترة تأخرنا

الاضطراري في ذلك المكان . وقد منعه المصير المشكوك فيه لمدينة سلمية من أن يضع أهدافه موضع التنفيذ ، وعندما التحقت تلك المجموعة تحرك بأقصى مالديه من سرعة ليلحق بالباشا يدفعه خوف مستمر من أن يُترك لقدره فيحاصَر ويُعزل . أما الباشا فقد قام بخلاف ماوعدَنا به عندما انفصل عنا وانطلق نحو (الرس) ، ومن هناك إلى المدينة المنورة .

وعندما تمكن إبراهيم من وضع يده على الدرعية دخل القلعة ودخل بيت عبد الله مع بعض خدمه الموثوقين ولم يسمح لأي فرد من عائلته أن يحمل شيئاً يمكن نقله إذ كان يتوقع بلا شك أن يجد بعض النفائس ، الأمر الذي اعتقد أنه خاب أمله به . ويُعتقد أن مجموعة هائلة من الكتب قد كُدست وأرسلت إلى المدينة المنورة ابتهاجاً بالنصر ، ليفحصها المختصون في العلوم الدينية قبل السماح بقراءتها .

سُمح للجند بدخول مدينة الدرعية وانتقاء أحياء ينهبونها لأنفسهم ويسيؤون للسكان القلائل الذين بقوا فيها حرصاً على بيوتهم وحدائقهم . وقد قبض الباشا على الأشخاص الذين شك في أنهم أخفوا أموالهم وثرواتهم واستطاع بلجوئه إلى أنواع مختلفة من التعذيب والبراعة في الخِداع أن يحصل على مبالغ كبيرة .

وإن إحدى الوسائل التي اتبعوها لاكتشاف الرجال الأثرياء الجديرة بالملاحظة[1] رد الباشا الأراضي التي كانت في يوم من الأيام تابعة للمساجد

---

(١) يتوقع أن إمام مسقط قد ألمح إلى هذه الأحداث خلال نقاشه في مايو (أيار) ١٨١٩ على الرغم من أنه لم يكن بعد مطلعاً على دقائق الأمور . وعندما وصلت إلى بوشير روى لي الفرس رواية تختلف كثيراً عما سمعت في مسقط من قبل . فكان في الرواية الأولى حرص على إظهار شخصية الباشا بأقبح صورة ممكنة بينما مجّدتِ الثانية بنزاهته في إعادة توطين قبيلة بني خالد وتسويدهم في الأحساء طامسة الظروف التي دفعت الباشا إلى القيام بهذا العمل . كان الفرس يُسَرّون في الخداع ، حتى في خداع آرائهم الخاصة في سبيل اختلاق حجة مناسبة على أمل أن تتهيأ لهم بسببها حرية الوصول إلى مكة والمدينة فيما إذا عرفت عنهم . سادلير .

والمؤسسات الدينية على أشخاص[1] من مذهب أهل السنة ممن كانوا يبشرون بذلك المذهب ، كما اقترح إعادة الحدائق ومزروعات النخيل والأراضي الأخرى إلى أصحابها الأصليين دون أن يمسهم أذى بشرط أن يفتدوها بمال . وافق هذا البعض على الاقتراح فقبض عليهم الباشا وأجبرهم على دفع المبلغ مدعياً أنه متأكد من أنهم يملكونه وهو في حوزتهم وإلا فلن يوافق لهم على المنحة ، كان مدركاً تمام الإدراك أن أوامر الباب العالي اقتضت تدمير الدرعية تدميراً كاملاً وأن ما يمكنه أن يفعله إنما هو تأجيل التنفيذ إلى أن يُنشر الأمر بشكل علني فقط . وفي هذا الظرف رأى السكان التعساء أن يوفروا ثرواتهم ووسائل تأمين حياتهم للمرة الثانية فاستغل الباشا هذه الفرصة ليبتز منهم كثيراً من الأموال ثم دمر الدرعية تدميراً كاملاً فقطع كل شجرة نخيل في جوارها وأحرق كل جذع وكل عصا خشبية في بيوت السكان .

أما عمليات التقدم الأخرى التي قام بها سعادته حتى تاريخ مغادرته جدة فهي مذكورة بالتفصيل في اليوميات .

زار خليل باشا جدة خلال فترة إقامتي الاضطرارية هناك عندما كنت أترقب فرصة عودتي إلى الهند . وهو باشا ذو حاشيتين وتابع لأوامر محمد علي ، وكان قد أرسل جيشٌ تعداده (خمسمائة وألفان) من الأتراك والأرناؤوط تعزيزاً لإبراهيم الذي سبق أن طلب مزيداً من المساعدات في الوقت الذي امتد فيه حصار الدرعية ، ولم يصل هذا الباشا إلا بعد سقوطها حيث لم تكن هناك حاجة إلى خدماته ، ونظراً لأن الجنود قد أرسلوا عن طريق البحر الأحمر بتكاليف باهظة فإن محمد علي قد صمم على أن يستخدمهم ضد عرب أبو عريش الذين أفسدوا ولاء حكومة تهامة وجزء من اليمن . وقد سقطت في أيدي الأتراك بلدة

---

(١) الوهابيون من أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ولا صحة لمزاعم الأتراك الباطلة . المحقق .

قنفذة ولحية وأماكن كثيرة أخرى على الساحل ، كما تمكنوا من امتلاك أماكن كثيرة في الداخل .

وقد سُجن آخر زعيم يمني وهابي خلال إقامة هذا الباشا في جدة ، وهذا الزعيم هو محمود بن محمد . أُتي به مكبلاً بالأغلال إلى جدة ، ومن هناك أرسل بسفينة متوجهة إلى مصر ليمثُل بين يدي محمد علي .

وعندما تقلص الوجود الوهابي في اليمن وتهامة دخل محمد علي في محادثات مع إمام صنعاء الذي يعود الفضل إلى والده في تخليص هذه المناطق من الموالين للوهابيين . وقد كان من دواعي سرور الإمام الحالي أن يوافق على اقتراح ربما يفيده في استرداد الإقليم الذي لم يتمكن هو نفسه من تخليصه ، فقد بقي في حالة عصيان مسلح سنين طويلة . وكانت البنود الأخيرة تقتضي إعادة جميع المناطق الداخلية التي كانت تابعة بحقٍ للإمام السابق ، فكان على الأتراك أن يُخْلوا كومفيدة ولحية والموانئ التي كانوا يحاصرونها وأن يكفوا عن جميع الأعمال العدائية الأخرى .

وافق إمام صنعاء على دفع لَكٍّ واحد من الدولارات ضريبة سنوية . وقد طلب الباشا هذا الأمر انطلاقاً من خلفيتين اثنتين ، أولاهما كونه ادعى أن الأئمة السابقين كانوا يدفعون الضريبة للسيد الكبير إما مالاً وإما على شكل قهوة عن طريق سلاطنة مصر ، ثانيهما أنه دفع تكاليف حربية باهظة لاسترداد ما يقرب من مقاطعة كاملة لم يسبق لها أن دَفعت أي ريعْ منذ سنين طويلة لإمام صنعاء ، فوافق الإمام على الاقتراح الثاني لأنه رفع عن كاهله مخاوفه من أفكار الأتراك الذين يعتبر وصولهم تهديداً لاستقلاله ، والذين كان يذمهم ويكرههم مثلما كان يَذمُ الوهابيين . سحب خليل باشا ماتبقى من جنده وهم في حالة كبيرة من البؤس والمرض إلى مكة ، حيث أُمر بالتمركز هناك ، وكان يزور جدة بين الفينة والفينة .

جـدة ـ غمرني السرور بعـد ظهر اليـوم الثـالث والعشرين من كانـون الثـاني عندما رأيت مركباً إنكليزياً يقترب من جـدة ، حيث تبين أنـه الطراد الـذي عبر قُصير وهو الآن في طريق عودته إلى مخا . وكان قد حالفه سوء الحظ مما عـانـاه في طريقه ، لأنه لولا ذلك لاستطاع حمل مسؤولية اتصالي بـالسيـد صولـط الـذي لم أتلق منه جواباً على الرغم من أن الأشخـاص الـذين وجهت معهم رسـائلي أخبروني أنها أرسلت إليه مع أن رسائل كثيرة كتبت من قبل إبراهيم باشـا بعـد وصولـه إلى القاهرة قد وصلت إلى جدة .

وكان من دواعي سروري العظيم أن أسمع رأي معالي محمد علي باشـا بـالنسبـة لأحداث جدة ، وما هو الضوء الذي يرى من خلاله سلوْك ابنـه ، لكني لم أستطع أن أتـأكـد فيما إذا كان بـإمكاني أن أصل إلى مُخـا بواسطـةِنقلٍ أخرى وقبل إبحـار (أميرويلـز) . صممت ألاّ أُفـوت هـذه الفرصـة المـواتيـة التي تهيء لي عـودة إلى بومباي لأقدم تقريراً عن نتيجة مهمتي ، وأنا مدرك تمـامـاً أنـه لا يمكن أن يتعهـد ترتيب النقاط التي سيتم نقـاشهـا شخص أفضل مركزاً من القنصل العـام من أجل تكييفها .

وصل المركب أميرويلز إلى مخا في الحـادي عشر من شبـاط بعـد عبورٍ عـانى فيـه من عواصف شـديـدة ، وقـد اضطررنـا إلى التـأخر لأننـا كنـا ننتظر جواب الرسالة[1] التي أرسلت إلى صنعاء حتى الثامن والعشرين من آذار حين نشرنـا شراع المركب متجهين إلى الهند ، وقد وصلنا بومباي في الثامن من أيار (مايو) .

علمت لدى وصولي أن آخر رسـالـة تلقوهـا مني كانت تلـك التي وجهتهـا من

---

(١) أرسلت هذه الرسالـة إلى مخـا في الخـامس والعشرين من كانون الأول (سبتمبر) وينبغي لهـذه الرحلـة أن تنجز خلال ثلاثـة عشر يومـاً بشرط عـدم حصول أيـة عوائق ، لكن عوائق كثيرة برزت لتؤدي إلى التـأخير ، وقـد سُلِّمت مـذكرة دبلـومـاسيـة إلى الحكـومـة مرفقـة بنسخـة . (سادلير) .

الأحساء أما بالنسبة للحجاج الذين حاولوا عبور الصحراء في طريق عودتهم إلى الخليج فإن كثيراً منهم أهلكه الجهد ، وأما القلة الذين وصلوا فقد جُردوا من كل ما يملكون ، حتى من قمصانهم ، وعاملهم البدو بأسوأ أسلوب همجي . وكان خادمي من بين القلائل الذين وصلوا ، وقد جُرد من كل ما في حوزته : الرسائل ، الأوراق ، وكل ماسوى ذلك . أما البدو الذين أرسلْتهم من رس فلم يرسلوا رسائلهم نظراً لأنه لم يدفع لهم سوى جزء من أجور النقل لأن المبلغ المتبقي وهو الجزء الأهم يصبح مستحقاً للدفع في القطيف عندما ترسل الرسائل ، لكنهم كانوا واثقين من أن بقية الأجور ستدفع ، لذلك أميل إلى الظن بأنهم نُهبوا من قِبل بدو القبائل الأخرى الذين سيضطرون إلى المرور من مخيماتها .

وإني لأعتبر أن الأوراق التي سرقت من خادمي هامة جداً ، فهي تحوي أسماء جميع الأماكن التي مررنا بها ، مكتوبة بشكل صحيح وباللفظ العربي ، بالإضافة إلى أسماء القبائل وفروعها وبشكل أوضح هو عبارة عن بيان للقبائل الأصغر التي تشكل أَسَرُها القبائل الرئيسية الكبرى بالإضافة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بها .

كان هذا الرجل ينتمي إلى بوشير وهو من الشيعة . فبعد أدائه للزيارة في المدينة توجه إلى مكة على وعد بأن يلتحق بي في ينبع حيث يكون قد اعتبر حاجاً لإنهائه جميع شعائر الحج وهم مسؤولون شرعاً عن القيام بذلك . ويضمر الأتراك من الكراهية تجاههم مثلما يضمرون للمسيحيين ويعتبرونهم أرفاضاً . ومن سوء حظ خادمي أن سمع كلام (خانٍ فارسي)[1] سبق له أن قام بسياحة في مصر يحمل رسائل وهدايا لمحمد علي باشا من ملك الفرس ليطلب من محمد علي حماية الحجاج الشيعة الفارسيين . فرافقه خادمي إلى المدينة حيث فارق ذلك الرجل العظيم الحياة . ومن هنا تابع طريقه ليشق الصحراء ثانية إلى الخليج الفارسي

---

(١) لقب خلفاء جنكيز خان ، يلقب به الزعماء المحليون في بلدان آسيا الوسطى (المترجم) .

برفقة قافلة حجاج دفعت لإبراهيم باشا مبلغاً كبيراً ليؤمن لهم الحمايـة حتى يصلوا إلى حناكية ، وهو الموقع العسكري الأمامي للأتراك ، الذين لا يجـازفون بتخطي هذا الحد مقابل أية مكافأة يمكن أن تُعرض عليهم . فعاد الأتراك إلى المدينـة فوراً تاركين حجـاج بصرة والحجـاج الفرس لرحمـة البـدو الـذين بـاشروا بنهب أموالهم وتجريدهم من كل مامعهم . ولعدم تمكنهم من الاهتداء إلى طريق المـدينـة لم يعـد لـديهم خيـار سوى الخضوع والاستسـلام . استطـاع محمـد علي بـاشـا أن يلجـأ إلى الخداع ليجعل من نفسه شخصاً محترماً وذا شأن عظيم في العالم الإسلامي من بداية الفترة التي أصبح فيها حامياً لأرض محمد[1] المقدسة . وهو يتلقى أبلغ رسائل التملق كل عام ترافقها أنفس الهدايا من مختلف أمراء المسلمين ، حتى من الهند ، ومن أبعد الأصقاع الإسلامية . وقد أرسل جلالة ملـك بلاد فـارس عـدة رسـائل قبل تلـك التي أرسلت هذا العام أملاً في اكتساب امتيازات جيدة عنـد البـاشـا وليحصل من خلال نفوذه على موافقةٍ لبعض الأشخاص بزيارة المدينة بـاسمـه ، وليؤدوا نسكهم هناك ويقدموا العطايا والهبات عند ضريح الرسول[1] لكني أستطيع أن أؤكـد أن جلالتـه لن ينجح في الحصول على ضمان لهـذا الغرض . وبمـا أني أضمر لملـك الملوك أسمى درجـات الاحترام فـإني أنصحـه بـأن يطلب الخلاص عن طريـق (عليٍّ)[2] حيث ستقبل منه ماسـة وزمردة ويـاقوتـة وفيروزة عنـد ضريحـه بكل رضى ومن خلال شفـاعتـه تفسح أمـامـه فرصـة طيبـة لجعل المـدَدِ الإلهي يؤجل لـه زيـارة عزرائيل ، حيث يعتبر عطاء أي مقدار من المال مهما كان ضئيلاً عند ضريحه لدى اقتراب ملك الموت خيانة عظمى وإني لأخشى فيما إذا دار الزمان ووقع هذا الملـك المقدس في يدي محمد علي أن يكتشف في ذلك الوقت المتأخر أن الباشا كان واحـداً ممن هم أنشط وكلاء ذلك الملاك : عزرائيل ، وأمهرهم .

---

(١) ﷺ .

(٢) رضي الله عنه .

ملحقات

تعليمات

القسم السري

إلى الكابتن سادلير ،

سيـدي ١ ـ نظراً لأن الشريف حـاكم المجلس رأى أنـه من الضروري تكليف ضابط ، بمهمة إيصال رسالة سرية من سعادة النبيل الأعظم الحاكم العام إلى سعادة إبراهيم باشا (ابن باشا مصر) الذي يقود في هذه الآونة الجيش التركي المستخدم في الجزيرة العربية ضد نفوذ الوهـابيين المقيمين في السـاحل الغربي للخليج وللاتفـاق على الترتيبات الضرورية مع سعادته بهدف سحق ذلك النفوذ بشكل كامل فإن لي الشرف أن أعلمكم بما يلي :

نظراً للثقة العظيمة التي يضعهـا الشريف في حصـافتكم وتعقلكم فـإنـه قـد سُرَّ بأن يعهد إليكم بهذه المهمة .

٢ ـ سبق لعلمكم أن سعادة إبرادهيم باشا قد حالفـه الحـظ قبل أشهرٍ معـدودة مضت في السيطرة على درعيـة والقبض على سلطـان بن سعـود[١] زعيم الـوهـابيين الأول ، وأن سعادته تابع انتصاراته حتى شواطئ الخليج عـازمـاً ، كما هو معتقـد ، على إبادة قبائل القرصنة نتيجة للأعمال الوحشية التي ارتكبوها بحق رعايا البـاب العالي للدولة العثمانية ، ولسوء الحـظ أن هـذه الوحشيـات لم تقتصر على هؤلاء بل

---

(١) عبد الله بن سعود .

امتدت إلى دول أخرى على هذا الجانب من الهند . يرغب الحاكم العام من وراء إنجاز هذا الهدف أن يُعلِم سعادته بتأييد الحكومة البريطانية له ومساعدتها إياه ، لذلك هي تواقة إلى إجراء اتصالات مع إبراهيم باشا بغرض أخذ العلم من سعادته عن الطريقة المثلى التي يمكن أن تطبقها قواتنا العسكرية البرية والبحرية للانضمام إلى الجيش التركي بقصد تسهيل عمليات سعادته لمحو الجواسميين ولكي تُوجه إليهم العقوبة التي تستحقها تلك الوحشيات ، كما تستحق زيارة قواتنا طالما ترتكب مثل تلك الجرائم الفريدة من نوعها .

٣ ـ لاشك أنك ستكون سعيداً في إبحارك على متن طراد الشركة الموقرة المسمى (ثيتيس) حيث وجهت التعليمات إلى قائده باستقبالك ونقلك إلى أحد الموانئ الواقعة على الخليج والخاضعة للقوات التركية وربما يكون هذا الأمر ملائماً لك ومنسجماً مع المعلومات التي قد تتمكن من الحصول عليها في مسقط لتساعدك على القيام باتصال سريع مع إبراهيم باشا وأنه لدى مقابلتك لسعادته عليك أن تقدم له الرسالة المذكورة آنفاً مع السيف المعد لسعادته ، بالإضافة إلى رسالة من الشريف بحق صاحب الرئاسة تحمل عنوان سعادته ، والتي توجد نسخ عنها باللغة الإنكليزية واللهجات المحلية ، وقد وجّهت إليك هذه الرسالة لأحيطك علماً بذلك .

٤ ـ إذا كان سعادة إبراهيم باشا راغباً في الاستفادة من المساعدة البريطانية ، وهذا أمر قد يكون شبه مؤكد ، فإنه سيُجري مباحثات معك بكل رحابة صدر لبحث الخطط التي ربما يكون قد هيأها ، وأنت مفوض في أن تؤكد لسعادته أن الوقت قد يكون مواتياً للتعهد بإجراء عمليات من هناك بعد انتهاء الرياح الموسمية مباشرة ، وسنكون على استعداد لإرسال سفن حربية وقوات عسكرية كافية إلى الخليج للتعاون مع سعادته في إخضاع رأس الخيمة بحيث تعود بعد أداء مهمتها وتبقى المنطقة محتلة من قبل قوات الجيش التركي ، بالإضافة إلى أنه

ينبغي على سعادته أن يوزع قوات ذات كفاءة عالية لتخدم في تغطية الحصار .

٥ ـ إذا كان سعادته مخططاً للقيام بفتوح أخرى فإنه لن يكون من الضروري بالنسبة لك أن تعطي أي عهد عن الحكومة البريطانية لتأمين أية ضمانات لفتوح من هذا القبيل دون تلقي تعليمات أخرى من الحكومة .

٦ ـ ستسعى خلال إقامتك مع سعادته إلى التحقق من امتداد ومواصفات القوات التابعة لسعادته ومن مدى وطبيعة المساعدة التي يفكر في الحصول عليها من الحكومة البريطانية .

٧ ـ نظراً لضرورة زيارتك مسقط وأنت في طريقك إلى الخليج ، فإنك ستقوم عند نزولك في ذلك المكان بالتماس مقابلة مع الإمام تطلعه بها على طبيعة الاتصالات التي فوضناك بفتحها مع إبراهيم باشا ، وبنفس الأسلوب ستتحقق من معاليه عن طبيعة ومدى المساعدة التي يتمكن من تقديمها لتطهير موانئ القرصنة .

٨ ـ يَطلب مني رئيس المجلس أن أبلّغك معلومات عن نسخة من رسالة كتبها لمعالي الإمام وسترسل إليك النسخة الأصلية عنها قبل انطلاقك لإعلامه عن المهمة التي عهد بها إليك ، بالإضافة إلى نسخة عن رسالته الخاصة لمعاليه التي أرسلها في الخامس عشر من كانون الثاني مع خلاصة رسالة من الكابتن تايلور في مسقط مؤرخة في التاسع والعشرين من نفس الشهر .

٩ ـ ستسعى خلال سكناك في المخيم التركي بأقصى ما يمكنك من مراعاة لذوق الباشا ومشاعره إلى التحقق من أفكاره بالنسبة لمواصلة فتوحه على الشواطئ العربية من الخليج دون إظهار أي اهتمام محسوس بالموضوع .

١٠ ـ ستَجمع أيضاً كل ما يمكن من معلومات فيما يتعلق بطبيعة ومصادر المنطقة ، وأعداد وامتداد البلدان التي في الداخل ، وكذلك بالنسبة لأية نقاط ترى أنها ذات أهمية من ناحية كونها مرتبطة ببلد معروف على نطاق ضيق جداً كهذا .

١١ ـ بعد إنهائك لجميع خططك وحصولك على هذه المعلومات من سعادته ـ وهي المعلومات التي ربما يرى أن من مصلحته نقلها إلى سعادة الحاكم العام أو لرئيس المجلس ـ ستعود إلى هذا المكان وأول عمل تقوم به هو إيضاحك للضابط المسؤول عن سفن جلالته وسفن الشركة الموقرة المستعملة في الخليج وعن الخطط التي يحتمل أن تكونوا قد اتفقتم عليها ، فلعله يتمكن من تنظيم مخططه لتعزيز الإجراءات التي ربما سبق تقريرها من أجل بلوغ الأهداف التي تبادلنا الرأي من أجلها .

١٢ ـ يَسُر الحاكم أن يسمح لك بسحب مبلغ ثمانمائة روبية كدخل شهري خاص بك خلال إقامتك بهذه المهمة اعتباراً من أول الشهر الجاري ، كما عليك أن تسجل نفقاتك بكل دقة إذ يتوجب عليك أن تكون حريصاً على تحديدها ضمن أضيق ما يمكن من حدود .

١٣ ـ أُطْلِعَ المندوب السامي في بوشير والمندوب السامي في بصرة على مهمتك الموجهة إلى المعسكر التركي وأُمرا بأن يقدما لك أية مساعدة ربما تحتاجها ، فادن من ذينك الضابطين بطريقة مناسبة ، إذ ربما تجد ذلك الأمر عملياً جداً وملائماً من أجل اعتماداتك المالية الأساسية لمواجهة نفقاتك .

١٤ ـ هُيئت مجموعة من الهدايا من أجل الضباط الأتراك الذين يُتوقع أن تلتقي بهم في طريقك والذين يمكن أن يساعدوك خلال تقدمك لدخول المعسكر التركي والخروج منه . كما ينبغي عليك أن تحتفظ بخط الرجعة فتدون أسماء الأشخاص الذين قدمت لهم الهدايا ، فإذا لم تجد مناسبة للتوزيع أرسل ما تبقى منها إلى المستودع لدى عودتك إلى بومباي .

توقيع : نيونهام

وظيفته : السكرتير الأول

قلعة بومباي ، ١٣ نيسان (أبريل) ١٨١٩

نسخة

إلى إبراهيم باشا ،

كتبت في ٢ كانون الثاني (ديسمبر) ١٨١٩

سررت لدى اطلاعي على المعلومات التي وصلتني موخراً عن النجاح الرائع للقوات المسلحة التابعة للإمبراطورية العثمانية حسب التوجيه الخاص لسعادتكم . وبما أني علمت تفاصيل استيلائكم على درعية فإني أغتنم الفرصة وكلي شوق إلى تهنئتكم على الجرأة المُتَّقدة والتصميم الثابت اللَّذين تميز بها جيشكم في مسيره بهذا الشكل المبكر والمشرف الذي أسفر عن النتيجة التي تدعو إلى الفخر المتمثلة في الهزيمة التامة والدمار الكامل لدولة ذات سيادة عقب تألقها السريع وغير المتوقع الذي رقى بها إلى منازل عالية جداً ، حيث تُرك أمر إذلالها لسعادتكم . إن الخلفية التي تكمن وراء تقديمي هذه التهاني لكم وعهدي بكونها مفعمة بالإخلاص تظهر في ظرف يحالفني فيه الحظ الطيب بانشغالي بالمراسلات التي هي في غاية الود مع والدكم المحترم محمد علي باشا نائب ملك مصر ، ولا بد لمشاعر الاحترام والتبجيل التي تعتلج بها نفسي تجاه معاليه ، والتي يعتقد بشكل جازم أن صداقته الثابتة ونيته الطيبة تجاه الحكومة البريطانية قد عززتها وقوتها من أن تقودني دوماً إلى الابتهاج بالنتيجة الرائعة للجهود التي دُفع بها تحت أنظاره . لكني أؤكد لكم أن سروري قد ازداد كثيراً بتقديم التهاني في المناسبة التي التحم فيها مجد نجله مع النجاحات التي حققتها القوات المسلحة .

ولقد ذُكر لي أن سعادتكم يهدف الآن إلى استخدام الجنود المنتصرين في إخضاع الزعامات العنيدة الأخرى حتى تُذعن إلى الطاعة ، والجواسميين بشكل أساسي . ولقد وصلتكم بكل تأكيد معلومات عن القرصنات الجريئة وعمليات الابتزاز التي ارتكبتها القبيلة المذكورة في الخليج ، بالإضافة إلى الأعمال الوحشية

التي مارستها جماعاتهم ، مما وضعهم في صورة أعداء للحكومة البريطـانيـة أيضـاً . ولقد دفعتنـا هـذه الأحـداث إلى التفكير في القيـام بإجراءات لتـأديبهم في أقرب وقت ممكن . ولقد فكرت ملياً فوجدت أنـه يمكن الوصول إلى تحقيق هـذا الهـدف بسياستكم ومن خلال مفاوضاتنا المزمعة التي سيتم تنفيذ بنودها بشكل منـاسب عن طريق توحيد جهود الحكومتين . فيبدو لي أن التعاون المشترك بين الجيش الـذي يقوده سعادتكم وبين القوات البحرية والبرية التي ستجهزها الحكومة البريطـانيـة هو السبيل المرغوب والمنتج إلى أقصى حد . وفي حال ميل سعادتكم إلى الموافقة على هذا الإجراء فـإني أرجو منكم الإدلاء بـآرائكم إلى حـاكم بومبـاي السيـد (نيبيـان) المحترم فهو مطلع على جميع آرائي بالنسبة لهذا الموضوع ، كما ألتمس منكم أن تعتبروا معلوماته بالنسبة لطريقة التعاون وتحديـد الزمن الأمثل لوضعهـا موضع التنفيـذ تماماً كأنما صدرت عني بالذات .

وفي حال تطبيق المخطط الذي تشرفتُ باقتراحه ليكون قيد دراسـة سعـادتكم فإنـه سيُتفق على تفـاصيل التسويـة بـأسرع وأنسب مـا يمكن بين سعـادتكم أو بين ضباطكم العاملين ذوي الرتب العـاليـة ورجـال مِن جـانب الحكومـة البريطـانيـة أسندت إليهم سلطة واسعة وتعليمات من قبل الشريف حاكم بومباي .

ألتمس قبول سعادتكم للسيف الذي سيرسل لكم من كلكوتـا مع هـذه الرسـالـة ليكـون تـذكاراً متـواضعـاً يرمـز إلى احترامي وتقـديري لكم ، وسينقـل إليكم عن طـ يق حاكم بومباي .

(نسخة طبق الأصل)
التوقيع : ج . آدم ،
السكرتير الأول للحكومة

(نسخة طبق الأصل)
التوقيع : و . نيونهان ،
الذي يعمل كأمين سر أول .

إلى سعادة إبراهيم باشا :

على الرغم من أني لم أتشرف بمراسلة سعادتكم بشكل مباشر وأني لست معروفاً لديكم شخصياً أجدني لاأستطيع أن أحجم نفسي عن اغتنام الفرصة المتاحة لي لتوجيه رسالة إلى سعادتكم مع رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام مقدماً لكم أحَر التهاني لنجاحاتكم الرائعة التي كانت شاهداً على حيويةِ وسرعةِ إجراءاتكم في تحطيم النفوذ الوهابي وعلى بسالة جنودكم ، الأمر الذي لم يخفق في لفت الأنظار نحو ذكائكم المهيب وجعل سعادتكم محط إعجاب واستحسان والدكم المحترم الذي اعتدت على تبادل الرسائل معه .

لقد جعلتني تلك المزايا الرائعة التي اكتسبها سعادتكم والتقدم السريع لجيشكم نحو شواطئ الخليج ، أتوقع أنكم ستواصلون زحفكم لقمع نفوذ الجواسميين الذين يمارسون غزو الخليج منذ زمن بعيد ، وقد امتدت عمليات قرصنتهم إلى سواحل شبه الجزيرة العربية ومِكران بشيء من النجاح . .

إنه لن يغيب عن علمكم أن الأعمال الوحشية الفريدة من نوعها التي يقوم بها الجواسميون مع قبائل قرصنة أخرى على صلة بهم قد جعلت الحكومة البريطانية تصمم على اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات التي قد يكون لها أعمق الأثر في توجيه ذلك النوع من التأديب الذي تستحقه أعمالهم الإجرامية ، وستتوجه القوات البحرية والبرية المعينة للقيام بهذه المهمة إلى الخليج بعد انتهاء الرياح الموسمية وبمجرد أن يصبح الطقس ملائماً لهذا الغرض وبعد تلقي إشارة من سعادتكم حول هذا الموضوع الهام . سينقل هذا الضابط رسالة لسعادتكم من سعادة النبيل الأعظم الحاكم العام . وقد سبق أن ألمحت لكم عنها ، وكلي قناعة بأنه لن يواجه أية صعوبة في كسب رضى سعادتكم عن الترتيبات التي تقوم بها الحكومة البريطانية وفي الاتفاق معكم على مثل هذه الخطة في عمليات موحدة بحيث تؤمن تحقيق الأهداف التي نقوم بدراستها الآن بشكل كامل .

أما الآن وقد نقلت لسعادتكم وجهة النظر العامة للحكومة البريطانية فإني واثق من أن سعادتكم سيأذن لي بتفويض الكابتن سادلير بمناقشة الجزئيات ، وتفضلوا بقبول تأكيدات الاحترام والتقدير التي ترافقه .

(توقيع) : إيفان نيبيان

قلعة بومباي م الخامس من نيسان (إبريل) ١٨١٩

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : و . نيونهام ،

السكرتير الأول

نسخة طبق الأصل عن رسالة من الشريف بحق السيد إيفان نيبيان ، بارت ، حاكم بومباي ، إلى إمام مسقط ، مؤرخة في الثاني عشر من نيسان (أبريل) ١٨١٩ .

يسرني أن أعرب عن شكري تجاه رسالة معاليكم الكريمة في جوابكم للرسالة التي عهدت بها إلى الكابتن تايلور لينقلها إلى معاليكم ، وإني لسعيد تجاه المعلومات التي تحملها من حيث الإجراءات التي ينبغي أن تطبق من قبل حكومتنا لمحو قوات القراصنة في الخليج ، إذ تبين أنها حازت رضا معاليكم .

وإني لأجترئ الآن على تقديم الكابتن سادلير لمعاليكم ، فقد أُرسل كمفوض إلى سعادة إبراهيم باشا بهدف الاتفاق معه على خطة تعاون مشترك ضد رأس الخيمة ، وإن هذا الضابط ليتمتع بالثقة التامة للحكومة ، وسيكون مستعداً لتبادل الآراء مع معاليكم بالنسبة لأيَّة نقطة لها صلة بهذا الموضوع .

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : وليام نيونهام

العامل كأمين سر أول لدى الحكومة

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : ب . ت . غودوين ،

السكرتير والمترجم في مكتب مراسلات الدولة .

آ ...

إلى الشريف السيد إيفان نيبيان ، بارت ، .

سيدي المحترم :

لي الشرف أن أُعلمكم أنه بعد مرور أربعةٍ وعشرين يوماً حافِلة بأقسى أنواع المشقات رَسا طراد الشركة الموقرة ثيتيس في خليج مسقط في مساء السابع من أيار (مايو) . أما السفينة كيرلو التي أبحرت من بومباي بقيادة الكابتن والبول بعد عشرة أيام من رحلتنا فقد وصلت هذا المكان في الصباح الباكر من اليوم التالي . وقد تشرفت بزيارتي الأولى لمعالي الإمام بصحبة الكابتن والبول والملازم أول تنر حيث قدمت رسالتك لمعاليه . تلقى معاليه المعلومات التي وصلته بكل رضى وعبَّر عن تقديره البالغ للتحالف الودي والتفاهم المتبادل بشكل مطرد بين أسرته وحكومة النبلاء التي يتلقى منها أمثال هذا الدعم المستمر . وبما أنه كان من الضروري أن أفسح لمعاليه فرصة دراسة رسالتك فقد اتجه نقاشنا نحو مواضيع أُخرى . ولقد ذكر لي وزير معاليه الشيخ علي بن فازيل الذي فوضه الإمام لاستقبالي ولترتيب أمر المقابلة أنه أُمر بأن يذكر لي رغبات الإمام في هذه المناسبة . كان الحضور من جانب الإمام وزير معاليه وشقيقه سيد سالم ، وقد عرَّفني الإمام بكلا الشخصين وبمركزيهما اللائقين .

نقل معاليه للكابتن والبول المعلومات التي وصلت إلى مسقط عن عودة اثني عشر مركباً للجواسميين ، التي تم تتبع أثرها حتى باب المندب . ويبدو أن اثني عشر مركباً من القوارب السبعة عشر التي أبحرت من رأس الخيمة قد جاء ذكرها في فزيرة وهو مرفأ صغير واقع بين خور شلحا وخور فيكان المكان الذي احتلته

قراصنة الجواسميين ؤخراً ، حيث نزلت هذه القوارب الإثنا عشر قبل أربعة أيام للحصول على معلومات ، ولم يعد عليهم طرادهم إلا بفائدة ضئيلة جداً حيث ذكر أنهم لم يكسبوا سوى زورقين صغيرين ينتميان إلى سوكروتا قيمتها بخسة جداً .

دفعت هذه المعلومات الكابتن والبول إلى التصميم على الاشتراك مع مراكب الإمام التي تطوف عند رأس مسندوم في البحث عن السفن العدوة ، وعندما أرسل معاليه رسائل إلى قواد تلك المراكب تم إرسال المركب كيرلو في مساء اليوم الثامن من الشهر الجاري .

زارني وزير معاليه مساء الثامن وخاض نقاشاً مطولاً بصدد موضوع الحملة المزمعة فعرفت أنه عبارة عن استهلال للتحقيقات التي أمر بإجرائها لمعرفة هدف مهمتي في المعسكر التركي ، وعلى الرغم من أنه سعى إلى أن يخفي قلقه وفضوله كان واضحاً أن تفكيره ، أو بالأحرى تفكير سيده ، لم يكن مرتاحاً تمام الارتياح تجاه هذه المهمة . أكدت له أن الحكومة البريطانية في غاية الشوق لأن تشهد تفاهماً متبادلاً بين القائد التركي ومعالي الإمام وإن العلاقات الودية التي استمرت بين معالي محمد علي باشا والحكومة البريطانية قد تعتبر أفضل ضمان لتدعيم هذه الصداقة ، وأني على ثقة بأنها ستكون أكثر التحاماً وتماسكاً بين الإمام وإبراهيم باشا الذي خولته جهوده ودأبه في عمليات إفناء الوهابيين إلى أن يكسب التمجيد والاحترام ، وأنه لابد أن يكون للنجاح الذي لازم قوات إبراهيم باشا حتى الآن تأثير كبير على الوضع السياسي لهذا البلد ، وساعَدت على استتباب الأمن والهدوء في مناطق نفوذ معالي الإمام ، بالإضافة إلى زيادة نسبة السرور والأمان بين سكان الأقاليم المجاورة بشكل عام . وبما أن سعادة إبراهيم باشا على علم ولا شك بعلاقات الصداقة القائمة بين الحكومة البريطانية ومعالي الإمام فإنه لم تعد هناك ضرورة للدخول في مناقشة نقاط يستبعد احتمال إثارتها أو التفكير فيها . وأخيراً

طلبت منـه أن ينقل وجهـات نظري حول المـوضـوع إلى الإمـام ، وأن يلتمس لي مقابلة معه في اليوم التالي ، وقد وعدني بالقيام بذلك .

زارني الوزير مرة ثانيـة في صبـاح اليوم التـاسع وأثـار الموضوع نفسـه الـذي استهله في اليوم السـابق فلم آلُ جهـداً في توضيح كل مـا أمكنني أن أضع من حجج تساعد على إقناعه بأن أمثال هذه الظنون ليست ذات قيـمة ، ثم أبلغني خبراً تلقـاه في مساء اليوم الثـامن بعـد زيـارتـه لي مفـاده أن حصن بريمي (الواقع على بعـد مسيرة يومين من رأس الخيمة نحو الداخل ويبعد نفس المسافـة عن الشـارقـة) قـد اضطر إلى الاستسلام والخضوع إلى أحد ضباط الإمام الذي فُوِّض لتقديم الشروط والنقاط التي يمكن أن توضع للتفاهم مع (بتـال الوهـابي) ، وكان هـذا الزعيم قـد أُحرج في سحب مصالحه من أشياعه السابقين الذين كانوا ينوون تـدبير الإطـاحـة به ، وربما إلى موته ، وفي ظل هذه الظروف أدرك أنه من الحكمة إقامة تسوية مع الإمام الذي وعده بالحماية . وهو من ناحية أخرى وجـد نفسـه تحت تـأثير ضغـط (سلطـان بن صقر وراشـد بن حميـد) اللـذين كانـا منـدمجين أصلاً في حلف غير رسمي مع جواسمي رأس الخيـمة ، لكنهما فَصلا أملاكهما في الـوقت الحـاضر كما يفيـد كلام الوزير ، فسـار (بتـال) وفق الطريق الأمثـل الـذي ينم عن تعقـل وتـدبر أكثر حيث استسلم لـلإمـام وأقسم زعمـاء إقليم بريمي على ولائهم لـلإمـام فـأرسـل ضبـاطـه ليفرضـوا سيطرتهم على المنطقـة . ويرغب سلطـان بن صقر زعيم شقرا ورشيد بن حمد زعيم عجمان في حث الإمام على التخلي عن بريمي لصقر الذي قـال إنه سيحتفظ به للإمام ، فهما يرغبـان في اكتسـاب صـداقـة علنيـة معـه في الوقت الحـاضر . وقـد أدليت ببعض الملاحظـات بـالنسبـة لخطـورة أن يُخـدع معـاليـه بالمظاهر الزائفة ، فنصحت الوزير بأن يكون حـذِراً عنـد إقـامـة تسويـة مؤقتـة يستغلها ذينك العـدوان للمجتمع لحَجْب أنفسهم في الوقت الـذي يتوقعـان فيـه أن تسدد إليهما العقوبة التي يستحقانها .

أخـذت رأيـه في أن أرافقـه إلى الإمـام لأعلن لـه عن قبولي لما اتفقنـا عليـه بـالأمس لكنـه اعتـذر عن ذلـك في هـذا الوقت وقـال إنـه من الأفضل أن تؤجل الزيارة إلى المساء لأن الإمام الآن في مجلس عام لا تناقش فيـه مثل هـذه المسـائل ولأن الإمـام كان يتـوقـع وصـول زعيم بريمي في صبـاح العـاشر فربـمـا يرغب في تأجيل المقابلـة الثـانيـة إلى ذلـك الوقت ، لكني اعترضت على افتراضـه هـذا لأني كنت أرغب في أن أنقل إلى معاليه التوقعات التي تفكر بها الحكومـة البريطـانيـة بصدد الدعم الودي الذي ستقدمه لـه في الحملـة القـادمـة ، وهو الأمر الـذي يشكل موضوع مهمتي إلى مسقط ، فوعدني الوزير بترتيب مقابلة مسـاءً ، لكني وجـدتـه عندما أتـاني في حـدود الخـامسـة مسـاء يميل إلى طرق مواضيع أخرى لا صلـة لهـا بموضوع زيارتي إلى مسقـط البتـة ، ولا يزال راغبـاً في تـأجيل الإيضـاحـات التي كنت بحاجة إليها منذ زمن بعيد ، فذكرته بضرورة الالتزام بالوعد الذي أبرم قبل الظهر فغادر على أساس أن ينجزه ، وبعـد قليل استـدعيت للمثول أمـام الإمـام ، وهذه دقائِقُ موضوع الاجتماع :

حظيت بمقابلة معاليه مساء التاسع حيث كان وزيره الشيخ علي بن فـازيل يقوم بـزيـارتـه بـالإضـافـة إلى السمسـار المعتمـد للشركـة المـوقرة السيـد (غـولـة أنانداس) . علق معاليه بعد وصولي بوقت قصير أنه لاحظ من خلال الرسالة التي قدمتهـا لـه أني مـأمور بـالتوجـه إلى معسكر سعـادة البـاشـا في الـدرعيـة لإجراء محادثات وإبرام اتفاقية مع قائده وتـذكيره بـالحملـة المزمعـة ، فـأجبتـه على ذلـك بـالتصـديق ، وقـال أيضـاً إنـه اغتنم فرصـة فكتب إلى إبراهيم بـاشـا عن موضـوع البحرين ونظراً لأنـه لم يتلق جوابـاً فـإنـه يرى أنـه من الأفضـل أن ينتظر رد أو إشارة معالي محمد علي باشا لأنه ليس بوسع إبراهيم باشا أن يتصرف في أمثـال هـذه الأمور دون أوامر مسبقة من والده ، حتى أنه ربـما يكون من المؤكـد أن يتجـاوز التـأجيـل التـاريـخ المعين لإبحـار الحملـة وكان يرغب في أن يعرف مـا إذا كانت

ستؤجل حتى عودتي من الدرعية التي لا يتوقع أن تتحقق قبل التاريخ المشار إليه على حسب ظنه ، فأجبت بأنه ما ينبغي أن ينسب إلي أي تأخير لأني سأبذل أقصى مالدي من جهد ، ولا أرى أن تكون هنالك ضرورة للرجوع إلى محمد علي باشا إذا حصل انسجام بين أفكار إبراهيم باشا وأفكارنا . ولم ينتابني سوى اليسير من الشك حول هاتين النقطتين ، فالحملة في حالة استعداد تام للمسير كما ذُكر له . ولا يستبعد على كل حال أن يتعارض عدم عودتي مع هذه الترتيبات . وكان معاليه يسعى المرة تلو المرة إلى إقناعي باستحالة إكمال رحلتي في وقت مناسب قبل الحملة لنقل جواب الباشا . ثم سألني عما إذا سمعت بانتقال إبراهيم باشا نحو عرب الدرعية أو أي مكان آخر ومُلمِحاً إلى أعمال وحشية ارتكبها هذا القائد ، فصرحت له عن جهلي الكامل لهذا الاتهام فأجاب معاليه أني سأُخبر بهذا لدى وصولي إلى هناك ، فاستخدمت كل حجة لأبعد عن ذهن الإمام أي انطباع غير لائق يضمره عن إبراهيم باشا عن طريق لفت نظره إلى تصرف محمد علي باشا في مصر وإلى التفاهم المتبادل بين الحكومة البريطانية ومعاليه ، واضطررت إلى تكرار جميع الحجج التي سبق أن أوردتها في الاجتماعين اللذين عقدتهما مع الوزير بصدد هذا الموضوع . ثم سألني فيما إذا كان بالإمكان تحقيق هدف الحملة دون تدخل غرباء أو دون التماس مساعدة الجيش التركي ، فأجبته بأنه إذا كان ذلك ممكناً فسيكون من دواعي سروري أن أذعن إلى آرائه وأنقلها إلى حكومتي ، لكني أدركت أنه من الضروري لفت نظره إلى الرسالة الشفوية التي أدلى بها الكابتن تايلور ، وإنه ليبدو من التناقض أن يقوم بتأييد أفكار الباشا وتقديم مراكبه الخاصة إليه بينما هو في نفس اللحظة بالذات يفكر في الصعوبات الكامنة من وراء اندماجنا مع الجيش التركي في نفس المكان والزمان ، وتفكيره بسوء نتائج الاندماج يجعلني أتوقع أنه سيقوم بتقديم أكبر مساعدة ودية ممكنة من طرفه ، خاصة وأنه سبق أن ألمح للكابتن تايلور عن عدم خشيته من نوايا الباشا تجاهه بالذات . لذلك أصبحت على ثقة بأنه كان مرتاح الفكر تماماً بالنسبة لهذه

النقطـة ، وختم الاجتماع بهذه الملاحظـات التي نقلهـا إلى وزيره صبـاح اليـوم التالي .

تقرر أن تتألف الحملة المعتزمة خلال الأزمة السياسية الحالية مما يقارب أربعة أضعاف الجنود التي كان يستخدمها في حملاتـه السـابقـة ، بـالإضـافـة إلى تجهيزات بحرية هائلة تزيد كثيراً عن تلك التي كان يُسَر معاليه بمشاهدتها من قبل . لذلـك ينبغي أن تكون المساعدات التي سنتحملها لإتمام هذه الخطة واسعة النطاق بحيث تتجارى مع هذه الأوصـاف لكي تكون الفوائـد النـاتجـة عن هـذه الجهود المتـآزرة فعالة وشاملة دون أية صعوبة ، ولا بد أن معاليه سيكسب نفعاً مبـاشراً من هـذه الإنجازات أكثر مما يكسبه أي زعيم أو متنفذٍ له صلة بالأمر .

لابد أن معاليه مدرك تماماً أن الحكومة البريطانيـة لاتنوي زيـادة أراضٍ أو رُيوع لها من جراء إخضاع الوهابيين أو قراصنة الجواسميين وأن الـذي أثـار رغبـة حكـومتنـا في الانتقـام إنمـا هـو مـا يتعرض إليـه السكان الآمنـون من إهـانـات وإيذاءات من البلدان المجاورة التي تجمعنا بها علاقات صداقة عن طريق التعـامل التجاري المتبـادل ، فَسِلَعُنـا بكل تـأكيـد تستقطب أثراً تجـاريـاً وربحـاً ، فبقـدر ماتتعامل معنا نضمها إلى قوتنا لنحمي تجارتنا الخـاصـة بسفننـا الحربيـة ، كما أننـا لسنا منكمشين على أنفسنـا في آرائنـا وسيـاستنـا بل واضعين نصب أعيننـا أن جميع مناطق النفوذ التي يجمعنا بها تفـاهم متبـادل والتي تمكنهـا مواقعهـا من أن تتحمل تقديم مساعدة ستتقدم للمسـاهمـة في إخضـاع قبـائل القرصنـة بكل مـالـديهـا من إمكانيات .

وإن الرسـالـة التي كتبت لمعـاليـه وأُرسلت لـه عن طريـق الكابتن تـايلـور لتوضح بكل جلاء مشاعر احترام الحكومة البريطانية تجـاه شخص معـاليـه وتجـاه كل ما يعتزم أن يقوم به ، بالإضافة إلى رغبتها الصـادقـة في أن تشهـد قيـام تفـاهم ودي بينه وبين إبراهيم باشا .

ذكَّرته بعد ذلك بالفوائد التي وصلنا إليها نتيجة ثبات إبراهيم باشا في حربه ضد الوهابيين وبالأسلوب الحكيم الذي ينبغي أن نتبعه لنستفيد مما أحرزه من تقدم ومن اقتراب نحو تحقيق الهدف المقرر . ثم أثَرت النقاش الذي أورده معاليه بصدد احتمال انسحاب الجيش التركي وانتقدنا سوء سياسة المماطلة . وبعد فترة من التأمل ذكر لي معاليه بكل صراحة أنه اتخذ قراراً بالنسبة لهذه النقطة منذ زمن بعيد وهو ملتزم به تمام الالتزام مفاده أنه مصمم على عدم السماح لجنوده بالاندماج مع جنود الجيش التركي على الساحل بأي حال من الأحوال ، هذا بالرغم من تسليمه بصحة الكثير من حججي ، لأن النتائج ستكون حاسمة وذات أهمية كبيرة بالنسبة إليه ، وأكثر من ذلك أنه لا يستطيع أن يكره جنوده على إطاعة مثل هذه الأوامر (المتعلقة بإبقائهم منفصلين عن الجنود الأتراك) ، بل ربما يتحدث إليهم بشكل عام عن عزمه على تقديم الدعم والمساعدة في أي وقت تصل فيه قوات الحملة المزمعة وأنه سيرافق الحملة بنفسه ويُنزل خمسة آلاف جندي لتعمل مع البريطانيين وتنضم إليهم لإنجاز أي هدف تسمح به إمكانيات الجيشين ، وينبغي أن يُفهم بوضوح أنه إذا ما عمل الجيش التركي في الداخل فلن يطلب من معاليه ضم جنوده إليه ، وإذا لم يستدعى الجيش التركي سيسعى معاليه إلى تدبير قوة كافية لتعمل في الداخل . ثم أضاف أنه لا يستطيع أن يخوض في دقائق الأمور في الوقت الحاضر ، لذلك سيؤجل المشاورات التالية إلى الغد . وعلى كل حال منعه رفضه ضم جنوده إلى جنود إبراهيم باشا من تحويل أي جزء من تلك التأكيدات الشفهية إلى نص مكتوب . وفي إجابته على السؤال الذي أكدت عليه بأسلوب لطيف وأشرت به إلى الاستيلاء على رأس الخيمة صرح معاليه أنه لن يتمكن من حمايتها والحفاظ عليها حتى ولو عُرضت عليه ، متذرعاً بما يرافق مثل هذا الإجراء من تكاليف باهظة لا تطاق . ثم أعرب معاليه عن شكره للطف الذي لاحظه من جانبي خلال وضعي لآرائي وحُججي بين يديه لدراستها ، وانسحبت من مجلسه عندما عين اليوم التالي موعداً لاجتماع آخر .

وكان من دواعي سروري في صباح اليوم العاشر أن أتلقى رسالة شفهية عن طريق وزيره تشير إلى أن معاليه قد أنهى دراسة ملاحظاتي التي سُررت بتقديمها لأنظاره مساء اليوم السابق ، وأعرب الوزير عن سروره بمرافقتي إلى حضرة الإمام في الساعة الحادية عشرة أو قبل ذلك بوقت قصير .

التقيت بالوزير وفقاً للتوقيت المقرر ، وبعد أن أبدى بعض الملاحظات ذكر أن جميع العوائق قد تعتبر هامة ، لذلك باشرنا الكلام عن وضع الجواسميين كما هو عليه في الوقت الحاضر .

بيَّن لي معاليه أن قوتهم آخذة بالضعف منذ سقوط الزعيم الوهابي ، الأمر الذي أدى إلى ضعف ثقة مختلف زعمائهم ببعضهم بعضاً ، أو بالأحرى إلى عمق تصميم كل منهم على محاولة تطوير مصالحه الخاصة على حساب مصالح جيرانه . وهو يرى أن كَون الأمور على هذا الحال مواتٍ تماماً ، فعدم وجود قائد متبصر ومتنفذ وحالةُ الضيق والضغط اللذين يعاني منهما الجواسميون منذ سقوط الوهابيين يمكن أن تولد نزاعات فيما بينهم ، وقد انضم إلى الجواسميين عدد ضئيل من الوهابيين الذين هربوا من درعية إذ يقدِّر أن عددهم لا يزيد عن ثلاثمائة ، والتقديرات التالية تعطي فكرة كاملة عن قوات الجواسميين كما هي عليه الآن ، جمعها معاليه من أفضل مستند على الإطلاق ، وهو يعتبرها موثوقة :

			مشاة
المندمجون من بقايا قوة الوهابيين			٣٠٠
١ ـ تحوي بخا فقط			٢٠
٢ ـ شام ـ شعم			١٥٠ إلى ٢٠٠
٣ ـ رس			٢٠٠
٤ ـ رأس الخيمة :	زوارق كبيرة ٢٥	زوارق صغيرة ٧٥	٣٠٠٠
٥ ـ حمرا : كلهم اندمجوا مع رأس الخيمة			
٦ ـ أم القوين	زوارق كبيرة ١	زوارق صغيرة ٣٠	٤٠٠

٧ ـ عجمان	زوارق كبيرة	٤	زوارق صغيرة	٣٥	١٠٠٠
٨ ـ فشت مع					
٩ ـ الشارقة مع	زوارق كبيرة	١٢	زوارق صغيرة	١٥٠	١٢٨٠
١٠ ـ أبو هايل					
١١ ـ دبي	زوارق كبيرة	٤	زوارق صغيرة	١٠٠	٨٠٠
		٤٦		٣٩٠	٧٢٠٠
أبوظبي (خيران بني إياس)	زوارق كبيرة	٥	زوارق صغيرة	٣٠٠	٣٠٠٠

لكن المرفأ الأخير نادراً ما كان يعتبر مرفأ قرصنة لكونه مفصولاً عن رأس الخيمة منذ زمن بعيد .

يقع خليج (فجيرة) الصغير إلى الشرق من رأس مسندُم وهو ميناء يبدو وكأنه مركز مراقبة يشرف على هذا الجانب من أجل الزوارق الصاعدة إلى الخليج . وكما سبق لي أن أوضحت في الفقرة الثانية من هذه الرسالة يستطيع المسافر العربي من فجيرة عن طريق البحر أن يقطع جبال رأس الخيمة خلال أربع عشرة ساعة ، كما يمكن المرور براً عن طريق دُبا مشياً على الأقدام أو على الخيل ، وإمرار حتى المدافع الصغيرة الحجم ، حيث يمكن أن تنجز الرحلة خلال يومين .

وإن الترتيبات التي يقوم بها زعيم الشارقة بالإضافة إلى ما يقوم به زعيم عجمان ربما تدفعهما إلى أن يبقيا منفصلين عن زعيم رأس الخيمة خلال الخصومات ، لذلك صرح معاليه أنه سيسعى إلى تحقيق هذا الانفصال على الرغم من أنه ينصح الجميع بأن يتلاقوا لمواجهة نفس المصير الذي يحتمل أن تواجهه رأس الخيمة .

عند ذلك اقترحت على معاليه أنه ينبغي علينا أن نأخذ في عين الاعتبار

الإجراءات التي يجب أن تتخذ في العمليات الهجومية ، وبعد شيء من الإسهاب في النقاش وافق معاليه على الترتيبات التالية التي طلَب مني أن أحولها إلى نص مكتوب وأُرسلها إلى مجلسكم الموقر كجواب للاستفسارات التي طلبتم مني تبليغها إياه المتعلقة بطبيعة ومدى المساعدات التي ربما يكون قادراً على تحملها من أجل سحق منفذ عمليات القرصنة .

وكان معاليه حازماً في رأيه بالنسبة لمنع جواسيي رأس الخيمة من التغلغل داخل عمان بإرساله عدداً كافياً من الرجال إلى الممرات الجبلية خلال العمليات الموجهة ضد رأس الخيمة ، وربما لاتدعو الحاجة إلى خدمات أولئك الرجال إذا ماوصل جيش الباشا ، وأما إذا لم يصل فإن معاليه سيكون مستعداً لأن يتعاون براً مع قوة قوامها سبعة آلاف من الجنود المشاة وثلاثون ومائة من الفرسان وخمسمائة وألف جمل للتقدم عن طريق الممرات المؤدية إلى عُمان ، وستتخذ بلا شك التدابير الوقائية المسبقة لمنع استخدام الجنود العرب والأتراك مندمجين مع بعضهم بعضاً وأن تبقى معسكراتهم منفصلة عن بعضها في جميع الأوقات .

وقد بدا أن المساعدة التالية التي يمكن أن يتحملها من جانبه على شكل تمويل بالزوارق لتساعد على تفريغ السفن من الجنود والأمتعة وغيرها من المعدات . ولسوء الحظ تناقص عدد الزوارق التي تتميز بهذا الوصف عن العدد الذي يُحتاج إليه من أجل هذا الغرض إلى حد كبير خلال السنوات القلائل التي مضت . وقد بين معاليه أنه ليس بمقدوره أن يَعِدَ بتقديم أكثر من سبعين زورقاً ، لكنه إذا ماتوفرت لديه بعض الإمكانيات فربما يزيد العدد إلى مائة لدى كل منها إمكانية استيعاب مابين ثلاثين وخمسين رجلاً .

أما بالنسبة للماء وحطب الوقود فقد بيَّن معاليه أنه سيؤمن كمية كافية من كل منهما على حسابه الخاص ، لكن تأمين المواشي والمؤن الضرورية الأخرى لا بد

أن يكون عن طريق ضابط التموين الإنكليزي وعلى نحو سريع ، بحيث يدفع السعر النظامي فقط وإن معاليه بالذات سيمارس نفوذه وصلاحياته لمنع ارتفاع الأسعار .

ثم إن معاليه وافق على استخدام سفينتين تابعتين له من أجل نقل المؤن أو تسهيل أية طريقة أخرى يمكن أن يتم من خلالها إنجاز هذا الأمر على أحسن وجه بحيث ينسجم مع رغبات الحكومة البريطانية التي سيوضع تحت تصرفها سفينتان في أي وقت يُصرح فيه الشريف بحق رئيس المجلس عن رغباته بصدد ذلك الموضوع لِمعالي الإمام .

سيتابع معاليه مراسلة حاكم بومباي لإطلاعه على جميع المواضيع المتعلقة بتقدم سير أمور الاستعدادات التي تُهيأ من أجل الحملة ، كما سيقدِّم جميع المعلومات التي لها صلة بموضوع أية تغييرات قد تطرأ على أعداد قراصنة الجواسميين ، بحيث تكون الحكومة على علم بالوضع الحقيقي لقواتهم في جميع الأوقات .

ختم معاليه كلامه بتأكيد مُجمل على دعمه ومساعدته ، وبيَّن أن أية إجراءات تتخذها الحكومة البريطانية ستلاقي من طرفه أكبر تأييد . أي إنه ، بغض النظر عن الخصوصيات التي عددت هنا ، سيكون مسروراً بتطبيق آراء الحكومة ، حتى إنه سيولي عناية كاملة لأية ترتيبات أغفلت في الموجز السابق وتحب الحكومة أن تدلي بها .

أصبح لديَّ كل مبرر لأن أتصور بأن معاليه سيستعمل كل جهوده لإتمام الترتيبات لكي يتمكن من تنفيذ تعهداته وتأكيداته التي لي الشرف الآن أن أنقلها إلى مجلسكم الموقر وكلي ثقة بألاَّ أُعتبر متواقحاً في إدلائي برأيي بالنسبة للبواعث التي أتصور أنها دَفعت الإمام إلى التردد في المقابلة الأولى .

وإنه لواضح جداً أن تقدم قوات إبراهيم باشا وقرب مسرح عملياته من حدود

إقليم معالي الإمام يشكلان موضوعين جديرين بإيقاظ مشاعر الحسد والريبة في ذهن الإمام ، خصوصاً عندما يتذكر أن تطلعات الباشا نحو السيطرة على البحرين قد أصبحت أمراً يتوقعه الجميع . ولأنه أيضاً لم يُعط جواباً شافياً للإمام بصدد ذلك الموضوع . لذلك كان يبدو على الإمام منذ اللحظة الأولى أنه يفكر في إقناعي بالإقلاع عن فكرة متابعة مسيري إلى الدرعية ، محتجاً أولاً ببعد المسافة والتأخير الذي سينجم عنه ، وثانياً باحتمال إسقاط الجواسميين دون مساعدة الباشا . ونظراً لأني لم أؤيد تلك النقطة فإنه حاول بالتالي أن يحصل مني على عهد بالنيابة عن الحكومة البريطانية ، لكن جوابي كان حاسماً بالنسبة لهذا الطلب ، وما كان مني إلا أن كررت ذلك الجزء من رسالة الشريف رئيس المجلس لمعاليه ، وأنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أتجاوز حدود التأكيدات التي تنقلها إليه تلك الرسالة .

وبما أني أتوقع أن أزور مسقط وأنا في طريق عودتي إلى بومباي في وقت قد يكون من الضروري زيارتها به لرؤية ما إذا كانت هذه الاستعدادات آخذة في التقدم أم لا ، فإني واثق من أني سأحظى بتعليمات ترشدني إلى الخط الذي ينبغي علي أن أتصرف على حسبه في ظل الظروف المقبلة .

أولاً : إذا ما رفض إبراهيم باشا أن يحرك أية مجموعة من جيشه إلى تلك المسافة البعيدة جداً عن الدرعية أو الأحساء ، ما المساعدات الإضافية التي ربما يُحتاج إليها لإنجاز آراء الحكومة البريطانية من جانب إمام مسقط ؟

ثانياً : إذا قبل إبراهيم باشا بالاقتراحات الموجهة إليه ، ما التأكيدات التي يمكن أن تشعرني بأني حُرٌّ في إعدادها لإمام مسقط لتطمئن نفسه ولأضع حداً للشكوك التي يبدو أنه يُكِنها نحو آراء الباشا ؟

وإني لا أتصور من خلال المعلومات التي جمعتها هنا من مصادر أخرى أن

الإمام قد بخس في تقدير قوات الجواسميين ، ولا أستطيع أن أعرف عن طريق أي مستند موثوق ومعتمد بالنسبة لي أن عَرب الداخل سيتقدمون لمساعدة جواسمي رأس الخيمة . فإذا افترضنا أن لديهم ميلاً إلى مشاركة أصحابهم السابقين فإن عدد الرجال الذين سيتمكنون من الحضور إلى الساحة لن يتجاوز ثلاثة آلاف . وإذا كان بالإمكان الاعتماد على الزعيم البريمي وحلفائه فإن ذلك العدد بالذات سيتناقص إلى درجة تؤخذ بعين الاعتبار . ويبدو من ناحية أخرى أن قوات الإمام تصل إلى عشرين ألفاً من الجنود المشاة ، توزع في جميع القرى وعلى طول الساحل ، لكن هذا مع اعتبار أن كل عربي يعتبر جندياً ، وهو مسلح ، لذلك لا يتوقع أن يكون هذا الجيش في متناول اليد عند الحاجة ، ومن الممكن جمع عشرة آلاف من المشاة الذين يصل عددهم إلى عشرين ألفاً في لحظة واحدة ، ومن الفرسان مالا يزيد عما بين ثلاثين ومائة وخمسين ومائة . (١٣٠ ـ ١٥٠) .

ثم إني لن أتجرأ على الإدلاء برأيي بالنسبة لمؤهلات جيش معاليه فقد سبق أن نُقلت فكرة عنها إلى أنظار مجلسكم الموقر عن طريق الضباط الذين توفرت لديهم فرصة أطيب لتكوين رأي عن ذلك الموضوع خلال الحملة السابقة .

ولقد حصل لي الشرف هذا اليوم باستلام رسالة معاليه المعدلة التي بدا من خلالها مسروراً في توثيقه لعهوده ووعوده بالمساعدة . بالإضافة إلى رغبة معاليه في القيام بهذه الحملة وإني واثق من أن الشريف بحق رئيس المجلس (الذي وجَّهتُ رسالة معاليه إلى عنوانه جواباً لتلك التي حصل لي الشرف في تعهدها) سيكون سعيداً وراضياً عن المساعي التي قمت بها لتعزيز آراء الحكومة .

ولي الشرف أن أعلمكم أني استفدت كثيراً من النصائح الرائعة والمعلومات الواسعة التي وصلتني عن طريق الكابتن لوك ، وقد قررت نتيجة لذلك أن أتوجه إلى بوشير في أول فرصة بهدف الحصول على معلومات صحيحة عن مرفأ القطيف

وعن الطريق إلى الدرعية ، حيث آمل أن يحالفني حظ طيب فأجد موقعَ معسكرِ سعادة إبراهيم باشا . ولا توحي التقارير المتداولة هنا بسهولة الوصول إلى الدرعية ، لكني سأكون قادراً على أن أتكلم عن هذا الأمر بيقين آكد بعد وصولي إلى بوشير .

مسقط ١٥ آيار (مايو) ١٨١٩

ب ...

إلى الشريف ألفينستون ،

الحاكم ورئيس مجلس ، بومباي .

سيدي المحترم ،

لي الشرف في أن أُعلم مجلسكم الموقر أنه نظراً لإخفاقي في العودة إلى بصرة ، كما سبق أن ذكرت لكم في الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب (أغسطس) فقد أصبحت مضطراً إلى التوجه نحو المدينة (المنورة) حيث التقيت بالقرب منها بأحد رجال سعادته وهو بشقر آغازي ، الذي تلقى تعليمات بأن يقودني إلى آبار علي الواقعة على بعد ثلاثة أميال عن المدينة . وقد أطالَ الطريقَ الفرعي الذي اختاره ليحول بيني وبين رؤية مهد رسالة المسلمين وعقيدتهم إلى درجة أننا لم نصل حتى الليل ، حيث قدَّموني لطبيب سعادته من أجل أن يُحسن وفادتي لدى استقبالي ، وهو رجل إيطالي .

زار سعادته آبار علي مساء اليوم التالي (الثامن من أيلول - سبتمبر -) في ساعة متأخرة ، ونظراً لأن سعادته غير مجهز بأية وسائل للراحة من أجل استقبال عام فإنه ترجل عند خيمة الطبيب ، ووكله بأن يطلب مني أن أقوم بزيارته ، حيث يُستغنى فيها عن المراسم ولا يطرق فيها أي موضوع عملٍ بشكل علني . مثلت بين يدي سعادته فإذا به يستقبلني بكل دماثة ، وعندما عبر عن أسفه بصدد طول الرحلة والمشقات التي لابد أن أكون قد تعرضت لها عبرتُ بدوري عن أسفي لأني لم أحظ بالوصول إلى معسكر سعادته عندما كان في الدرعية

فلو تحقق ذلك الأمر لكانت تهيأت لي فرصة اطمئناني إلى تقديم تهاني السلطات البريطانية في الهند ـ التي انتدبتني إلى سعادته ـ في المنطقة التي كانت مسرح انتصاراته ونجاحه . فأجاب سعادته على ذلك بقوله : إن أحداثاً غيبية وخيبات أمل حالت دون إمكانية الالتحاق به في وقت مبكر ، وإن رحيله من رَسْ تصادف مع عمل هام جداً في المدينة ، ولم يستحسِن سعادته عودتي من رَسْ إلى بصرة لأن الطريق لم يكن آمناً ولم يتمكن من إرسال حرس .

وفي صباح اليوم التاسع تشرفت باستقبال سعادته وبتقديم رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام ورسالة الشريف بحق رئيس المجلس إليه ، وقد بدا سعادته مهتماً بدراسة كلتيهما . وعندما عرفني سعادته بنفسه ذكر أنه لم يتشرف حتى الآن بتلقي أية رسائل مباشرة من حكومة الهند ، وأنه قد عُرف لدى تلك الحكومة من خلال المراسلات الودية التي كانت متبادلة بين والده وبين السلطات البريطانية في الهند . فأجبت على ذلك قائلاً : إن الاتصالات الحالية تعتبر قاعدة لعلاقات شخصية وودية دائمة ، وإني على ثقة في أنها ستستمر دون أي انقطاع . ثم إني قدمت لسعادته السيف الذي عُهد به إلي . بدا سعادته في غاية السرور تجاه التهاني الموجهة إليه والهدية التي رافقتها .

بعد تبادل العبارات الإطرائية فترة قصيرة من الزمن أمر سعادته الخدم بالانسحاب حيث تمعَّن للمرة الثانية بالرسائل التي تشرفت بتقديمها . ثم أعلمني سعادته من خلال تبادل الأفكار الذي تلا ذلك أن سياسة القيام بهذه الحملة التي يقوم بها قد أوكلت إلى أبيه عن طريق البلاط العثماني . وكانت التعليمات التي وجهها سعادته بصدد (درعية) قد ضيقت نطاق عملياته العسكرية هناك ، لكن ذلك يعود إلى عدم إطِّلاعه على وجهات النظر الأخيرة التي دفعت ذلك البلاط إلى أن يرسل البعثة العسكرية سيراً على الأقدام . وكان سعادته يترقب تعليمات

أخرى بالنسبة لإسقاط الدرعية ، فوصلت من إستنبول تأمر بتدميرها وإخلاء المنطقة كلها ، مع العلم أن الريوع المستفادة منها لم تكفِ لتعويض نفقات الجنود التي دعت الحاجة إليها من أجل حمايتها خلال إقامة سعادته فيها . وخلال ترقبه لهذه الأوامر أرسل بريداً إلى الأحساء والقطيف للحصول على تعزيزات نظراً لأن جيشه صار في حالة مزرية جداً ، ولذا قد تَحْتَلُّ المحادثات الودية مع البريطانيين الدرجة الأولى في الأهمية في هذه الفترة .

أعرب سعادته عن أسفه لعدم سير الأمور بشكل ينسجم مع خططه ، الأمر الذي قد يحول دون إمكانية التقائه مع رغبات النبيل الأعظم الحاكم العام ، إذ ربما كان سعادته في منتهى السرور لو اطَّلع على تلك الأفكار في وقت أبكر فيتعرف بذلك على آراء الحكومة البريطانية . لكنه اعتبر هذه الاقتراحات ذات أهمية كبيرة بحيث تحتاج إلى استشارة معالي نائب ملك مصر ، لأن سعادته يكره أن يصيغ أي جواب للرسائل دون تعليمات مسبقة منه .

دفعتني لهفتي إلى تجنب الزيادة في التأخر لأن أعبر عن أملي في أن يعيد سعادته النظر في الموضوع ويحاول تجنب التأجيل الذي سينشأ عن ترقب جواب من القاهرة إذا كان يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لكن سعادته لم يقبل التماساتي فوجدت نفسي مرغماً على قبول موضوع أخذ رأي القاهرة . وإن هذا لهو الأمر الذي ذُكِر لي أني سأواجهه عندما أقوم بمحادثات مع الباشا من قبل أن أعاني محنة دخول إقليم نجد .

طلب مني سعادته أن أوجه رسالة إلى السيد صولط موضحاً له فيها الآراء التي أدليت بها لسعادته وأرفقها بالرسائل التي سيرسلها إلى معالي محمد علي باشا ليدلي برأيه حولها ، أو يتبادل بعض المشاورات مع السيد صولط كما وضعت بين

يديه دقائق ما ورد في الاجتماع الذي حظيت به مع سعادته وطالباً منـه استخـدام نفوذه للإسراع برحيلي إلى الهند .

وبما أن ميناء جدة يتميز بإمكانية تهيء أفضل فرصـة لتـأمين العبور إلى مخـا فقد طلبت من سعادته أن يسمح لي بمرافقتـه في طريقـه إلى مكـة ، حيث أنطلق من هناك إلى جدة وأترقب عودتـه من الحج هنـاك فوافق على ذلـك ، لكنـه غيَّر اتجاه مسيري في آخر لحظة إلى ينبع محتجاً بالإزعاج الـذي ربمـا ينجم عن إرسـال عـدد قليل من الفرسـان من أجل المرحلتين اللتين تبـدآن من النقطـة التي يفترق عندها طريق جدة عن طريق مكة . وذكر سعادته أنه مصمم على العودة إلى ينبع حيث سيشرفني بمقابلة أخرى بعد أن يرتب جوابه هناك . لـذلـك وجـدت نفسي مرغماً على المسير مع الحامية التي كانت تقوم بحراسة حريمه إلى مدينة (ينبع) التي سيُرسلنَ منها إلى السويس . كانت إقامتي في هذا المكان المزري تعيسة جداً بسبب إصابتي بحمى حادّة وليس بحوزتي وأنا في هذه الحالـة البـائسـة دواء ولا مسـاعـدة طبيـة . عـاد رسول سعـادتـه من القـاهرة في التـاسـع عشر من تشرين الأول وفي جعبته النبأ البغيض عن تغيب السيد صولط عن القاهرة ، لكنه من ناحية أخرى يحمل رسائل من معالي محمد علي باشا إلى سعادة إبراهيم باشا الذي كان قد أقـام في جدة فترة من الزمن ، لذلك قررت أن أبحر في أول زورق أتمكن من الحصول عليه للتوجه إلى جدة ، وقد وصلت إليها على زورق مكشوف في غضون أربعة أيام .

وعلى الرغم من أني وصلت في ضُحى اليوم السـابع والعشرين فـإني لم أستطـع أن أحصل على أية وسيلة للراحـة والنوم والطعـام على الشـاطىء حتى مسـاء اليوم التالي . وكانت اهتمامات سَعادته كلها منصرفة إلى التحقيق في شؤون حكومة باشا جدة فعانيت صعوبة كبيرة لتدبير مقابلة معه فأعلمني أنـه سيتوفر لـديـه فراغ فيما بعد ليناقشني بموضوع الجواب . فجازفت وأكـدت على سعـادتـه أن يـذكر لي اسم

أحد وزرائه أو ضباطه بحيث أتمكن من الاتصال به عن طريقه ، لكنه لم يُوْلِ هذا الطلب أي اهتمام .

وفي المقابلة الثانية التي جرت بعد مرور أيام كثيرة عبّر سعادته عن أسفه تجاه التأخير الذي عزاه إلى عدم تمكنه من الحصول على كاتب يستطيع أن ينسخ رسالة بالعربية ، ثم ذكر أنه سيأمر بالبحث عن كاتب مرة أخرى لكتابة رسالة يعبر فيها عن أسفه لعدم القيام بهذه الاتصالات في وقت مبكر ليتمكن من الانضواء تحت آراء الحكومة البريطانية .

عبَّر سعادته عن رغبته في إرسال حصان عربي وفرس ، وطلب مني أن أتعهدهما وأكون واسطة تقديمها للنبيل الأعظم الحاكم العام ، وقد وافقت على ذلك بلا شك ، ثم عبر عن عزمه على منحي سمة تقدير واحترام قائلاً : إنه سيرسل أيضاً حصاناً لائقاً يحظى بقبولي ، فما كان مني إلا أن وجهت شكري وامتناني لسعادته ، ثم أخبرني أنه أمر بتجهيز زورق لينقلني إلى مُخا .

وقد رأيت من الضروري أن أتعرف على جواب سعادته فطلبت منه أن يكرمني بنسخة عنه من أجل تبليغه في حال حصول أي حادث للرسائل ولكي أتمكن من صياغة ترجمة له ، فعبر عن موافقته على هذا الطلب .

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني وصلتني نسخة عن الرسالة يطلب مني معها أن أعيدها بعد دراستها وأن أرسل له لقب وعنوان النبيل الأعظم الحاكم العام ، فأذعنت إلى ذلك وأرسلت له نسخة من رسالة كانت في حوزتي . تحوي اللقب الذي يشكل (أشرف الأشراف) جزءاً منه ، وقد ظهرَت بسبب هذا اللقب معارضات خطيرة لكونه لقباً يختص به الرسول محمد[1] فقط . فطلبت من الشخص المرسَل أن يلفت نظر المعارضين إلى أنه يمكن أن يُستبدل بلقب (أمجد

---

(1) ﷺ .

الأمجاد) بسهولة . محَّصَ سعادته هذا الموضوع بحماسٍ شديد عوضاً عن أن ينظر إليه بإحساس طيب ، مع أن لقب عباس ميرزا يماثله تقريباً ، وكذلك لقب نواب أشرف . وتستعمل مختلف صيغ هذه السلالة بأشكال متعددة لتعبر عن النبل والاستعلاء في النظام السائد لكتابة الرسائل في منطقة الشرق بكاملها . فما يوجد في اللغة العربية من هذه الألقاب يوجد أيضاً في اللغة الفارسية . ناقش سعادته ومستشاروه الأمر وقد هيمن الإحساس الديني على مفاهيمهم ، لكنه تمَّ تحاشي ما من شأنه أن يثير الاعتراضات التافهة باقتراح لقب يفيد المعنى نفسه .

كانت زيارة ثلاثة أو أربعة من سائسي خيل سعادته الذين أتوني يطلبون عطاء آخر تلميح وصلني فيما يتعلق بالخيل التي سبق لسعادته أن أمر بتحميلها على الزورق المزمع إرسالي به إلى مخا . وقد تعمد سعادته ألا يُكسبني الشرف أو يجاملني في أن يفسح لي مجال رؤية الخيل التي طلب مني أن أكون واسطة تقديمها ، لكني لم أنبس ببنت شفة تعليقاً على هذا التصرف .

أَحضر أحد أقارب سعادته إلى مسكني قِطعاً من جهاز حصان لتكون ملحقاتٍ للخيل المعدة للحاكم العام ، وقد أرسلها الخازن محلولة ومكشوفة . تتألف هذه القطع من عِذار وطوقٍ صدريٍ وحِلسٍ عليها طلاء من الذهب والفضة بالإضافة إلى زوجٍ من ركاب فضي . ولا يستطيع الناظر إلى الحِلسِ أن يُغمض عينيه عن حالته البالية ومظهره الممزق ، وهذا يوحي بلا شك إلى أنه عاد على سعادته بنفع كبير في مناسبات كثيرة مضت . ثم إني لم أتوقع أن إدْلائي برأيي في موضوع سبق لي أن استشرت به سيعرضني إلى خطر ارتكاب ذنب يخالف مبادئ الأدب عند الأتراك . وما أظن أن تصرفاتهم هذه يسوغها الجهل المطبق الذي يهين عليهم ، فقد طلبت من حامل الملحقات أن يعود إلى الوزير بصحبة رجلٍ سيحمل له رسالة بصدد هذا الموضوع ليعلمه « أني أرى تأجيل قبول جهازِ السرج إلى أن تُفسح لي فرصة لإجراء نقاش معه ، لذلك طلبت أن أُعلم متى وأين

سأتشرف بزيارته » . وعندما عاد الرسول إلى سعادته أمره بتوصيل القطع إلى الخازن ريثما يُجري بعض النقاشات مع الوزير . أما من جهتي فإنه لم تسنح لي فرصة مناقشة الموضوع مع وزيره لأنه لم يعلِمني عن وقت مناسب يمكنه أن يستقبلني فيه .

عندئذ استدعي حكيم باشي طبيب معاليه الذي كان يعمل كمترجم لكي يطلعهم على الدوافع أو الخلفيات التي تكمن من وراء اعتراضي . فأطلعت ذلك الرجل على تلك الظروف وطلبت منه أن يبلغ سعادته استعدادي لأن أخدمه فأقدم الإيضاحات إليه شخصياً ، لكن معاليه فضل أن تكون عن طريق المترجم ، فتقدمت بما يلي : « إن الجُلّ ليس من المُتمِات الضرورية ونظراً لعدم التمكن من الحصول على جُلٍّ جديد أو في حالة شبه جيدة فإن من الأليق الاستغناء عنه » . وفوضت المترجم في حالة احتياج سعادته إلى إيضاحات أكثر أن يقدم له رأيي ، « بأن القِطع التي سبق أن كانت قيد الاستعمال لا يمكن أن تعتبر هدية مناسبة لرجل نبيل يشغل ذلك المنصب الرفيع في ظل الحكومة البريطانية ، كالذي يشغله النبيل هاستينغز الآن » .

أمر سعادته حكيم باشي بأن ينقل إلي الرسالة الشفهية التالية : « إنه نظراً لكوني قدْ قدمت اعتراضاً بصدد موضوع تجهيزات الحصان فإن سعادته قد أمر بإنزال الخيول من الزورق ، وقرر إلغاء الإجابة على الرسائل ، لذلك أمر بإتلافها ، وإنه يأمرني بالرحيل غداً في الزورق الذي أُعد لنقلي إلى مخا ، وإنه سيوجه رسالة إلى الحاكم العام لدى وصوله إلى القاهرة رادّاً معها السيف الذي أهدي إليه » .

لم يبق سوى جواب واحد يمكن أن يقدم لهذه الرسالة : « كنت قبلت تجهيز الزورق لو كانت الظروف على غير هذا الحال ، فينبغي عليَّ الآن أن أدبِّر مركباً

على حسابي الخاص لينقلني إلى المقصد الذي أفضله لنفسي ، وفي التوقيت الذي يتناسب مع مصلحتي » .

وفي صباح اليوم السابع عشر من تشرين الثاني أبحر سعادته من جدة متوجهاً إلى قُصير ، وهي ظاهرة تبدو مخالفة لما رتبه معي من قبل حيث كان يبغي العودة إلى ينبع ، وهو المكان الذي لو انتظرته فيه لتجنبت معاناة الشعور بالخزي من جراء مشاهدة التغير الغريب الذي طرأ على تصرفات سعادته منذ اللحظة التي اكتشف فيها أن هدف مهمتي لا يمكن أن يتحول إلى مصلحته الخاصة .

ولقد كان من سوء طالعي أن وقَعَتِ القرعة علي للتعرف على الملامح القيادية في شخصية إبراهيم باشا من خلال ملاحظاتي الشخصية التي ينبغي علي أن أضيف إليها أن الواقع التاريخي العام للحملة الأخيرة التي عُهد بها إلى تدبيره يعرض سلسلة لأبشع الأعمال الوحشية والهمجية التي ارتكبت لتدنس العقيدة التي تتسم بأعلى درجات القداسة في تعاليمها وتوجيهاتها . كان يرتكب تلك الوحشيات في بعض الأحيان بهدف إثراء نفسه بنهبه للقبائل نفسها التي كانت قد أسهمت في تحقيق نجاحاته ، وكان في حالات أخرى يهدف إلى وضع يده على ثروات أعدائه المقهورين لمجرد أنهم حجبوا أنفسهم عن الأنظار في لحظة غضبته . فبعد تضليله لأولئك البائسين تعيسي الحظ بأعدل الوعود إذ بهم يقعون ضحايا تصرفاته الجشعة وتعطشه الذي لا يرتوي إلى سفك دماء البشر .

لي الشرف أن أُعلم مجلسكم الموقر أني قد ذكرت للسيد صولط دقائق هذه الأحداث ، يدفعني إلى ذلك أمل في أن يلقي معالي نائب الملك نظرة على سلوك ابنه وقائده من خلال الأضواء التي يستحق أن ينظر بها إليه ، فلعل نفسه تميل إلى التعبير عن عدم رضاه باحتجاجات ينبغي أن تثيرها تلك السلسلة من التصرفات . لذلك سأتأخر في إقامتي بجدة إلى وقتٍ أتوقع فيه أن أتلقى جواباً

من مصر أو أسمع عن وصول مركبٍ من الهند ، لكن الاحتمال الأخير ينـدر توقعـه في هذا الفصل .

جدة ، ١٨ تشرين الثاني

(نوفمبر) ١٨١٩

٢٣ نيسان (أبريل) ٦٨

تعليقات المحقق

١ ـ قول الناشر الأول باللغة الإنكليزية مستر ب . ريان راسك سكرتير حكومة الهند البريطانية آنذاك : (لتخفيض أعمال القرصنة الوهابية ... إلخ) هذا الاتهام الباطل لاأساس له من الصحة إذا نظرنا إلى الأمور بمقاييس العدل والإنصاف فالحق أن يكون هذا الاتهام موجهاً إلى كاتبه وإلى حكومته الاستعمارية التي أتت بأساطيلها من تخوم القطب الشمالي لتفرض استعمارها وهيمنتها على بلاد الهند وعلى أقاليم الخليج العربي وما كان يقوم به عرب الخليج من أتباع الوهابية مثل الجواسم وغيرهم ليس إلا دفاعاً عن خليجهم ومياهه وأراضيه ولا يجوز وصف الدفاع المشروع عن النفس بالقرصنة .

٢ ـ بخصوص سيرة المؤلف سادلير وحياته في بدايتها أو آخرها ، يمكن الرجوع إلى كتاب (جورج فورستر سادلير) تأليف إف . إم . إدواردز طبعة عام ١٩٥٧ ص ٣٨ ـ ٤٩ وقد اعتزل العمل في الجيش عام ١٨٣٧ وأصبح عمدة لبلدته (كوك) وفي نحو عام ١٨٥٥ هاجر إلى نيوزيلندا حيث توفي في أزكلانديوم ٢ / ١٢ / ١٨٥٩ م نقلاً عن كتاب بريطانيا والخليج لجون ـ كيلي ـ الجزء الأول ص ٢٥٢ .

٣ ـ قول المؤلف سادلير : (لأقدم رواية عن بطولات سعادة إبراهيم باشا ..... إلخ) أقول : وصَف المؤلف الإنجليزي جرائم إبراهيم باشا في نجد بالبطولات ، هذا الوصف المجازي بحاجة إلى وقفة وتأمل .. فالبطولات الحقيقية ليست جرائم هذا الغازي الدموي ضد أبناء دينه وملته وهم الذين قام على أكتافهم

الإصلاح الديني الشهير في جزيرة العرب بعد ما كان الناس بعيدين كل البعد عن جوهر الإسلام الحقيقي فأصبحوا يتمسحون بالقبور ويتشفعون بالأموات وتركوا أركان الإسلام وعقائده . ولكن لا نستغرب من هذا المستعمر سادلير هذا الوصف إذ هو وحكومته يشاركون إبراهيم باشا العداء للمسلمين وقوتهم الصاعدة آنذاك ولو أن إبراهيم باشا اقترف جرائمه تلك ضد أعداء الإسلام من إنكليز وإسبان وأوربيين وغيرهم ممن اعتدوا على ممالك المسلمين في الأندلس والخليج العربي وبلاد الهند المسلمة لو أنه قام بعملياته تلك ضدهم واسترجع أراضي المسلمين لكان من الحق أن توصف أعماله بالبطولات أما ضد أبناء دينه وملته فلا . وعلى كل حال فإن سادلير قد غَيَّر رأيه هذا بعد ما اطلع بنفسه على الجرائم والدمار الذي أحدثه الباشا في نجد ووصف أعماله الهمجية تلك بأشنع الصفات ، وتجد ذلك كله في الفصول الأخيرة من الكتاب .

٤ - بالنسبة لشقرا ماذكره بنكرتون هو الصحيح وإليك ماذكره عنها المؤرخ النجدي ابن بشر في كتابه (عنوانه المجد في تاريخ نجد) ص ١١١ طبعة وزارة المعارف السعودية عام ١٩٧١ فقد ذكر في حوادث ١٢٠٦ هـ فقد قال : (وفيها كانت غزوة شقرا وذلك أن سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود) سار بجنوده المنتصرة من البادي والحاضر وقصد ناحية جبل شمر ، وكان قد ذكر له أن قبائل كثيرة مجتمعة من عربان مطير وعربان حرب وغيرهم على الماء المعروف بالشقرا قرب جبل شمر ، فأغار عليهم وصبحهم فيها وأخذهم جميعهم وحاز منهم أموالاً عظيمة من الإبل والغنم والأمتعة والأزواد ، وأخذ منهم أكثر من عشرين فرساً وقتل منهم عدة رجال ، ثم رحل سعود بجميع الغنائم وأخرج خمسها وقسم باقيها غنيمة في المسلمين . للراجل سهم وللفارس سهمان) .

أما شقرا أو شقرة التي مَرَّ بها سادلير وأشار إليها فهي قاعدة منطقة الوشم بنجد مدينة عامرة متقدمة وهي الآن تضم مدارس للبنين والبنات ، والمرافق

الحكوميـة المتعـددة ومستشفى كبير ، وملتقى طرق : (الحمـادة) و (أشيقر) وطريق (الرياض - الحجاز) وفيها سوق عامرة وحركـة عمرانيـة وتقع (شقراء) من منطقـة (الـوشم) في وسطهـا الغربي تحت (الصفراء) وأكثر قرى (الـوشم) جنوبها .

وكان مكانها قبل ذلك لآل مغيرة من بني لام من طيء من كهلان القحطانية فـاشتراه منهم علي بن عطيـة من بني زيـد وعطيـة يرجع إليـه بطن كبير من بني زيد وهو جد الشيخ الكبير أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، فعمر علي بن عطيـة هـذا (شقراء) هو وأولاده . (معجم اليمامة تأليف الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس - الجزء الثاني - ص ٥٩) .

أما الرياض : كجمع الروضة مأخوذ من طبيعتهـا وتكوينهـا ، فلقـد كانت ذات يوم من الأيـام مـدفع سيـل وادي (الـوتر) ، و (البطحـاء) الآن في هـذا المستقر الرحب الـذي يحـده من الشمال حزن (الوشـام) ، ومن الغرب حزن (أم سليمـة) و (الشميسي) ، ومن الجنـوب حـزون ومرتفعـات متطـامنـة ممـا يلي (مقرن) وظهرة (منفـوحـة) وحـزن (خنشليلـة) ومن الشرق جبـل (أبـو غارب) وحزون (الملز) .

ويتخلل هذه الرحبة الواسعة حزون ومرتفعات وقفـاف تقسمهـا إلى ريـاض ومستقرات مياه و (خوابئ) . ومن ثم سميت الريـاض .... كانت هكـذا قبل أن يتخذ منهـا مزارع و (مبـاعل) تـدرجت إلى نخيل وبسـاتين يحوط أكثرهـا سور بناه (دهام بن دواس بن شعلان من المزاريع أهل منفوحة في السابق) وذلـك في أول القرن الثـاني عشر الهجري وكانت المـدينـة صغيرة محـاطـة بسور لـه أبـواب ، وهي : بـاب الشميري ، بـاب القري ، بـاب دخنـة ، وبـاب منفـوحـة ، وبـاب المريقب وباب المذبح وباب آل سويلم ، وباب الظهيرة .

وأما أحياء مدينة الرياض فهي : الظهيرة ودخنة والحلة والمريقب والمعيقلية والقري وحلة الأجناب والدحو .

والرياض قامت على أنقاض مدينة حجر اليمامة المشهورة وتعاقب على حكمها زيد بن موسى آل زرعة من قبيلة بني حنيفة وأسلافه ثم خلفه ولده وكان طفلاً أشرف على أموره مولى لهم يدعى خميس استمر على ذلك ثلاث سنوات ثم قتل خميس فإستقل بالأمر بعده (دهام بن دواس) الآنف الذكر وذلك حوالي سنة ١١٥٠ هـ وكان خالاً للحاكم الصغير ، استقل بالأمر وصياً على ابن أخته لكن سلطة الحكم ونشوته جعلته ينفرد بالأمر لنفسه ويحكم هذه البلاد ما يقرب من ثلاثين سنة وبنى فيها قصره المشهور الذي أشار له راكان بن حثلين بقوله :

ولا رازنا إلا نور قصر بن دواس   اللي جنوده مثل وصف الجرادي

وهو يعني الإمام عبد الله الفيصل آل سعود ويصفه بأنه (نور قصر بن دواس) مدحاً وتبجيلاً له وأشار إلى ذلك أيضاً الشاعر البليغ الذائع الصيت عبد الله بن ربيعة بن وطبان المريدي بقوله :

يا ركب لا جيتوا منازل دهاما   وبدا لكم من ناعس الطرف نباب

وفي عام ١١٨٧ هـ هرب منها ليلاً دهام بن دواس وانقطعت أخباره وذلك بعد حرب ضروس بينه وبين آل سعود استمرت ثمانية وعشرين عاماً فلما سئم حزبهم وعجز عن مدافعتهم قرر الهروب هو ومن تبعه فاستولى عليها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود المريدي الحنفي وعين عليها أميراً عبد الله بن مقرن بن محمد بن مقرن واستمرت في ملكهم إلى أن غزا إبراهيم باشا نجداً ودمر العاصمة الدرعية . وفي سنة ١٢٤٠ هـ استولى عليها الإمام تركي بن عبد الله آل سعود وجعلها عاصمة لملكه ثم استمرت عاصمة للملكة السعودية إلى هذا اليوم .

وأميرها الآن صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود وتشمل إمارته منطقة واسعة جداً تبدأ من وادي الدواسر جنوباً إلى مدينة الزلفي شمالاً ومن بلدة عفيف غرباً إلى منطقة خريص شرقاً ومنذ استعادة المرحوم الملك عبد العزيز لها سنة ١٩٠٢ ميلادي إلى اليوم وهي في تطور واتساع هائل في شتى النواحي والمجالات ، ويبذل أميرها الشهم الكريم سلمان بن عبد العزيز الكثير من جهده ووقته ورعايته في سبيل تقدمها ورقيها ، كما كانت موضع رعاية ملوكها العظام عبر تعاقبهم الحكم فيها وهي اليوم موضع رعاية صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله وهي عاصمة ملكه السعيد ولا يألو جلالته جهداً في سبيل رقيها وإسعادها كما هو شأنه مع سائر مدن وقرى المملكة ، وهي مقصد الوفود والزوار والضيوف من شتى الأصقاع لما يجدون في رحاب ملوكها وأمرائها آل سعود من غامر التكريم وحسن الوفادة والإعزاز ، فلا تعجب إذا ذهبت للرياض وبحثت عن غرفة في فنادق الدرجة الأولى فلا تجد ، فستسمع من صاحب الفندق أن غرفه محجوزة لضيوف جلالة الملك وهم يبلغون في أكثر أيام السنة الآلاف ، ففي سنة ١٩٧٧ م توجه والدي طيب الله ثراه غانم بن محمد بن جمران للسلام على المرحوم جلالة الملك خالد بن عبد العزيز بعدما تلقى إذناً ودعوة من الديوان الملكي عن طريق السفارة السعودية في الكويت وكان الملك قد عاد يومئذ من العلاج بالخارج وذهبت مرافقاً له وعند وصوله الرياض وجدنا غرفته وقد حجزتها له التشريفات الملكية في فندق اليمامة أشهر فنادق الرياض آنذاك ، ولقد عجبت حين علمت أن غرف ذلك الفندق محجوزة بالكامل لضيوف جلالة الملك خالد وأن هذا حال فنادق الدرجة الأولى أكثر أيام السنة ، وهذا أمر لم نعهده لدى حكام هذا العصر الآخرين .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

(لاحظ معجم اليمامة الآنف الذكر الجزء الأول ص ٤٩٠)

الدرعية :

وليست درعية كما يكتبها المؤلف الأجنبي ، فهي بكسر الدال وإسكان الراء وكسر العين فياء مشددة مكسورة فهاء .. نسبة إلى الدروع ، وهم بطن من بني حنيفة ، إما نسبة إليها ابتداء وإما منقولة عن قرية في الخط اسمها الدرعية قد بادت ، وكان يسكنها قوم من الدروع هنالك فنسبت إليهم ... ولما استوبؤوها وأنهكتهم حماها جاؤوا إلى بني عمهم في وادي حنيفة (حجر) و (الجزعة) وما فوق الرياض ، وكان يرأسهم رئيس يقال له (ابن درع) وكان يرأس الوافدين (مانع المريدي) جد الأسرة السعودية وهو الجد الثالث عشر للملك عبد العزيز وكانت هذه الوفادة فيما يقدر المؤرخون سنة (٨٥٠ هـ) فأقطعه ابن عمه ابن درع منطقة (المليبيد) و (غصيبة) وما بينهما وابن درع ومانع المريدي ابنا عم من قبيلة بني حنيفة ، أما آل يزيد من بني حنيفة أيضاً فكان لهم مافوق هذه المنطقة من (سمحة) إلى (الوصيل) و (النعمية) و (الجبيلة) وما حول ذلك ، أما مافوقه من (الجبيلة) إلى (الأبكين) إلى (الشعب) حريملاء وما حولها فهو لابن طوق جد آل معمر من تميم .

ولم يزل أبناء مانع المريدي وحفدته ينمون ويزدادون قوة ومنعة وعدداً حتى زحموا آل يزيد في الوصيل ، وبعد قتال أصبحت الغلبة لذرية مانع ، فسيطروا على هذه المنطقة وأصبحوا حكامها ، ومن يومئذ قويت شوكتهم وامتد نفوذهم وكان لهم شأن ، وأصبحت الدرعية منافساً قوياً في هذا الوادي .

وبعد وفاة مانع استقل بالحكم من بعده ابنه ربيعة ، وفي عهده وقعت حروب ومناوشات بينه وبين آل يزيد في الوصيل ، تغلب في النهاية عليهم وضم أرضهم إلى إمارته .

ولم تزل هذه السلسلة تتوارث الإمارة في الدرعية إلى أن استقل بإمارتها محمد بن سعود بن محمد بن مقرن المريدي الحنفي . وكان الحكم قبل ذلك في ذرية وطبان ، فقتل محمد بن سعود عمه مقرن الملقب (فهاد) بن محمد بن مقرن واستقل يومئذ بالحكم وأجلى آل وطبان من الدرعية وكان ابتداء إمارة محمد بن سعود سنة ١١٣٩ هـ ـ وهو الذي استقبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧ هـ ـ حسبما ذكر المؤرخ ابن بشر وقيل بعد هذا التاريخ في أقوال مؤرخين آخرين .

ثم تتابعت سلسلة الحكام من لدن محمد بن سعود فابنه عبد العزيز فابنه سعود فابنه عبد الله الذي حدث في عهده غزو إبراهيم باشا لنجد حسبما يروي المؤلف سادلير في هذا الكتاب . والدرعية كانت هي عاصمة الدولة السعودية الأولى حتى تم تدميرها على يد إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ هـ على الصورة التي رآها سادلير بنفسه بعد خرابها بشهور .

(لاحظ معجم اليمامة السالف الذكر حرف « د »)

الحناكية :

ماء معروف في تلك الناحية يمكن أن الحناكية كانت في زمن المؤلف منهل من المناهل ، أما الحناكية اليوم فهي قرى ومزارع ونخيل سكنتها جماعة من بني عمرو بن حرب ولفيف من غيرهم والحناكية تقع على جانب الخط الأيمن المتجه من القصيم إلى المدينة المنورة وتبعد عن المدينة المنورة مائة وخمسة عشر كيلو متراً وقد ذكر المعلق على كتاب المناسك للحربي صفحة / ٣٦٥ / حاشية (١) أن بطن نخل هو ما يسمى الآن بالحناكية وسبقه إلى ذلك صاحب كتاب لمع الشهاب ، وذكر صاحب الأخبار أن الحناكية هي الرَّبَذَة وكلا القولين مجرد تخرص وتخمين .

٥ ـ مسقط : ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان وقد توفي ياقوت سنة ٦٢٦ هـ في مدينة حلب . قال في الجزء الخامس ص ١٢٧ : (ومسقط أيضاً : مدينة من نواحي عمان في آخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر) وهي عاصمة مملكة آل بو سعيد سلاطين عمان منذ القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم . كما وصفها مستر كيلي في كتابه (بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ـ ١٨٧٠ م) الجزء الأول ص ٢٦ بقوله : (لقد كانت مسقط بمثابة القلب للإمبراطورية التي أسسها السيد سلطان بن أحمد بن سعيد) وتقع مسقط على الساحل الشرقي لعمان حيث تلتقي سلاسل جبال الحجر التي تمتد من الجنوب الشرقي للحجر عند البحر ، وإلى الشمال يمتد سهل الباطنة ، بينما يمتد إلى الجنوب الصخري ساحل تتناثر عليه مجموعة من الجبال الصخرية أما مسقط نفسها فتحيط بها سلسلة من الجبال البركانية تعمل كسياج دفاعي لها من أي هجوم من الداخل .

وكتب الرحالة (بكنجهام) يصف رحلته إلى مسقط سنة ١٨١٦ بقوله : (إن سلوكهم على جانب كبير من الأهمية كما أنهم يتحلون بقدر كبير من الجدية وقلة الكلام ، ومع ذلك فإنهم مرحون وراضون عن أحوالهم أضف إلى ذلك دماثة طباعهم التي لولاها لكانت برودة مزاجهم منفرة للغير .

إن أهالي مسقط كما يبدو لي هم أنظف وأحسن هنداماً وأرق معاملة من جميع العرب الذين التقيت فيهم حتى الآن . وإن الإنسان ليشعر من أول وهلة يلتقي بهم بشعور الثقة والألفة وحسن النية من جانبهم .

كذلك فإن الأوربيين معجبون بما يكنه أهالي مسقط من الاحترام لممتلكات الآخرين ونشهد على ذلك بما جاء على لسان أحد وكلاء شركة ليفقانت الإنكليزية الذي أعرب عن دهشته في عام ١٧٥٥ م من أهالي مسقط حيث قال : إن هناك في الوقت الحاضر كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق

من غير رقابة أو حراسة عليها إذ لاتوجد مستودعات لخزنها ومع ذلك لم نسمع عن حادث سرقة أو سطو على هذه السلع أياً كان .

أما الإمام الذي قابله سادلير في مسقط حسب ماذكر في هذا الفصل عام ١٨١٨ م فهو سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد آل بوسعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦ م) كان مؤسس دولتهم جده أحمد بن سعيد (١٧٤١ - ١٧٨٣) من قبيلة آل بوسعيد موطنها الأصلي (أدم) الواقعة على أطراف المرتفعات الوسطى في عمان ، فإن أفراد هذه القبيلة كانوا تجاراً وكانوا يزاولون التجارة والملاحة على الشاطئ الشرقي لعمان وكان الإمام أحمد بن سعيد في المقام الأول تاجراً وأحد ملاكي السفن وبالتالي أصبحت القوة التجارية والبحرية في عهده أساس السيادة في عمان .

وبداية أمر أحمد بن سلطان هذا أنه عين والياً على بلدة صحار على ساحل عمان الشرقي من قبل إمام عمان في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي الإمام سيف بن سلطان بن سيف اليعربي من قبيلة اليعاربة سكان بلدة الرستاق وأسرة اليعاربة هؤلاء بدأ سلطانهم على عمان ١٦٢٤ م بانتخاب الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إماماً لعمان على مذهب الأباضية وحالف دولتهم حظ عظيم من القوة والسلطان وحرروا عمان والخليج العربي من الاستعمار البرتغالي وأصبحت عمان في عصرهم أكبر قوة بحرية في مياه الشرق .

أما أحمد بن سعيد المذكور فظل والياً على صحار تابعاً للإمام سيف بن سلطان إلى عام ١٧٤٣ ، وفي تلك الفترة حصل اضطراب شديد داخل عمان نتيجة لما كان يتصف به سيف من شخصية ضعيفة وغير مؤهلة للحكم فانتخب بعض العمانيين بلعرب بن حمير إماماً على عمان بدلاً من سيف مما نتج عنه حروب عديدة وقتال شديد بين سيف وبلعرب الأمر الذي اضطر سيف للاستنجاد

بإيران التي سارعت لمساعدته وتثبيته في الحكم وقبل مضي وقت طويل ظهر في عمان منافس جديد على الإمامة هو سلطان بن مرشد الذي سرعان ما تمكن من طرد سيف من مسقط . ولقد فرَّ سيف لإيران حيث استنجد مرة أخرى بالفرس متعهداً للشاه بالتنازل عن مدينة صحار على طرف الساحل الشرقي للباطنة مقابل تأييده ولقد قام الفرس مرة أخرى بغزو عمان واجتياحها كما أعيد مرة أخرى تنصيب سيف إماماً على البلاد وقد لجأ سلطان بن مرشد إلى صحار ، واعتصم عند واليها يومئذ أحمد بن سلطان الذي رفض تسليم المدينة إلى الفرس وبذلك أصبحت صحار نقطة التجمع لكل العمانيين والمناهضين للاحتلال الفارسي .

وفي عام ١٧٤٣ قام أحمد بن سعيد بشن هجوم ضد الغزاة الإيرانيين وتمكن من تحرير منطقة الباطنة وإرغام الغزاة على التراجع والتحصن من وراء أسوار مدينة مسقط . وبعد عام من هذا التاريخ استسلمت هذه الحاميات للقائد الجديد وقد توفي الإمام سيف كمداً بسبب البلاء الذي أنزله بالبلاد والأهالي كما يقول نيبهور . كما قتل سلطان بن مرشد أثناء معارك الدفاع عن صحار .

ونتيجة لتلك الحروب الأهلية التي استمرت خمسة وعشرين عاماً والتي أنهكت القبائل العمانية وأثارت الآلام في نفسها حتى أصيبت بحالة من اليأس مما جعلها تتفق أخيراً في عام ١٧٤٩ على انتخاب أحمد بن سعيد إماماً عليها وبانتخاب أحمد بن سعيد يبدأ حكم أسرة آل بوسعيد لعمان ، وهو الحكم الذي استمر بغير انقطاع حتى وقتنا الحاضر .

(بريطانيا والخليج لمستر كيلي ص ٢٠)

أما المؤرخ العماني حميد بن محمد بن رزيق المتوفى سنة ١٢٩١ هـ في كتابه (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين) وهو المصدر الهام والمرجع الأول في تاريخ البوسعيد ، فقد ذكر نسب مؤسس هذه العائلة بأنه : (أحمد بن سعيد بن

أحمد بن محمد السعيدي الأزدي العماني الاستقامي) ولم يوضح معنى (الإستقامي) ثم أضاف : (أباضي المذهب) ثم قال : (وكان انتقال ملك اليعاربة إلى أحمد بن سعيد سنة ١١٥٤ هـ (أي سنة ١٧٤١ م)

(ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠)

أما الإمام سعيد بن سلطان الذي قابله سادلير وتحدث عنه في هذا الكتاب فقد أرخ له ابن زريق في كتابه السابق الذكر بشكل مفصل بدأ من ص ٤٦٠ إلى ٥٧٨ من نفس الكتاب وهو معاصر له وذكر جميع أحداث عصره بولاء ظاهر وميل له واضح . وقال عن تاريخ مولده ووفاته ما يلي : (ولد السيد الحميد الهمام سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي الأزدي سنة الست والمائتين والألف بلا خلف في بلدة سمايل وتوفي في اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة الثلاثة والسبعين والمائتين والألف من الهجرة السنية النبوية ، فكان سنه من البداية إلى النهاية سبعاً وستين سنة ، وكانت وفاته لما انفصل عن بلدة مسقط إلى بلدة زنجبار ، في مركبه المسمى (لك توريا) على بحر سيشل ، فغسل وكفن وصلي عليه في المركب المذكور ووضع في صندوق من خشب وأخذ المركب المذكور في سيره ستة أيام من سيشل إلى زنجبار ودفن في حديقة بيته الذي يسكنه بزنجبار ليلاً ، وقعد ولداه ماجد وبرغش في التعزية للناس ثلاثة أيام (وسلطان عمان اليوم من سلالته وهو السلطان قابوس بن سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد السعيدي) المحقق .

٦ ـ ليف بن سعدون ليس هذا اسمه الصحيح فقد أخطأ فيه سادلير وصحته (سيف بن سعدون وقال عنه : ابن بشر في عنوانه (المجد) طبعة وزارة المعارف ص ٢٨٦ الجزء الأول مانصه : (وهرب سيف بن سعدون رئيس السياسب من الأحساء ، وهرب معه رجال من أتباعه ومن الأعيان ، وركبوا البحر) .

٧ ـ الجواسميون (أو القواسم) هم حكام رأس الخيمة والشارقة على ساحل عمان وحكام لنجة على ساحل إيران في ذلك الزمن ١٨١٨ م واليوم انحصر حكمهم في رأس الخيمة والشارقة بعدما استولت إيران على لنجة وتوابعها في مطلع القرن العشرين ولفظ سادلير لهم بالجواسميين يتطابق مع لفظ أهل الخليج لهذا الاسم حتى اليوم وهو نسبة إلى جدهم الأعلى جاسم وصحته قاسم ، وهذه الأسرة المجاهدة سجل لها التاريخ نضالاً مشرقاً ضد الاستعمار البريطاني منذ القرن الثامن عشر الميلادي عندما بدأت أطماع الإنكليز في الخليج العربي وخاض الجواسميون نضالاً عنيفاً ضد الإنكليز بحراً وبراً رغم تفاوت الأسلحة والقوى العسكرية بين الطرفين وألحقوا بالإنكليز خسائر جسيمة في كثير من المعارك لمنعهم من بسط سيطرتهم على منطقة الخليج العربي وشل تجارتهم نظراً لما لمس فيهم الإنكليز من البسالة والشجاعة والقوة اضطروا إلى إرسال سادلير لطلب نجدة من إبراهيم باشا ومن سلطان عمان سعيد بن سلطان على النحو الذي يشرحه سادلير في كتابه هذا .

يقول كيلي في كتابه بريطانيا والخليج : (إنَّ مؤسس دولة الجواسم شيخ يدعى جاسم وكان قد نصب خيمته لأول مرة في منطقة من الأرض مرتفعة قليلاً عن شاطئ البحر بحيث تبدو بارزة لجميع السفن العابرة ، مما دعا الملاحين إلى تسميتها برأس الخيمة وبمضي الوقت تحول الاسم ليدل على البلدة التي تأسست في المنطقة وكانت رأس الخيمة أو (جلفار) كما كان يطلق عليها الفرس هي قاعدة السلطة) ص ٣٨ ج ١ .

ويقول كيلي ص ٣٥: (ينتمي الجواسم إلى المذهب السني في الإسلام وبالتالي فإن ولاءهم السياسي إلى جانب الفرع الغافري من القبائل العمانية ، كذا لم تتوفر معلومات أكيدة عن الانتماءات الأصيلة للقواسم فبعض المصادر يردون نسبتهم إلى قبيلة نزار وهي فصيلة من بني غافر هاجرت إلى عمان من نجد في أواسط الجزيرة العربية في نحو القرن السابع عشر ، بينما رجح مصدر آخر أن يكون موطنهم هو

الميناء التجاري الفارسي القديم (سيراف) الذي لم يعد له وجود الآن وتقول رواية إن الفئات التي هاجرت بعد ذلك المكان توجه بعضها إلى مسقط في عمان (حيث كانوا يسمون هناك بني السيرافي) كما استقر بعضهم في صور وتوجه قسم آخر منهم إلى منطقة السرفي رأس الخيمة أما القواسم أنفسهم فيقولون إنهم نزحوا أصلاً من فارس . بينما يرجح البعض أنهم جاؤوا من العراق عن طريق فارس (ويؤيد الكولونيل إس . بي . مايلز وهو الحجة البريطاني في شؤون عمان الرأي القائل بأن أصل القواسم من فارس) ويقرر بأنهم فرع من (عرب) الهولة الذين استوطنوا الساحل الفارسي قديماً ثم نزحوا منه إلى الساحل العربي خلال القرن الثامن عشر . فإذا صح هذا الرأي فإنه يعني بأن القواسم قد صعدوا إلى السلطة بسرعة ملحوظة جداً ، وذلك في أعقاب الفوضى التي عمت فارس بعد وفاة نادر شاه ملك فارس عام ١٧٤٧ م فاستولوا على لنجة الواقعة على الساحل الفارسي كما احتلوا جزيرة قشم القريبة من لنجة) غير أنهم طردوا منها سنة ١٧٦٥ م بعد تسليم كريم خان سلطة الحكم في فارس .

وبعد وفاة كريم خان عام ١٧٧٩ عادوا إلى قشم بعد استيلائهم على لنجة من جديد ووصفهم أحد أعضاء بعثة المسح بقوله : ولأنهم تدربوا على استعمال الأسلحة منذ نعومة أظفارهم وبحكم صلابتهم وتعودهم على الحرمان والمتاعب والأخطار ، فمن الطبيعي أن يشبوا شجعاناً مغامرين .

وقال كيلي : (هذا على الرغم من أن شهرتهم بالشجاعة إنما تعود في المقام الأول إلى صراعهم الطويل ضد حكام آل بوسعيد على تعاقبهم) . كيلي ص ٣٥ ج ١.

وأقول تعليقاً على ذلك : إن شهرة القواسم بالشجاعة لا تتوقف على صراعهم الطويل مع آل بوسعيد فقط وإنما أيضاً على صراعهم العنيف والبطولي عشرات السنين مع الغزاة الإنكليز الذين أرادوا أن ينهبوا خيرات الخليج العربي وساحل

عمان و يفرضوا سلطانهم عليه ذلك الكفاح الذي ألبس القواسم تاجاً من الفخر والبطولة ، ورداً على ماذكر كيلي حول أصلهم فهم عرب أقحاح لاجدال في ذلك وبالنسبة لسكان الساحل الشرقي للخليج فقد زارهم الرحالة الغربي الشهير نيبور سنة ١٧٦٥ م وأكد بصورة قاطعة أن سكانه جميعهم من القبائل العربية من أهل السنة ، وهذه القبائل تنتشر على طول الساحل الشرقي من المحمرة إلى مابعد لنجة ولسانها عربي صرف . وحتى هذا اليوم لاتزال أغلبية تلك القبائل العربية قاطنة ذلك الساحل ونذكر أسماء بعضها على سبيل المثال : النصور والحرم وبنو تميم والدواسر وبنو هاجر وآل علي وآل حماد والمطاريش وغيرهم .. وتحية للقواسم أهل البطولة والفداء .

ومن المعلوم أن العتوب كان موطنهم القديم بندر كنك ودليمة على قرب من لنجة بالساحل الشرقي خلال القرن الحادي عشر هجري وما قبله وزيادة في الإيضاح أجد من الفائدة إيراد ماذكره السيد جون . ب . كيلي في كتابه السابق الذكر ج ١ ص ٦٩ عن قدم وجود القبائل العربية على امتداد الساحل الشرقي للخليج العربي فقد قال بالحرف الواحد :

(كما أن جميع الجزر الواقعة على الساحل الإيراني من خاركو وخراك شمالاً إلى هرمز ولاراك جنوباً تعتبر أراضٍ فارسية « ! » رغم أن كثيراً منها تحت سيطرة القبائل العربية فلقد كان العرب يسيطرون على أغلب موانئ الساحل ، وكانوا يعتمدون في معيشتهم على صيد السمك واستخراج اللؤلؤ والتجارة وزراعة النخيل والحبوب .

وكان كل ميناء يخضع لسلطة أحد المشايخ الذي يتم انتخابه من جانب القبيلة التي تعتبر مسؤولة عن حمايته ، وبعض هذه القبائل كقواسم لنجة كانت تربطهم علاقة نسب مباشرة مع قبائل الساحل المواجه ، كما أن معظمهم سنيون ومعادون بشدة للشيعة الفرس وكان كلما حاول الفرس إخضاعهم لسلطتهم

انسحبوا بمراكبهم إلى بعض الجزر المطلة على الساحل حيث يبقون هناك ريثما تسمح الظروف بعودتهم إلى المناطق التي جلوا عنها . وقد شبه المؤرخ نيبهور وضعهم بوضع المدن الإغريقية الحاكمة ولم يكن ينقصهم غير شعراء ومؤرخون ليمجدوا أعمال السلب والنهب التي كانوا يمارسونها . حتى أن فاتحاً جباراً كنادر شاه لم يفلح في إخضاع الساحل العربي ، رغم الأسطول الذي أنشأه لتحقيق ذلك الهدف وفي أواخر أيام حكمه صمم على تهجير سكان الساحل إلى شواطئ بحر قزوين واستبدالهم بقبائل من تلك المنطقة غير أن هذا المشروع لم ير النور بسبب وفاة الإمبراطور . ولقد حاول كريم خان مؤسس دولة الزند وأبرز حكام الفرس والمنطقة الجنوبية من فارس منذ عام ١٧٦٥ م حتى عام ١٧٩٥ م وضع حد للاستقلال الذاتي للأقاليم العربية وعلى الرغم من نجاحه في إخضاع بعض المقاطعات بما فيها بندر عباس وبوشهر لبعض الوقت إلا أن نجاحه هذا لم يستمر لعدم وجود أسطول بحري قوي يعزز تلك المحاولات . وعند وفاته في عام ١٧٧٩ انتفضت القبائل الساحلية على حكم شيراز وظلوا خلال العشرين عاماً التي أعقبت ذلك يرفضون الاعتراف بسلطة أي حاكم عليهم فيما عدا شيوخهم القبليين) .

(كيلي ص ٦٩ ـ ٧٠ ج ١)

٨ ـ رأس تنورة اليوم أصبحت ميناء رئيس للنفط السعودي على الخليج العربي . والظهران : أصبحت كذلك المركز الرئيسي لشركة أرامكو للنفط وهي اليوم مدينة عامرة بالسكان والعمران وفيها كلية الظهران للبترول كما يوجد فيها أيضاً مطار الظهران وتقع بجوار الظهران مدينة الخُبَر وهي مدينة عامرة بالأسواق التجارية والنشاط التجاري أما الدمام : فقد أصبحت أيضاً مدينة وعاصمة للمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وفيها مقر حاكم المنطقة الشرقية سمو الأمير عبد المحسن بن عبد الله جلوي آل سعود ، والدمام تقع شمالاً من مدينة الخبر والظهران أما رحمة بن جابر بن عذبي الجلاهمة العتبي ـ وهذا اسمه

الكامل ونسبه الصحيح - فهو أشهر من أن يعرف ، فهو شيخ وزعيم عتبي من قبيلة بني عتبة وهو ابن عم آل صباح وآل خليفة فجميعهم عتوب نسبة إلى جدهم الأعلى عتبة ، وكان موطنهم القديم في القرن الحادي عشر الهجري وما قبله في بندر كنك ودليمة على الساحل الشرقي للخليج العربي قرب ميناء لنجة وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري انتقلوا إلى البحرين بواسطة السفن واستوطنوها فترة من الزمن وفي سنة ١١١٣ هـ حصل بينهم وبين قبائل أخرى من عرب الهولة خصومات ومصادمات دامية بإيعاز وتحريضٍ من حاكم البحرين الفارسي الشيعي ، مما اضطرهم إلى التوجه واللجوء مع قبيلة عربية أخرى حليفة لهم تسمى (الخليفات) إلى البصرة التابعة للسلطان العثماني تحت سلطة واليها علي باشا وقد سمح لهم ذلك الوالي بأمر من السلطان بالسكن في طوارف البصرة بالذات في أم قصر وربما الصبية جنوب أم قصر وقد أكد هذه الحقائق وأقرها كل من علي باشا والي البصرة في الوثيقة التاريخية الآتي نصها كما أكدها المستر فرانسيس واردن ممثل الحكومة البريطانية في الخليج في كتابه (لمحة عن العتوب) والذي كتبه قبل عام ١٨١٩ م كما اتفق معهما على هذه الحقائق التاريخية المؤرخ الكويتي المرحوم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه (صفحات من تاريخ الكويت) وبناء على ذلك فإن ماذكره النبهاني ونقله عن ابن أرشيد في كتابه غير صحيح ولا يستند إلى أية حقيقة أو مرجع تاريخي خاصة وهما من المحدثين وتوفيا منذ قريب في آخر القرن الرابع عشر هجري وهو زعمهما أن العتوب كان موطنهم الأصلي منطقة الإفلاج في جنوب نجد وما أورداه من وصف خيالي لنزوحهم إلى سواحل الخليج وما اخترعاه من أحداث لا صحة لها وهما لم يستندا في أقوالها إلى أية وثيقة تاريخية أو كتاب أو مرجع كان ولا يجوز علمياً التعويل على ماسطراه من أخبار وقصص لا صحة لها .

وبالرجوع إلى ماذكرته كتب الأنساب الموثوقة والقديمة نلاحظ ما يلي :

قال القلقشندي المتوفى عام ٨٢١ هـ في كتابة (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) ص ٣٢٢ : (بنو عتبة بطن من بني رياح بن هلال بن عامر بن صعصعة) ثم قال في ص ٢٤٩ : (بنو رياح بطن من بني هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية) ، قال ابن سعيد : ومساكنهم في إفريقية بنواحي قسطنطينة والمسيلة والزاب ، قال في مسالك الأبصار : وهم فرقة كبيرة وفيهم كان ملك العرب القديم ببلاد المغرب وذكر أن مشيختهم كانت في زمانه ليعقوب بن علي بن أحمد وكان أبوه في غاية من الكرم بعث إليه سلطان إفريقية بثلاثين جملاً من البزّ الرفيع والتحف السنية فوهبها لثلاثين من المستحقين . قال : ويجاوره خلوف بن عموش ، ونطاح أخوه وهم أهل إبل يكون عند الرجل منهم نحو ستين ألف بعير .

وذكر أنه حدثه بذلك الشيخ أبو يحي المغربي الإمام بالقصر الشريف السلطاني ثم قال : والعهدة عليه في ذلك) .

ومن المعلوم لدى الخاص والعام أن قبيلة بني هلال المشهورة كانت تقطن نجد والحجاز هي وقبيلة بني سليم وكلاهما من العدنانية وربما بضغط من بني الأخيضر حكام نجد الزيديين في منتصف القرن الخامس الهجري ولأسباب اقتصادية هاجرت أكثرية بطون هاتين القبيلتين إلى مصر في خبر مشهور ذكرته كتب التاريخ أيام حكم الفاطميين لمصر والحجاز ثم انتشروا في أقطار المغرب العربي كما هو معروف .

ومن المعروف أن قبيلة بني سليم المهاجرة لم تهاجر جميعها بل بقيت لها بقية لا تزال تحمل اسمها أيضاً ولا تزال هذه البقية في الحجاز وهم سليم الحجازية ، وبطبيعة الحال فقد بقي من بني هلال بقية كذلك ولا شك أنهم بنو عتبة هؤلاء ومنهم حكام الكويت أبناء صباح بن جابر بن سليمان بن أحمد العتبي .

وحكام البحرين اليوم وهم أبناء خليفة بن محمد بن فيصل الفاضل العتبي ومنهم أيضاً الزعيم المشهور الذائع (رحمة بن جابر بن عذبي العتبي الذي يصفه كيلي في كتابه : بريطانيا والخليج) بأنه ابن شيخ المشايخ جابر بن عذبي .

(لزيادة الإيضاح حول نسب العتوب طالع ماكتبناه في تحقيق كتاب : الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر للشيخ محمد البسام التميمي ص ١١٣ الطبعة الأولى) .

ترجمة الوثيقة التي تؤكد تواجد العتوب في البحرين منذ سنة ١١١٣ هـ الموافق ١٧٠١ م : الوثيقة مؤرخة في ٢ رجب ١١١٣ هـ في أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في إسطنبول في دفاتر المهمة رقم الدفتر ١١١ ورقم الصفحة ٧١٣ .

من والي البصرة (علي باشا) إلى السلطان العثماني

نحيط علمكم السامي أن في البحرين التي يحتلها العجم (وقتئذ) أناساً على مذهبهم وللعجم اهتمام كبير بهذا المكان ويقيم في البحرين قبيلة العتوب والخليفات ويسكنون قرب بندر دلية وبندر كونك وكانوا سبع أو ثماني عشائر وكلهم عرب شافعيون وحنابلة وقد حلت بينهم الفتنة بين أهل البحرين وهؤلاء العشائر (الهولة) الذين يقيمون حول بندر (كونك) وقد قتل منهم كثيرون وكان التجار وأصحاب السفن يخافون أن يذهبوا إلى البصرة خشية منهم لأن (سفنهم) تمر من هذا البندر (الميناء) ومن رأى منهم سفينة يأخذها غصباً .

وفي أحد الأيام تقاتل العتوب والخليفات ومن معهم من العشائر الأخرى من جهة مع الهولة ومن جهة أخرى بتحريض من والي العجم في البحرين وبينما كان العتوب في غفلة انقض عليهم الهولة وقتلوا منهم نحو أربعمائة رجل وأخذوا أموالهم وهرب من بقي منهم وبعدئذ اتفق العتوب والخليفات وقالوا : إن العجم ألقوا بيننا هذه الفتنة فلنذهب لهم ونحاربهم ونخرب البحرين واتفقوا على هذا وأتوا إلى

البحرين وخربوا ما حولها وأحرقوا وأخذوا أموالهم وقتلوا رجالهم ورجعوا .

ومنذ ذلك اليوم اتفق العتوب والخليفات وكانوا يقولون لا نسكن في بلاد العجم لأنهم ليسوا على مذهبنا ونذهب إلى البصرة إلى حماية الدولة العثمانية فجاؤوا كلهم إلى البصرة وكانوا نحو ألفي أسرة (بيت) وكتب والي البصرة إلى السلطان في إسطنبول يقول جاء العتوب والخليفات ومن معهم من العشائر الأخرى وقالوا نحن مسلمون وتركنا العجم وجئنا إلى بلاط سلطان الإسلام والتجأنا إليه وهذا رجاؤنا فإنهم يريدون أن يسكنوا البصرة ولم يعين الوالي لهم المكان الذي يسكنون فيه وبقوا على تلك الحال - ويقول الوالي إذا أرادوا أن يسكنوا البصرة فسنعين لهم المكان .

وكان لهم نحو خمسين ومائة مركب (سفينة) وعلى كل مركب مدفعان أو ثلاثة مدافع وعلى كل مركب ثلاثون أو أربعون رجلاً محارباً يحمل بندقية . وكانوا دائماً ثابتين على المراكب وعملهم نقل التجار ونقل أموالهم من مكان لآخر .

ويستطرد الوالي في رسالته إلى السلطان بقوله : يجب أن نصلح بين القبيلتين العتوب والخليفات من جهة والقبائل العربية الأخرى من الهولة لأنه إذا لم نصلح بينهم لا يمكن أن يأتي الأتراك إلى البصرة (يحتمل خوفاً منهم) لأن في مجيء الأتراك سيصير عليهم ضرر أي سيصبح ضرر على عسكر العثمانيين ثم يقول الوالي في رسالته : إذا جاء رجل كبير موفد من إسطنبول واصطلح معهم فإننا نأمن شرهم وحينئذ يسود الأمن والاستقرار هناك .

ترجمة أحمد أغر أقحة
جامعة إسطنبول
والسيدة زليخة المترجمة في الأرشيف العثماني

(نقلاً من بحث بعنوان : من تاريخ العتوب خلال المخططات والوثائق للدكتور علي أبي حسين قدم في الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج ١٩٧٩) .

وعلى كل حال فهذه الوثيقة العثمانية التي يبلغ عمرها قرابة ثلاثة قرون هي أقدم وأصدق وثيقة تاريخية تم اكتشافها حتى الآن وبالتالي فهي تمسح وتلغي أية مزاعم أو قصص أو أخبار كتبت في الفترة الأخيرة وأولها قول محمد خليفة النبهاني في كتابه عن البحرين ثم نقلها عنه عبد العزيز أرشيد عن الكويت في كتابه ،وهو قولهما : (إن العتوب هاجروا من إفلاج إلى قطر ومن قطر هاجروا إلى ساحل رأس تنورة وإلى الكويت والمناطق الواقعة شماله والحقيقة التي أبرزتها الوثيقة العثمانية السالفة الذكر هي الآتي :

١ ـ أكدت الوثيقة أن موطنهم الأصلي والقديم كان بندر كونك ودليمة وتقعان على الساحل الشرقي للخليج العربي بقرب بلدة لنجة في جنوب شرق الخليج . ولم تشر الوثيقة إلى منطقة الإفلاج أو قطر أو الهجرة من هناك.

٢ ـ تؤكد الوثيقة أنهم هاجروا من بندر كونك ودليمة إلى البحرين وذلك قبل القرن الحادي عشر هجري وأنهم استوطنوا البحرين فترة من الزمن .

٣ ـ تؤكد الوثيقة أنهم هاجروا من البحرين سنة ١١١٣ هـ إلى البصرة مباشرة عن طريق البحر وليس البر نقلتهم ١٥٠ سفينة مع حلفائهم الخليفات وأنهم استوطنوا في ضواحي البصرة وقد أكد هذه الحقيقة المستر فرانسيز واردن وأشار إلى أنه استقر بهم المقام في (أم قصر) مدة طويلة كما أكد هذه الحقيقة الشيخ مبارك الصباح العتبي عند مطالبته العثمانيين والإنجليز بأن تكون أم قصر ضمن حدوده واستند في مطالبته تلك بتأكيده أنها كانت أول موطن لأجداده عند نزوحهم إلى تلك المنطقة كما ذكر ذلك السيد رولمير في كتابه : (دليل الخليج) ويذكر حسين خلف الشيخ خزعل في كتابه (تاريخ الكويت) أنه توجد أقسام من بني عتبة في الدورق والمحمرة بعربستان انخذلت عن القبيلة الأم لدى هجرتهم إلى البصرة واستيطانهم ضواحيها وأم قصر ، وذلك قبل نزوحهم مرة أخرى إلى الكويت والإقامة فيها ولا تعلم على وجه الدقة السنة التي استوطنوا فيها الكويت

ولكن من المؤكد أن ذلك حدث في النصف الأول من القرن الثاني عشر هجري .

وقد ذكر مستر ج لوريمر في كتابه المسمى دليل الخليج القسم التاريخي الجزء الثالث ص ١٥٠١ سنة ١٩٠٧ ذكر ما يلي نقلاً عن واردن : (العتوب يؤسسون الكويت سنة ١٧١٦ م : على الرغم من أن تأسيس مدينة الكويت ليس حدثاً موغلاً في القدم فهو نهب لروايات وأقاويل مختلفة ومتعارضة ولكن لا شك في أن المستقرين هناك كانوا من العتوب وهي قبيلة تتكون من ثلاثة فروع رئيسية : الجلاهمة وآل صباح ... ويبدو أن مدينة الكويت قد خرجت إلى الوجود مع بداية القرن الثامن عشر وتحدد إحدى الروايات هذه البداية بسنة ١٧١٦ ومن الاسم نستطيع أن نفهم أنها كانت مجرد مستوطنة عربية صغيرة تقوم على حمايتها قلعة صغيرة . وحسب رواية ما يزال يرددها آل صباح حكام الكويت إلى اليوم ، فإن أجدادهم قد جاؤوا إلى الكويت بعد أن طردهم الأتراك من (أم قصر) على خور الزبير وهو مكان قديم كانوا يتخذونه لقطع الطريق على القوافل المتجهة إلى البصرة أو القادمة منها ، وكذلك للقرصنة على السفن في شط العرب . وحين أنشئت الكويت كان شيخ الجلاهمة رجلاً يدعى جابر ، وشيخ آل خليفة هو خليفة بن محمد ، وشيخ آل صباح حسب إحدى الروايات هو شيخ يسمى سليمان بن أحمد ، وكان لآل صباح لون من السيطرة السياسية على بقية فروع القبيلة وتقول رواية أخرى بأن شيخ آل صباح في ذلك الوقت كان رجلاً يدعى (رحيم) وصحة نسب خليفة هو خليفة بن محمد بن فيصل آل فاضل حسب الوثائق الموجودة لدي .

ويأتي ذكر الكويت موطن العتوب في كتاب الرحالة الأوربي المشهور نيبور سنة ١٧٦٥ م وهو أقدم من كتب عنها فهو يقول عن الكويت :

(الكويت أو القرين كما يسميها الأعجام والأوربيون ، ميناء بحري يبعد مسيرة ثلاثة أيام عن بلدة الزبير أو البصرة القديمة ، يعيش سكانها على صيد اللؤلؤ

والأسماك . ويقال : إنهم يستخدمون في صيد هذين الصنفين البحريين ما ينيف على الثمانمائة قارب . وتكاد هذه البلدة تقفر من السكان في الأشهر الملائمة من السنة لخروج الجميع إما للصيد أو الاتجار) .

(ويضيف نيبور أن النزاع يدور بين الكويتيين المتمسكين بالاستقلال وشيخ الحسا الطامع في احتلال الكويت ، وإذا ما وجه هذا الشيخ جيشه إلى الكويت لإخضاعها هجرها أهلها إلى جزيرة فيلكة الصغيرة حاملين معهم أمتعتهم . ولا تزال ثمة خرائب قلعة برتغالية بادية للعيان على مقربة من الكويت) .

وبالإشارة إلى ماذكره هارولد ديكسون في كتابه المسمى (الكويت وجاراتها) وهو الزعم بأن بني عتبة (العتوب) أطلق عليهم هذا اللقب صفة وليس اسماً بزعم أنهم عتبوا من مكان إلى مكان فهذا زعم لا صحة له على الإطلاق فاسم جدهم عتبة اسم عربي صحيح ومشهور وقد أطلق العرب هذا الاسم على العديد منهم فعلى سبيل المثال هناك عتبة بن أبي سفيان شقيق الخليفة معاوية وأحد قادة الإسلام الكبار وهناك عتبة بن غزوان مؤسس البصرة وأميرها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً وهناك العدد الكبير ممن أطلق عليهم هذا الاسم بما ينفي نفياً قاطعاً كونه صفة أو لقباً وحسبما ذكر الزبيدي في معجم تاج العروس ليس معنى عتبة أو عتب الانتقال من مكان إلى مكان كما روى ديكسون عن محدثه بل أورد الزبيدي معاني أخرى لها لا علاقة لها بالانتقال أو الترحال قطعياً وقد توهم ديكسون وأبو حاكمة في اجتهاديهما . وحتى نؤكد مرة أخرى أن عتبة اسم عربي مجرد كأي اسم آخر أطلقه العرب منذ الجاهلية وصدر الإسلام على رجالهم أورد فيما يلي طائفة ممن أطلق عليهم هذا الاسم وهم : عتبة بن أبي لهب ـ عتبة بن أبي وقاص ـ عتبة بن ربيع بن رافع الخزرجي ، عتبة بن ربيعة ، عتبة بن مسعود الهذلي) وقد شرح اللغوي الرازي في مختار الصحاح هذه الكلمة فقال : ع ت ب ـ (عتب) عليه وجد وبابه نصر وطرب و (مَعْتَباً)

أيضاً بفتح التاء و (العَتَبُ كالعَتْب) والاسم (المَعْتَبَة) بفتح التاء وكسرها ،وقال الخليل : (العتَاب) مخاطبة الإدْلال ومذاكرة المَوْجِدَة و (عاتَبَه معاتبةً) و (عِتَاباً) و (أَعْتَبَهُ) سَرَّهُ بعدما ساءَه والاسم منه (العُتْبى) و (استَعْتَبَ) و (أَعْتَبَ) بمعنى . و (اسْتَعْتَبَ) أيضاً بمعنى طلب أن يُعْتَبَ تقول : استَعْتَبَه (فَأَعْتَبَه) أي استرضاه فأرضاه . و (العَتَبُ) الدَّرَج وكُلُّ مِرْقَاة (عَتَبَةٌ) ويجمع على (عَتَبَات) و (عَتَب) أيضاً .

و (العَتَبَةُ) أسْكُفَّةُ الباب . قلتُ : قال الأزهري في ـ ع ت ب ـ قال بن شُمَيْل : (العَتَبَةُ) في الباب هي العُلْيا والأُسْكُفَّة هي السُّفْلَى ... وقال في س ك ف ـ قال الليث : الأُسْكُفَّةُ عَتَبَةُ البابِ التي يُوْطَأ عليها) انتهى .

وكما ذكرت سابقاً فإن اللغوي الكبير الزبيدي في تاج العروس أورد شروحاً كثيرة مثلما ذكر الرازي وزاد عليها ولم يأت بما يشير إلى أن معنى كلمة عتبة هي الانتقال من مكان إلى مكان أو الارتحال أو أي معنى يدل على ذلك . وما ذكره ديكسون الإنجليزي والدكتور بوحاكمة والخصوصي وأبو حسين وجميعهم نقلوا أن كلام ديكسون لاسند له في قواميس اللغة الكبرى وإنما هو اجتهاد شخصي ليس إلا .

وقد أطنبت في الشرح لتقرير حقيقة واقعة استناداً على المراجع المعتمدة ونخلص من هذا أن عتبة اسم عربي قديم أطلقه العرب على بعض رجالهم وبعضهم من الصحابة . وأما ماذكره عثمان بن سند في (سبائك العسجد) من أن قبيلة بني عتبة ليسوا من أصل واحد ولا يجمعهم نسب واحد وأنهم أشتات تجمعوا تحت هذا الاسم ، فزعمه هذا غير صحيح ألبتة لأنه لم يستند في زعمه على مرجع تاريخي من مراجع الأنساب ولأن كلمة (بني) تعني بداهة (أبناء) أي أولاد أو سلالة أو نسل عتبة) .

مثل : بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وبني هاجر بن جنب بن مذحج

وبني خالد بن غزية بن طيء وبني تميم العدنانية وغيرهم من القبائل العربية الذين يعرفون وينسبون إلى أبيهم لكنه من المعروف أن الكثير من الأسر التي تؤسّس لها إمارة أو ملكا تحاول بكل ماتستطيع أن تبتعد عن قبيلتها خشية من تطلع القبيلة إلى المشاركة في ذلك الملك أو تلك الإمارة بدعوى النسب وقديماً قيل : الملك عقيم .

هذا ماأردت إيضاحه والله أعلم .

٩ ـ لم أهتد إلى معرفة قبيلة سعادة هذه رغم معرفتي الخاصة بقبائل نجد وبحثي الدؤوب عنها في المراجع التي تحت يدي ، وأغلب الظن أن المستر سادلير لم يوفق في ضبط اسمها لأنه لا يوجد في نجد أو ما جاورها قبيلة بهذا الإسم .

ولكن لوريمر مؤلف كتاب دليل الخليج في القسم التاريخي الجزء الثالث ص ١٦٢٧ المعرب يذكر ما يلي (انسحاب القوات المصرية انسحاباً جزئياً ١٨١٩ م : وشيئاً فشيئاً بدأ يتضح أن القوات المصرية ليس بوسعها أن تحتل نجد احتلالاً كاملاً ، وذلك أساساً لصعوبة الاتصال بين مواقعها المختلفة بسبب عداء قبائل البدو وتزايد مشاكساتها ولا سيا قبيلتي العجمان وسعدة) .

ثم قال لوريمر في الحاشية : (رغم أن المؤرخين يشيرون إلى قبيلة بني سعدة كقبيلة مستقلة إلا أنها على الأرجح فرع من العجمان) .

في العجمان حسب علمي عائلة مرموقة تدعى آل سعدة أو ابن سعدا . وإذا كان لهذه العائلة دور خطير بهذا المستوى في ذلك الزمان فغير بعيد أن يكون الأمر كذلك وأطلق اسم العائلة على جميع الأتباع كما يحصل دائماً في حالات مشابهة .

١٠ ـ قبيلة العجمان من قبائل نجد المشهورة واسمها هذا نسبة إلى جدهم الأعلى وهو علي الملقب بعجيم لعجمةٍ في لسانه وهم أبناء مرزوق بن علي بن

هشام بن ألغز بن مذكر بن يام بن أصبا بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن جبران بن نوف بن همدان بن زيد بن مالك بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليهم السلام ، كانت مساكنهم مع أبناء عمومتهم يام في نجران ثم زحفوا إلى نجد في حدود عام ١١٣٠ هـ ، هم وإخوانهم آل مرة بن جشم بن يام ثم اشتعلت الحرب بينهم وبين الأميرين محمد وماجد آل عريعر في معركة الرضيمة عام ١٢٣٨ هـ وهزموهما وبسطوا يدهم على الأحساء منذ ذلك التاريخ .

وقد دخلوا في دعوة المصلح الإسلامي الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب في سنة ١٢٠٥ هـ حسبما روى صاحب كتاب لمع الشهاب وغزوا تحت قيادة الأمير عبد العزيز بن محمد آل سعود حائل وفتحوها . وفي سنة ١٢١٧ هـ حسبما ذكر الشيخ عبد الرحمن البهكلي صاحب كتاب (لفح العود في سيرة الشريف حمود) وذكر أن العجمان بقيادة شيخهم حزام بن عامر الحبيشي وبطلب من الإمام عبد العزيز بن محمد آل سعود قاموا بغزو المخلاف السليماني (صبيا وأبها وجازان وغيرها) في نحو مائة خيال من فرسان العجمان ونحو خمسمائة من أهل الركاب المطايا ، وبعد معارك طاحنة مع حكام تلك البلاد الأشراف وغيرهم من السكان تم لهم النصر النهائي وأدخلوا تلك البلاد الواسعة في حكم الإمام عبد العزيز بن محمد آل سعود وذكر البهكلي أنهم توسعوا في ذلك الفتح حتى وصلوا إلى شمال صنعاء بقليل فاتسعت قيادة الإمام عبد العزيز لأول مرة إلى تلك التخوم وبعدما أخذ حزام العهود والمواثيق على أهالي تلك البلاد وعين لها ولاة تابعين للإمام عبد العزيز عاد وقبيلته العجمان إلى نجد .

واشترك العجمان تحت قيادة الأمير عبد الله بن سعود الكبير في معركة الخيف بوادي الصفراء فوق المدينة النبوية سنة ١٢٢٦ هـ وكانوا بزعامة شيخهم الفارس المشهور مانع الطويل بن وحير الحبيشي وقد أبلوا في تلك المعركة الظافرة بلاء

حسناً ضد المصريين واستشهد شيخهم المذكور فيها وكان النصر في تلك المعركة الكبيرة لجيوش الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز آل سعود وكان المصريون بقيادة الأمير طوسون باشا بن محمد علي باشا والي مصر آنذاك .

ويقول سادلير في حاشية الصفحة موضع هذا التعليق عن العجمان : (زودت هذه القبيلة جواسمي رأس الخيمة بعدد ضخم من المتطوعين الذين ركبوا متن زوارقهم في رحلة أو رحلتين بحسب حصتهم من السلب الذي يوزع عليهم) وهذا الخبر رغم أهميته لم يذكره ابن بشر في كتابه ويماثله أخبار كثيرة هامة لم يدونها ابن بشر مثل فتح العجمان للمخلاف السليماني وغيره من الأحداث المهمة مما يجعل البحث عن مصادر أخرى لتاريخ بلادنا عملاً واجباً حتى يتم الكشف عن أهم أحداث تلك الفترة من تاريخنا كما أن ابن بشر أخطأ حينما ذكر أن معركة الرضية سنة ١٢٣٨ هـ حدثت بين الأمير محمد بن عريعر وفيصل بن وطبان الدويش والحقيقة أنها بين ابن عريعر المذكور وقبيلة العجمان بقيادة جابر بن مانع بن وحير الملقب بالطويل .

أما قول سادلير : بحسب حصتهم من السلب .. إلخ فهذا الوصف يحلو كثيراً للإنكليز أن يطلقوه على كل مناوئيهم وخصومهم الذين يأبون أن تسيطر أساطيل حكومتهم على مياه الخليج والبحر العربي لتحتكر وسائل التجارة لنفسها وتبسط سيطرتها العسكرية والاقتصادية على هذه المنطقة في تلك الفترة ، تلك المحاولات التي نجحت فيما بعد في فرض الاستعمار البريطاني على إمارات الخليج العربي بالكامل وأورد ابن بشر في كتابه ص ٢٩٠ طبعة وزارة المعارف الخبر التالي :

(بعد احتلاله للدرعية وتدميرها وذلك سنة ١٢٣٣ هـ : ثم إنّ الباشا « يقصد إبراهيم باشا بن محمد علي » لما فرغ من هدم الدرعية وتدميرها رحل منها ونزل الموضع المعروف بالأحور وهو غدير قرب بلد ضرما ، وكان سعود رحمه الله يجعل

فيه خيله أيام الربيع ، فأقام الباشا فيه أكثر من شهر . ثم ركب منه غازياً وقصد ناحية الجنوب وترك مخيمه فلم يحصل على طائل .

ووافق غزوا من بوادي العجمان نحو مائتين فهربوا وقتل بعضهم وضربه رجل من الغزو ضربة عظيمة بخنجر فسلِم منها وقطعت تكة السروال والحصان ففلقت السرج نصفين وجرح الحصان جرحاً ليس له نظير فعاجلوه بالقتل) .

١١ ـ التقييم وتقدير موازنة القوة بين قبيلتي العجمان وبني خالد الذي ذكره سادلير ليس صحيحاً على الإطلاق وذلك استناداً إلى الوقائع والأحداث الحربية التي جرت بين هاتين القبيلتين العربيتين في تلك الفترة بالذات وتقييم سادلير يدل على جهله المطبق بالقوى العربية المؤثرة في أحداث تلك الفترة وله بعض العذر لكونه غريباً عن المنطقة وأهلها فالحقيقة أنه حدثت بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة أي سنة ١٢٣٨ هـ حرب طاحنة بين القبيلتين المذكورتين وتسمى تلك الحرب بحرب (الرضيمة) نسبة للموضع الذي حدثت فيه في منطقة الدهناء واستمرت ثلاثة شهور وكان النصر الحاسم فيها للعجمان وهي أول هزيمة ساحقة تلحق بآل عريعر حكام الأحساء وشيوخ بني خالد بعد استعادتهم السلطة في تلك البلاد وكان لها أكبر الأثر في تدهور مركزهم السياسي فيما بعد وقد سجل شعراء العجمان وقائع تلك الحرب المسماة بحرب الرضيمة في العديد من قصائدهم الشعبية التي ما يزالون يحفظونها حتى اليوم وفي سنة ١٢٤٥ هـ اشترك العجمان مع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود وابنه فيصل في معركة السبعية ضد بني خالد وأسفرت هذه المعركة التاريخية الحاسمة عن انتصار الإمام تركي واستيلائهم على الأحساء والقطيف وتوابعها ولجوء الأمير محمد بن عريعر وأتباعه إلى المنتفق بالعراق ولم تقم لآل عريعر دولة بعد ذلك التاريخ .

ـ قبيلة عتيبة : قال عن نسبها الهمداني في القرن الرابع الهجري في كتابه المشهور (الإكليل) ج ١٠ ص ٢١٢ ما يلي :

(عتيبة بن عبد الله بطن يعرف بأبي عتيبة بن عبد الله ، بن منبه بن عليان بن أرحب بن الدعام بن الصعب بن دومان بن بكيل من همدان من القحطانية وهم العتيبات) .

- مطير : قبيلة نجدية ، قال الزبيدي في كتاب (تاج العروس ج ٨ ص ٢٥٥) : (مطير بطن من حكم بن سعد العشيرة ، من مذحج ، من القحطانية .

ثم قال في نفس الكتاب ج ٣ ص ٥٤٦ : مطير بن علي ، بطن باليمن ينتسب إلى مطير بن علي بن عثمان بن أبي بكر الحكمي) .

بنو خالد : من قبائل شرق نجد . قال عنهم القلقشندي في كتابه نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب مانصه : بنو خالد بطن من غزية من طيء من القحطانية .

وكانت مساكنهم برية الحجاز مع قومهم من غزية) والقلقشندي توفي سنة ٨٢١ هـ .

- حرب ، قبيلة نجدية حجازية ذكرهم الهمداني في كتابه الإكليل وقال : إن بني حرب من خولان انتقلوا من اليمن سنة ١٣١ هـ فانتشروا فيما بين المدينة المنورة ومكة ، وما يقرب ذلك من المواضع من قدس ورضوى وينبع ، ووقع بين هذه القبيلة وسكان تلك البلاد من مزينه وبني سليم وعنزه حروب كثيرة وهم أبناء حرب بن سعد بن خولان من كهلان من قحطان وهذا نسبهم الصحيح وقد أخطأ ابن خلدون وغيره في نسبتهم إلى بني هلال .

- العتوب : قبيلة عربية تحضرت منذ زمن بعيد وينتسب لها حكام الكويت آل الصباح وحكام البحرين آل خليفة والجلاهه وغيرهم من سكان البحرين والكويت المتحضرين وقد ذكر القلقشندي في نهاية الأرب أن بني عتبة وهم

العتوب من بني رياح من قبيلة بني هلال العدنانية التي كانت تسكن نجد في مطلع القرن الخامس الهجري وارتحل منها أقسام كبيرة إلى مصر والمغرب العربي . وليس صحيحاً ماذكره الكتّاب المتأخّرون بنسبتهم إلى قبيلة أخرى .

ـ سبيع : بطن من مسعد بن ثعلبة بن ذبيان من قيس عيلان من العدنانية وقال : وبنو سبيع (وفيهم البيت) بن دريد في الاشتقاق وقال الهمداني في الإكليل أن السبيع بطن من همدان بن زيد القحطانية والله أعلم إلى أيها تنتسب هذه القبيلة .

ـ شمر : من طيء من كهلان القحطانية بن دريد في الاشتقاق .

١٢ ـ وجه إبراهيم باشا خطاباً إلى والده محمد علي باشا والي مصر بخصوص مهمة سادلير هذا نصه : (حضرة صاحب الدولة ، منبع المراحم ، مولاي ولي النعم :

ورد إلى مرفأ الأحساء أخيراً ، قائد بحري يحمل خطاب تهنئة بفتح الدرعية ، من طرف وكيل الملك المقيم بمرفأ الهند (بمباي) المنصوب من قبل دولة إنجلترا وحضر القائد المذكور مع الجيش المقيم في الأحساء إلى المدينة المنورة ، وقابل خادمكم ، وأعطاني سيفاً مرصّع الغمد (مشغول بالمينا) محلّى المقبض باللآلئ ، وقد أرسل إلى مقامكم السامي طي مكاتبتي هذه ، الخطاب الذي حمله القائد المومأ إليه .

وقد تبين من تقريره ، أن أقصى مراد الوكيل المومأ وملتمسه تخريب نحو سبعة مرافئ أو ثمانية مرافئ ، حوالي عمان بإنزال جيش جسيم بحراً من جهتهم

نقلاً عن (دار الوثائق القومية بالقاهرة ـ من إبراهيم إلى محمد علي محفظة ٦ وثيقة ١١٥ بحراً براً ، المدينة ، ٢١ ذي القعدة ١٢٣٤ هـ) .

وبرأ من طرف الدولة العلية ، وأن إرساله على أمل رفع (كذا) الموانئ المذكورة وهدمها وعلى خيال هذا المسؤول ، وحصول تلك الأمنية بموافقة الدولة العلية ، لكن احتمال حصول أملهم هذا عديم الإمكان ، ولم أرد على طلب القائد المذكور رداً باتاً ، وتوافقنا معه ، في أن يقيم ضيفاً عندنا إلى حد ورود أمركم العالي ، وتلطفكم السامي ، فإذا تأخر ورود الجواب من مولاي ، فعزمي إعادته بتحرير الجواب ، وإرجاعه من جُدَّة المعمورة ومن المقرر إهداء خيل لوكيل الملك المومأ إليه ، وإعطاء هدية مناسبة للقائد المذكور ، عند ورودي إلى جدة ، فالأمر في هذا الشأن لحضرة مولاي ، سلام على إبراهيم) .

١٣ ـ تحدث كلوت بك في كتابه (لمحة عامة إلى مصر) ج ١ ص ٧٧ معربة الطبعة الثانية ١٩٨١ م الذي كتبه في مصر حوالي سنة ١٨٤٠ م وكان ضمن حاشية محمد علي باشا ، تحدث هذا الرجل الأوروبي عن محمد علي وابنه إبراهيم باشا وذكر عن محمد علي باشا أنه ولد سنة ١٧٦٩ م ببلدة قوله فهو يبلغ من العمر آنذاك ـ ١٨٤٠ ـ الحادية والسبعين .

(وهو ربع القامة لا يتجاوز ارتفاع قامته خمسة أقدام وبوصتين ، بدين الجسم ، دموي المزاج عصبيه إلى الدرجة القصوى ، كان شعر رأسه ولحيته في إبان شبابه على شيء من الصهوبة ، مكشوف الجبهة بارزها وفي حاجبيه نتوء ظاهر . أما عيناه فكستناويتا اللون وغرائرتان في الحجاجين ، متوسط حجم الأنف في سعة وانتفاخ عند المنخرين ، صغير الفم ، ملتوي الشاربين في طرفيهما ، أبيض شعر اللحية في غير كثافة ولمحمد علي يد صغيرة مفتولة الأصابع وقدم صغيرة كذلك . إذا سار دفع إلى الأمام طرف القدمين محترزاً عن تحريك جسمه إلا بمقدار ما تقضي الضرورة به في نطاق ضيق تكاد تتلامس جوانبه وإذا وقف وقف مستقيماً واضعاً إحدى يديه في الأُخرى وراء ظهره ومما يحسن بنا في هذا المقام ذكره لأنه غير مألوف عند الأتراك ميله إلى الرياضة والفسحة في داخل حجرته

وهو إذا وضع عمامته على رأسه جعلها منحرفة قليلاً إلى الجانب الأيسر منه ، شديد الحرص على نظام ملابسه وهندامها) .

ثم قال : إنه إذا عمد إلى فراشه لينام لا يغمض جفناه إلا قليلاً إذ أن نومه مضطرب تتخلله اليقظة من حين إلى آخر وفي الساعة الرابعة (إفرنجي) بعد نصف الليل يغادر سريره ويلبس ثيابه ويتهيأ لمباشرة الأعمال فهو بارع في الحساب مع أنه لم يسبق له درس العلوم الرياضية ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة إلا في الخامسة والأربعين من عمره وهو غير ملم بلغة أجنبية ما) .

هذا بعض ماذكره كلوت بك عن وصف محمد علي باشا مع أنه أكد على أنه دموي المزاج عصبيه إلى الدرجة القصوى وهو مثل ابنه إبراهيم ظالم غشوم سفاك للدماء ، وقد اختل عقله في آخر عمره . أما وصفه لإبراهيم باشا (السفاح) فقد قال عنه : (إبراهيم باشا هو بكر أبناء محمد علي ، وغير صحيح ماأشيع من أنه ابنه من طريق التبني وكان ميلاده ببلدة قولة في سنة ١٧٨٩ أي بعد زواج والده من والدته بعامين) .

(فإبراهيم باشا يناهز من العمر الآن - ١٨٤٠ - الحادية والخمسين وهو ربع القامة طول قامته خمسة أقدام ونوصتان متين البنية جيد الفصوص شيبته قبل الأوان متاعب الحروب ومشاقها بعد أن كان شعر رأسه ولحيته أشقر جمرياً ، مستطيل الوجه ، طويل الأنف ، أزرق العينين في وجهه أثر الجدري . مزاجه دموي صفراوي جهوري الصوت لم تتوافر فيه لهذا السبب السماحة والبشاشة . وهو ملم باللغات التركية والفارسية والعربية يتكلم ويقرأ ويكتب بها من غير عناء . دع إحاطته بتاريخ أمم المشرق واضطلاعه بها) .

انتهى بعض وصف كلوت بك لإبراهيم باشا وفاته أن يضيف إلى ذلك الوصف أنه سفاح سفاك لدماء الأبرياء لاتعرف الرحمة أو الشفقة إلى قلبه سبيلاً

ولا يردعه عن ذلك خلق أو دين أو ضمير ، ولعل في ماذكره عن جرائمه المؤلف سادلير أكبر شاهد على ذلك ويكفي أنه أول جبار طاغية نشر الموت والخراب والدمار في جزيرة العرب ولم يخلف وراءه من الذكريات إلا الرعب والهول والوحشية والخراب وكفاه هذا خزياً في الدارين .

١٤ ـ وثيقة رقم ٣

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة الحفظ : محفظة ١٦ بحراً براً .
رقمها في وحدة الحفظ : ١١٧ .
تاريخها : بدون تاريخ .
موضوعها : رسالة من فيصل الدويش عن أعماله .

« الحمد لله ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛ السلام من فيصل الدويش إلى أفندينا العزيز المكرم المحترم إبراهيم باشا ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، الذي نخبرك به إن حنا نوخنا أهل اليمن ، أربعة عشر ليلة ونصرنا الله عليهم وذبحنا منهم مائتين ، ومن كبارهم أربعة عشر ، منهم محمد بن شبعان ، وقلعنا منهم ستين فرساً وجميع جمالهم وعفشاتهم أخذناها ، والذي نخبرك به عن أهل الدرعية ، جاهم تركي بن سعود ، ومشاري بن سعود ، وتلقاهم محمد بن معمر واحتركوا في الدرعية ، بحرابه ، وبعد البلدان أعطوهم اليد ، وأهل الجنوب أعطوهم اليد ، وماجد بن عريعر حاربهم ، بدلهم ، أكسبوا على الذي خلكم عليه إبراهيم باشا ، هذا الذي نخبركم به ، وأنت أحسن نظر ، وإحنا لكم بالخدمة على ماأنتم خابرين ، ومحمد بن فيصلا ، والحميدي ، وشريان ونرهان ، يكثرون عليك السلام . والسلام .

فيصل الدويش / ختم
(فيصل بن وطبان الدويش)

وثيقة رقم ٥

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة الحفظ : دفتر ١٠ معية تركي .

رقمها في وحدة الحفظ : ٣٥٢ .

تاريخها : ٤ ذي الحجة ١٢٣٧ هـ / ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ م .

موضوعها : مرسوم باللغة العربية إلى مشعان بن هذال شيخ عربان عنزة ، يحثه على التعاون مع حسن بك محافظ المدينة .

مرسوم باللغة العربية

فخر العشاير مشعان بن هذال ، شيخ عربان عنزة ، زين قبيلته ، بعد السلام المنهى إليك ، أنه وصل إلينا كتابك ، بصحبة أدمك ، وكامل ماذكرتموه صار معلومنا من قبل إخلاصك في خدمتنا والتجائك لطرفنا ، وانقيادك وامتثالك ، مع إبراز حسن الخدمة ، إلى قدوة الأماثل والأقران حسن بك محافظ المدينة المنورة ، فالذي يخدم بابنا بالصداقة ، وحسن الاستقامة ، لا يضيع سعيه ، ويرى مكافأته ، فيلزم أن تكون صادقاً في كل خدمتك ومنقاداً إلى الميرمير الموما إليه ، وطاعتكم له كطاعتكم لنا ، وكذلك عرضتم أن آل عريعر أهل الحسا ، وأهل القطيف قايمين ، ومستقيمين ، تحت خدمتنا ، وهم مجربون في الصداقة والاستقامة عندنا ومأمول منهم ذلك ، وحسن نظرنا شامل عليهم ، ومرسلين لك الكسوة ، بصحبة أدمك الراجع إليك تلطيفاً لك والسلام) .

١٥ ـ الرس : بلدة تقع في غرب مقاطعة القصيم على مسافة غربي بلدة عنيزة بحوالي ستين كيلاً وأمراؤها وأغلبية سكانها من قبيلة العجمان من يام من همدان بن زيد القحطانية وكانت الإمارة في القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر

هجري لعائلة الدهلاوي ، ثم آلت إمارتها لعائلة آل عساف وكلاهما من العجمان .

وبما أنه قتل من جيش إبراهيم باشا في معركة الرس تسعمائة تركي وجرح ألف وآلت بهم الأمور إلى محنة شنيعة على حد تعبير سادلير بعد حرب ضروس استمرت ثلاثة أشهر ونصف كما ذكر وبما أن الباشا فشل فشلاً ذريعاً في احتلال هذه البلدة الصغيرة أمام شجاعة أهلها وبسالتهم التي فاقت كل وصف ، بما أنه حصل هذا كله فكيف كان سيصبح مصير حملة إبراهيم باشا على نجد لو أن البلاد هبت لمشاركة أهل الرس في ذلك الدفاع المجيد ، أليست تلك الشهور من الحصار كافية لوصول جميع النجدات لإجبار ذلك الطاغية وجيشه على الجلاء عن البلاد ؟ هذا وقد أكد المؤرخ النجدي (ابن بشر) صحة هذه المقاومة البطولية العظيمة ولكن التفصيل والحقائق التي ذكرها سادلير أوسع وأدق من ابن بشر ومصادر سادلير من الضباط الأتراك شهود عيان لتلك الحرب والمقاومة الباسلة .

شقرا ـ قال عنها الشيخ محمد البسام الذي عاصر تلك الأحداث في كتابه الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر ص ٣٣ من المخطوطة قال ما يلي : (شقرا ذات رمل وليست كثادق ولا شطره وأهلها أشد نجد تعصباً في دينهم وحاكمهم اسمه إبراهيم بن سنحان) وابن بسام اشترك في تلك الحرب وكتب كتابه المومأ إليه سنة سقوط الدرعية عام ١٢٣٤ هـ وموطنه الأصلي الدرعية ثم ثادق كما ذكر بنفسه .

حجيلان بن حمد : قال عنه ابن بسام في كتابه المومأ إليه : (حاكم القصيم حجيلان بن حمد عمره مائة سنة ومسكه (اعتقله) العزيز آخر عمره والقصيم أوسع نجد أرزاقاً) ويقصد بالعزيز إبراهيم باشا .

ـ سعود الذي ذكر سادلير أنه قائد موضع ضرما ، هو سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود كما ذكر سادلير أنه ـ أي سعود ـ خال عبد الله وهذه أول إشارة

تاريخية تفيدنا عن أخوال عبد الله ونسبه من جهة أمه وعلى هذا الأساس فإن عبد الله بن محمد بن سعود هو جد عبد الله لأمه وأن تركي بن عبد الله هو خاله أيضاً وشقيق سعود المذكور وتركي هو الذي أسس الدولة السعودية الثانية سنة ١٢٤٠ هـ أي بعد سقوط الدولة السعودية الأولى بسبع سنين .

١٦ ـ تصرف إبراهيم باشا تجاه الإمام عبد الله بن سعود هذا الذي ذكره سادلير قمة في الهمجية والوحشية واللاإنسانية وخارج عن جميع الأعراف العسكرية الشريفة وهذا غير مستغرب من هذا الطاغية السفاح .

لكن رواية (سادلير) هذه تناقض رواية (منجن) التي نقلها لوريمر في دليل الخليج القسم التاريخي ج ٣ صفحة ١٦٢٤ . فقد قال (لوريمر) نقلاً عن (منجن) : (وأخيراً في يوم ٩ سبتمبر ١٨١٨ استجاب الأمير لنصيحة مستشاريه جميعاً فرفع الراية البيضاء وبدأت المفاوضات وتم اللقاء في نفس اليوم بين الأمير عبد الله وإبراهيم باشا ، ولم يستطع الرجل العربي أن يخفي حقيقة مشاعره وإن استطاع تغطيتها بالهدوء والوقار كذلك قام الرجل التركي من ناحيته بمنتهى اللباقة فاحترمه كعدو مهزوم بل إنه أمر بإطلاق سراح ابنه سعد وعرض إبراهيم الصلح على أن يستسلم الأمير ويرحل إلى القاهرة .. وأمهله أربعاً وعشرين ساعة للتفكير في الأمر . وكان ثمة خوف من أن ينتحر الأمير خلال هذه المهلة أو يفر إلى الصحراء ولكن أخيراً وافق الأمير بعد أن ضمن له إبراهيم باشا مطالبه وهي تأمين حياته والمحافظة على مدينة الدرعية وعدم إيقاع العقاب بمن كان يحارب ضد القوات المصرية وبدأ الأمير يتخذ الترتيبات اللازمة لرحلته) .

ثم قال : أما التدمير الكامل لمدينة الدرعية فلم يبدأ إلا بعد صدور الأوامر من القسطنطينية) .

وهذه الرواية تختلف كثيراً عن رواية سادلير فسادلير لم يذكر أن الأمير رفع

الراية البيضاء وإنما ذكر أنه اعتصم في حصنه مع مائتين من رجاله وتحملوا قصف قنابل الباشا ثلاثة أيام ثم طلبوا المفاوضات) ثم قال : (على الرغم من أنه لم يهزم بشكل كامل بعد) .

أما المؤرخ المصري محمد فريد بك المحامي فقد ذكر في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٠٩ فقال : (... ومع ذلك فاستمر الحصار عدة أشهر لكن لما رأى عبد الله بن سعود أن المصريين قد احتلوا ثلاث قرى من ضواحي المدينة (الدرعية) مال إلى التسليم وطلب من إبراهيم باشا في ٧ ذي القعدة ١٢٣٣ هـ (٩ سبتمبر ١٨١٨) إيقاف القتال للمفاوضة في الصلح فأوقفه وأتى عبد الله بن سعود إلى إبراهيم باشا في معسكره فأكرمه وأحسن وفادته وبعد محادثة طويلة قبل الوهابي تسليم مدينة الدرعية إليه بشرط عدم تعرضه للأهالي بسوء وبالسفر إلى الآستانة كرغبة الحضرة السلطانية وبرد الكوكب الدري وما بقي من المجوهرات والتحف التي أخذها الوهابيون حين استيلائهم على المدينة سنة ١٢٢٠ هـ) .

هذا وقد ذكر المؤرخ البريطاني جون ب . كيلي في كتابه بريطانيا والخليج ج ١ ص ٢٢٦ الخبر التالي : لـ (دي دبليو . جي . بلجريف . قصة يرويها عن محمد علي فيقول : إنه أراد أن يختبر قواده العسكريين قبل قيامه بالحملة فوضع تفاحة في وسط سجادة كبيرة وطلب إلى كل منهم أن يصل إلى التفاحة دون أن يضع قدمه على السجادة ، كان يقصد من ذلك أن التفاحة هي الدرعية والسجادة هي الصحراء المحيطة بها وقد أخذ القواد واحداً تلو الآخر يحاولون ذلك إلا أنهم فشلوا وفي النهاية طلب إبراهيم الإذن له للوصول إلى التفاحة ويتقدم إبراهيم وأخذ يطوي السجادة من أحد أطرافها إلى أن وصل إلى التفاحة وأمسك بها وعلى نفس الغرار قال إبراهيم لوالده : إن قبائل المنطقة الغربية للجزيرة العربية يجب طيهم بهذا الشكل إذا أريد للجيش المصري أن يفلح بأي حال من الأحوال بالوصول إلى الدرعية (رحلة عبر المناطق الوسطى والشرقية للجزيرة العربية)

تأليف بلجريف مجلد / ٢ طبعة لندن فصل ٢ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

وهذا الخبر كان متواتراً لدى رواة نجد وكنا نظنه من نسج خيالهم حتى أكده بلجريف الرحالة على الوجه السالف .

أما المؤرخ النجدي الذي عاصر تلك الحرب واشترك فيها الشيخ محمد البسام التميمي فقد قال في كتابه الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر : (ولا والله تغلب عليهم صاحب مصر عن ضعف منهم أو جبن بل خيانة من العربان ورضى من ساكني البلدان) ص ٤١ .

ـ نسب عبد الله بن سعود : هو الإمام عبد الله بن سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الأول بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي من عشيرة المردة من قبيلة بني حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن دايل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان أهل حجر من وادي اليمامة كما قال ذلك المؤرخ النجدي المشهور عثمان بن بشر في كتابه (عنوان المجد في تاريخ نجد) الطبعة الثانية ١٣٧٢ هـ على نفقة المرحوم الملك عبد العزيز في الجزء الأول ص ٢٤ وفي الجزء الثاني ص ٦ و ١٢ .

كما أكد نسبهم هذا المؤرخ النجدي إبراهيم بن صالح بن عيسى في كتابه (تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد) ص ٣٦ كما أشار إلى ذلك المؤرخ حسين بن غنام في كتابه وذكر نسبهم هذا أيضاً علماء وشعراء نجد في مطلع القرن الثالث عشر هجري أمثال العلامة الشيخ ابن مشرف والعلامة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى والشاعر النجدي المشهور محمد بن عبد الله العوني وغيرهم ممن يعتبرون حجة في علم الأنساب .

وقد ذكر الدكتور منير العجلاني في كتابه القيم (تاريخ البلاد العربية

السعودية) ص ٧٧ أنه سأل صاحب السمو الملكي الأمير الجليل عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل شقيق المرحوم الملك عبد العزيز وعميد أمراء آل سعود في حينه ، ومن أفقههم وأعرفهم بالتاريخ سأله عن رأيه في نسب آل سعود ، فكان جواب سموه : (نحن حنفيون) ثم قال المؤرخ العجلاني : (وما يقوله سموه في اعتقادنا ، هو الحق) .

كما أكد العلامة السعودي المعاصر الأستاذ الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس أن آل سعود من عشيرة المردة نسبة لجدهم مريد من قبيلة بني حنيفة وذلك في مقال قيم له نشرته مجلة العرب السعودية عدد تموز وآب ١٩٨٠ ص ٢٩٩ و ٣٠٠ ، وأن الدروع الذين يسكنون الجزعة وحجرا من وادي حنيفة هم بنو عمهم الدروع الذين يسكنون الدرعية الأولى من المنطقة الشرقية وبهم سميت درعية العارض ، والكل من بني حنيفة .

أسباب غزو محمد علي باشا للدولة السعودية الأولى :

يذكر المؤرخ الدمشقي المدعو ميخائيل الدمشقي في تاريخه لحوادث الشام ولبنان وكان معاصراً لتلك الفترة أن الإمام سعود الكبير منع قافلة حجاج الشام واستامبول من دخول المدينة المنورة وردهم إلى الشام وكان مع القافلة والدة السلطان العثماني وذلك سنة ١٢٢٠ هـ .

وتقول الروايات المتواترة أن منع والدة السلطان من الحج وردها عند أطراف المدينة المنورة بدون حج هو السبب الحقيقي والمباشر الذي حدا بالسلطان العثماني مصطفى الرابع إلى تكليف محمد علي باشا والي مصر بغزو مملكة آل سعود ورد المدينة المنورة ومكة المكرمة من أيديهم والسير إلى عاصمتهم الدِّرعية وتدميرها فأرسل إليه فَرَماناً بذلك في ذي القعدة سنة ١٢٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٨٠٧) فحاول الباشا المذكور المراوغة والتملص من هذا التكليف الشاق بشتى الأعذار لكن السلطان محمود بن عبد الحميد لم يقبل منه وأصر على تنفيذ هذه

المهمة الخطيرة ، فأذعن محمد علي باشا أخيراً واستغل هذا الأمر إلى أقصى حد في طلب الأموال الجمة والذخائر والمهمات العسكرية الكثيرة من السلطان واندفع في تلك الحرب الآثمة فأرسل أولاً ولده أحمد طوسون باشا الذي استمر يحارب عبد الله بن سعود . ثم توالت عليه الإمدادات العسكرية فاحتل المدينة المنورة ثم مكة المكرمة . وعندما وصل بقواته إلى الرس عرض عليه الأمير عبد الله الصلح فقبل شروط ذلك الصلح على أن يوافق والده . إلا أن والده رفض الموافقة ونقض صلح ابنه طوسون مع عبد الله ابن سعود . ثم عاد طوسون إلى مصر بعد سماعه بثورة داخلية قامت ضد والده .. ومات في القاهرة .. ثم جدد محمد علي باشا الحرب مع الدرعية وأرسل ولده البكر إبراهيم باشا إلى نجد على الصورة التي ذكرها سادلير في كتابه .. ومهما كان الأمر فالعاقبة للمتقين ومصير الظالمين إلى دمار . فأين عائلة محمد علي الآن وأين عائلة السلطان محمود العثماني اليوم ؟ لقد عاقبهم الله سبحانه جزاء ما اقترفت أيديها من الآثام والجرائم بحق المسلمين الأبرياء وأخنى عليهم الدهر (أخنى عليها الذي أخنى على إرم) وسلب الله من ذراريهم الملك والسلطان ولم يعد يعرف عنهم أصلاً وهكذا يعاقب الله الظالمين ويمحو دابرهم ليكونوا عبرة لأولي الأبصار .

أما الموحدون آل سعود . فقد قامت دولتهم على أساس الدين والشريعة الإسلامية الغراء وهدفهم هو تحكيم القرآن الكريم فيما شجر بين الناس وإخلاص العبادة لله تعالى وحده وعلى هذا الأساس قامت دولتهم ونمت ورسخت جذورها فاستقبلها الناس رغبة وإخلاصاً وانضووا تحت لوائها عن رضى واقتناع عندما وجدوا أنها تحكم بشريعة الله وتنبذ ماعداها من قوانين وضعية جائرة . فأمد الله سبحانه هذه الدولة بأسباب القوة والمنعة والتفوق وصمدت أمام العواصف والكوارث وكلما صدمتها عاصفة هوجاء لم تلبث إلا قليلاً فتنهض كالمارد الجبار تنفض عنها غبار العاصفة وتعود إلى سابق قوتها وعنفوانها وعظمتها لتواصل

طريق البناء والقوة والعظمة مسترشدة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويكفيها شرفاً وفخراً أنها اليوم الدولة الإسلامية الوحيدة في العالم التي تحكم بموجب الشريعة الإسلامية الغراء مطبقة أحكام الشريعة بحذافيرها وفي طليعتها الحدود الشرعية الأمر الذي طهر أرجاء المملكة السعودية من جرائم القتل والفساد والخمر والسرقة وغيرها من الجرائم فأصبحت بفضل هذا التطبيق واحة للأمن والرخاء والإيمان ، الأمر الذي حرمت منه كثير من الشعوب والدول .

هذا ماذكره المؤرخ الإنجليزي مستر كيلي في كتابه بريطانيا والخليج ، الجزء الأول عن حملة بريطانيا ضد رأس الخيمة سنة ١٨١٩ ـ ١٨٢٠ م :

في الوقت الذي كان سادلر يسعى للحصول على رد من إبراهيم باشا[1] ، كانت الحملة تشق طريقها إلى مياه الخليج بقيادة السير وليم جوانت كير ولقد أقلعت الوحدة الأولى من الأسطول من بومباي يوم ١٨١٩/١١/٣ ، والتي سبق لها الاشتراك في الحملة الأولى ضد القواسم قبل عشر سنوات ، وكانت تتألف من الفرقة ٤٧ والفرقة ٦ والفصيلة الأولى والفرقة الثانية من مشاة بومباي ، وفصيلة بومباي البحرية والفصيلة الأولى والفرقة الثانية وسرية الجناح ٢٤ ووحدة من مدفعية بومباي ونصف عدد إحدى فصائل الاستطلاع وكان مجموع القوة كلها ١٠,٤٥٣ أوربي و٢,٠٩٤ كري هندي[2] ، أما سفن الحراسة فكانت تتألف من الطراد ليڤربول (٥٠ مدفعاً بقيادة الكابتن كوليير) والطراد كرلر (١٨ مدفعاً بقيادة الكابتن واليول) وطراد الشركة الموقرة أورورا ١٤ مدفعاً ، أما الطرادات التي

---

(١) لقد كتب سادلر بنفسه وصفاً عن هذه المهمة في كتابه مذكرات حول رحلة عبر شبه الجزيرة العربية . أما عن سيرته وحياته في بدايتها أو آخرها فيمكن الرجوع إلى كتاب « جورج فورستر سادلر » تأليف إف .إم. إدواردز طبعة عام ١٩٥٧ ص ٣٨ ـ ٤٩ ، وقد اعتزل العمل من الجيش في عام ١٨٣٧ وأصبح عمدة لبلدته كوك وفي نحو عام ١٨٥٥ هاجر إلى نيوزيلندا حيث توفي في إزكلاند يوم ١٨٥٩/١٢/٢ ، وغزو رأس الخيمة تم أثناء غيابه في نجد .

(٢) فارس والخليج مجلد ٣٢ من الحاكم العام إلى مجلس إدارة الشركة ١٨٢٠/٨/٩ .

كانت موجودة بالفعل في مياه الخليج فهي الطراد إيدن (٢٥ مدفعاً بقيادة الكابتن دوك) وتبين مـادت (١٦ مـدفعـاً) ونـوتيلـوس (١٤ مـدفعـاً) وترنيت (١٤ مدفعاً) وسيش (١٢ مدفعاً) وأبريل (١٠ مدافع) وفستال (١٠ مـدافع) وعنـد وصول الحملـة إلى خليج عمـان انشق عنهـا الطراد ليڤربول الـذي أبحر إلى مسقـط يحمل على ظهره قائد الحملة السير جرانت كير الـذي كلف بمقـابلـة السيـد سعيـد .
ولقـد سبق لنبين أن أوفـد في شهر أكتـوبر السير جـون أنـدرو جيركس من جيش بومباي ليستفسر من السيد سعيد عما إذا كان يوافق على رسو الحملة في جزيرة قشم وتزويـدهـا بـالمؤونـة وبـالزوارق الـلازمـة لإنـزال المعـدات والمـدفعيـة ، كما كلف جيركس أيضاً بإبلاغ سعيد بحجم العمليات المنوي القيام بها ، ومعرفـة مـاإذا كان سيوافق على الاشتراك فيها خصوصاً وأن اشتراك إبراهيم بـاشـا في الحملـة قـد أصبح مستبعداً الآن ، ولقد وجد جيركس السيد سعيـد على أتم استعـداد للتعـاون وقـال بأنه قد أصـدر الأمر بتجميع الخرفـان والعجول وغيرهـا من المستلزمـات في بنـدر عباس ، بالإضافة إلى تجهيز ٧٠ زورقاً لإنزال الجنود والمعـدات كما أبـدى استعـداده بتسيير ٤٠٠٠ من رجال القبائل إلى رأس الخيمة للمساهمة في الهجوم على البلـدة ، كما وعد بأنه سوف يخرج بنفسـه على رأس ثلاث سفن حربيـة و٦٠٠ إلى ٨٠٠ جنـدي للاشتراك في الهجـوم البحري على رأس الخيمـة وعنـدمـا وصـل كير إلى مسقـط في الأسبوع الثالث من نوڤمبر كرر سعيد تلك الوعود للمبعوث .

غـادر كير مسقـط يوم ١٨ نوڤمبر ولحق ببقيـة الأسطول بعـد ثلاثـة أيـام في مكان مـا من السـاحل الفـارسي وقـد وجـد أن بعض السفن لم تصل من بـومبـاي بعد ، ولكنه أبحر إلى ساحل القرصنـة على الطراد ليڤربول تـاركاً بقيـة الأسطول تتزود بالماء من جزيرة قشم وكان يرافقه الطراد والسفينة بنارس التي قـامت بمسح لمداخل رأس الخيمة ، وكان فصل الرياح الشماليـة يقترب بسرعـة وكان واضحـاً أن أي تأخير في إنزال القوات سوف يقضي على نجاح الحملة ولذلـك تم إرسـال السفينـة

بنارس إلى جزيرة قشم لتستعجل وصول قوارب النقل اللازمة للهجوم ، وفي يوم ٢ ديسمبر كان الأسطول يشق طريقه إلى رأس الخيمة بالاشتراك مع فرقتين من مسقط مع السيد سعيد ونحو ٦٠٠ مقاتل من رجال القبائل .

منذ الحملة الفاشلة على رأس الخيمة في نوفمبر ١٨١٦ قام القواسم بتعزيز وسائل الدفاع عن البلدة بصورة مكثفة حيث أقيم حولها سور ارتفاعه نحو (٩) أقدام وعرضه قدمين ، كما بني سور آخر أقيمت عليه بعض البروج بارتفاع قدره ٢٠ قدماً حول البلدة وإلى الناحية الجنوبية مباشرة أنشئت قلعة مربعة بالإضافة إلى عدد من البروج الأخرى التي تحيط بالنصف الأسفل من شبه جزيرة رأس الخيمة وكان بعضها يختفي وراء مزارع النخيل ، وقدر عدد المقاتلين في البلدة في حدود ٤٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ رجل وقد وقع الإنزال البريطاني التمهيدي يوم ٣ ديسمبر وكان هدفه المنطقة الرئيسية من البلدة كما أحاط الجنود بالمنطقة من البحر وقد انقضى بقية اليوم في إنزال المدافع والمؤن وفي حفر الخنادق ، وفي صباح ٤ ديسمبر بدأ الجنود من الفرقتين ٤٧ ، ٦٥ ، تحرشاتهم بالعدو والتوغل إلى خطوطه الأمامية . وبحلول الظلام كانت القوات البريطانية توغلت إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من القلعة الرئيسية وبدأت في قصف القلعة يوم ٥ وقد اقترب الطراد ليفربول لقصف المنطقة غير أن القواسم تمكنوا من صد الهجمات بمدافعهم ، وكانوا أحياناً يخرجون من خلف تحصيناتهم لمواجهة القصف البريطاني الذي كانت قذائفه تتساقط بعيداً عن الأهداف ، وقد تم إنزال مدافع أخرى من الأسطول يوم ٦ ديسمبر لتشديد القصف وفي تلك الليلة قامت مجموعة من القواسم بقيادة إبراهيم بن رحمة أخي شيخ رأس الخيمة بالهجوم على إحدى وحدات المدفعية واستطاعت أن تسحب أحد المدافع الهاوتزر ، ولكن مجموعة من الفرقة ٦٥ خفت لنجدة الوحدة بعد نشوب معركة بالسلاح الأبيض قتل خلالها مالا يقل عن ٩٠ من القواسم بما فيهم إبراهيم بن رحمة ، ثم قام القواسم بهجوم آخر قبل الفجر أمكن صده .

وفي يوم ٧ تم إنزال المزيد من المدافع من الأسطول بما في ذلك فيها مدفعان عيار ٢٤ من الطراد ليفربول . وفي الصباح التالي فتحت المدفعية البريطانية كل نيرانها على الحصن واستمر القصف طوال الليل . وما أن أشرف اليوم الثاني على الانتهاء حتى كانت أسوار القلعة قد تهشمت وقد زحف الجنود على القلعة لكنهم لم يجدوا فيها أحداً كما كانت البلدة نفسها خالية تقريباً من السكان الذين تمكنوا من الإفلات ، ويقال إن القواسم خسروا نحو ألف رجل بين قتيل وجريح ، خلال القتال الذي استمر خمسة أيام .

أما الجانب البريطاني فكانت خسائره في الأرواح ضابطاً وخمسة جنود ونحو ثلاثة ضباط ، و٤٩ جندي أصيبوا بجراح ، وكان من الممكن أن تكون خسائر القواسم أكثر لو أن الجنود العمانيين الذين أرسلهم سعيد عن طريق البر قد وصلوا في الوقت المناسب ، ولكنهم وصلوا رأس الخيمة بعد يومين من سقوط البلدة . أما الذين رافقوا السلطان في رحلة البحر فقد قدموا مساعدة قيمة في عملية إنزال المدافع والمعدات والمؤن من السفن وقد تقدم حسن بن رحمة لتسليم نفسه بعد ظهر يوم ٩ وجاء معظم من بقي من رجاله على قيد الحياة[1] .

لم يكن القتال على ساحل القراصنة قد انتهى بعد ، وفي الوقت الذي كانت الوحدات الرئيسية تقوم بعملها كان اثنان من الطرادات يحاصران بلدة رمس ،

---

(١) فيما يتعلق بعملية رأس الخيمة انظر الرسائل مجلد (٥) من نبين إلى جي دارت (سكرتير مجلس إدارة الشركة) لندن في ١٨٢٠/٤/٢٢ ومرفق به خطاب كير إلى الأدجوتانت جنرال جيش بومباي ورأس الخيمة في ١٨١٩/١٢/٩ وخطاب كير إلى واردن ١٨١٩/١٢/١٠ والتقرير الإداري للمقيم البريطاني في الخليج رقم ١٩٠/١ من الكابتن إف.آي كولبير إلى الأميرال كنج ، ليفربول رأس الخيمة ١١/٢١ ديسمبر ١٨١٩ (ومرفق بخطاب كروكر ١٨٢٠/١/٧ رقم (١٠٥) راجع أيضاً « الأسطول الهندي » تأليف لوو فصل ١ ص ٣٥١ إلى ٣٦٠ وينقل لو عن أحد الضباط الذين اشتركوا في القتال الذي قال بأن السيد سعيد ذكر بأن الجنود وصلوا من البر قبل نشوب المعركة غير أن هذا يتعارض مع تقرير كير .

الواقعة على الساحل ، وهي مركز حسين بن علي الشهير ونائب الحاكم الوهابي السابق في ساحل القرصنة . ولهذا تم إرسال الفرقة ٦٥ مع سريات الجناح التابعة للفصيلة الأولى والفرقة الثانية ووحدة داعمة من المدفعية إلى رمس لشن هجوم على الشيخ ولكن عند وصول تلك القوات إلى البلدة وجدتها خالية من السكان فقد انسحب حسين بن علي وأتباعه إلى قرية العينة على أحد المرتفعات على بعد ميلين وهناك تحصنوا في إحدى القلاع القديمة وكانت مشهورة بقوة تحصينها وقد ثبت ذلك فيما بعد ، فعندما وصل القائد كير إلى الضيعة اكتشف بأنه لا يمكن اقتحام القلعة إلا بعد قتال عنيف ولذلك عاد يطلب إمدادات من الفرقة ٤٧ والفصيلة الأولى والثالثة وتم إنزال مدفعين كبيرين من الطراد ليفربول وبصعوبة كبيرة أمكن نقل تلك المعدات إلى نقطة قريبة من المرتفع ، وقام بذلك بحارة الطراد كرلو . وفي يوم ٢٢ ديسمبر كانت وحدة المدفعية قد وصلت إلى موقع يمكن منه قصف القلعة وبعد قصف استمر ساعتين أمكن فتح فجوة في القلعة وبعدها استعد الجنود لاقتحامها ولكنهم شاهدوا علماً أبيض يرفرف فوق قمتها . ثم بعد ذلك خرج حسين بن علي ورجاله وكان تعدادهم ١٦٩ شخصاً . وقد تم نقلهم أسرى إلى السفن . وقد قتل من البريطانيين ضابط وثلاثة جنود وجرح ١٦ وتوفي أحدهم فيما بعد[1] .

لم تنته مهمة الحملة عند ذلك الحد فقد بقيت هناك أعمال أخرى يتحتم إنجازها كتدمير جميع تحصينات رأس الخيمة تدميراً تاماً وتفتيش جميع الموانئ إلى جنوبها بحثاً عن السفن التي تكون مختبئة فيها كما تعين على القائد كير أن يتخذ قراراً بشأن مصير الأسرى الذين كان أكثرهم بما فيهم حسين بن رحمة وحسين بن علي مرضى أو جرحى . وربما كان الأهم من ذلك كله هو الوصول إلى تسوية

(١) محادثات حكومة بومباي السرية رقم ٤ مجلد ٤٥ - ١٨٢٠/١/٢٦ من كير إلى واردن ١٨٢٠/١/٦ انظر كذلك « الأسطول الهندي » تأليف لوو فصل ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٦ .

سياسية تضمن أن لا يعود القواسم إلى ممارسة إرهابهم للمياه الواقعة بين البصرة وبومباي ، ولم يتلق كير أي تعليمات حتى ذلك الوقت ، وكان الوقت يجري بسرعة ، وكان لابد للأسطول من مغادرة المنطقة قبل أن تسوء الأحوال الجوية .

وفي أوائل يناير كان أكابر الشيوخ بالمنطقة قد حضروا إلى مقر كير لإعلان خضوعهم والإعراب عن صداقتهم ، وكان بينهم سلطان بن صقر شيخ الشارقة وشخبوط بن ذياب والد طحنون بن شخبوط شيخ آل بوفلاح في أبو ظبي ، ومحمد بن حزة شيخ دبي وكان لا يزال صبياً وقد جاء بصحبة عمه الأكبر بالإضافة إلى شيوخ عجمان وأم القوين والجزيرة الحمراء ولكي يكسب الوقت الذي يستطيع خلاله تلقي الأوامر من الهند وليؤكد للشيوخ أنهم لن يفلتوا ، وكان كير قد وجه الدعوة إلى هؤلاء الشيوخ للحضور والتوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد وتسليم أي أسير هندي قد يكون لديهم[1] . وتطبيقاً لهذه الاتفاقيات أمر كير بعض القوات بتفتيش جميع الموانئ ابتداء من رأس الخيمة حتى دبي . وتم تدمير جميع التحصينات والسفن التي وجدت في هذه الموانئ وتقدر قيمتها الإجمالية بـ ٨,٣٠٢ (أي ما يزيد على ٣٠٠٠٠ جنيه إسترليني)[2] ، ولما لم تصل الأوامر حتى الأسبوع الثاني من يناير ١٨٢٠ قرر كير أن يفرج عن السجناء بعد أن أخذ سكان رأس الخيمة يتذمرون من احتجاز شيوخهم خصوصاً وأنهم فهموا من شروط المعاهدة التمهيدية أنه سيفرج عن شيوخهم خلال بضعة أيام سيما وأن احتجاز الرجال القادرين كان يسبب متاعب لأسرهم .

---

(١) يمكن الرجوع لنصوص هذه الاتفاقيات إلى أتشيون (المعاهدات) جزء ١٠ ص ١٢٢ ـ ١٢٧ .

(٢) محادثات حكومة بومباي السرية رقم ٨ مجلد (٤٥) ١٨٢٠/٣/١ من كير إلى واردن ١٨٢٠/٢/٧ ووثائق بومباي السرية مجلد ٨ من الحاكم إلى مجلس إدارة الشركة ١٨٢٢/٧/٣١ (رقم ٣ الدائرة السياسية) وقد تم توزيع جزء من هذا المبلغ كمكافأة على البحارة والجنود .

يوم ٨ يناير استدعى كير حسن بن رحمة وأبلغه بأن قرار احتجازه يقوم على أساس أنه الشيخ المسؤول في رأس الخيمة ثم قدم له مسودة معاهدة للسلام كان كير قد أعدها بالاشتراك مع معاونيه وتنص ديباجة المعاهدة على ما يلي :

(بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الذي جعل السلام بركة على الناس ، وأنه بناء على ذلك يتفق الطرفان على توطيد السلم بين الحكومة البريطانية والقبائل العربية الموقعة على هذا العقد وذلك على الشروط الآتية ....)[1] .

الشرط الأول (المادة ١) تقرأ كما يلي (يجب الامتناع عن جميع أعمال النهب والقرصنة على البر وفي البحر من جانب العرب الموقعين على هذا الاتفاق إلى الأبد ، وتوضح (المادة ٢) من الاتفاق « مفهوم النهب والقرصنة » بأنها : أي عمل من أعمال العنف التي تقترف في أوقات السلم من جانب أي دولة وأن كل من يرتكب عملاً كهذا قد أهدر حياته وحقوقه . وتضمن البند الثالث إلى السادس توضيحاً للإجراءات التي يرى القائد كير ، أنها سوف تضع حداً لأعمال القرصنة ، وكان قد طلب إلى كير في التعليمات التي أرسلت إليه بأن يقرر ما إذا كان من المناسب وضع أنظمة للملاحة تلتزم بها القبائل البحرية ويمكن بموجبها للأسطول البريطاني تحديد هوية السفن العاملة وتحديد تسليحها وتفتيش موانيها وقد اقترح كير أن ترفع سفن القراصنة علماً أبيض عليه خط أحمر كعلامة مميزة لها سواء كانت مبحرة أو راسية في الميناء ، وكان كير يرمي من وراء اقتراحه هذا أن يكون العلم هو رمز للعلاقات السلمية القائمة بين القبائل من ناحية وبين الإنجليز من ناحية أخرى ، كما تنص المعاهدة على أن تحمل كل سفينة سجلاً وتصريحاً بالسفر (أذن خروج) يوقع عليه شيخ المنطقة ويبين فيه حمولة السفينة ونوع تسليحها ومنشأتها ووحدتها ، وعلى ربابنة هذه السفن إبراز هذا التصريح

---

(١) انظر معاهدات جزء ١٠ ص ١٢٧ .

للطرادات البريطانية عندما تقوم بتفتيشها على أن يجدد هذا التصريح سنوياً ويصدق عليه ممثل من قبل الحكومة البريطانية .

وقد تناولت بقية الاتفاقية في بنودها الخمسة موضوع التزام قبائل ساحل الخليج بمبادئ السلوك الإنساني في تعاملها مع بعضها البعض ، فنصت الفقرة الثانية التي كتبت (وذكريات فظائع القواسم لاتزال حية في الأذهان) على حظر إعدام الأسرى ، كما نصت على القيام بعمل مشترك بين القبائل والحكومة البريطانية ضد كل انتهاك لهذا الالتزام ، كذلك اشتملت الاتفاقية على نص مشابه في حالة ارتكاب أعمال القرصنة العادية بموجب المادة السابعة . أما المادة التاسعة فقد نصت على حظر نقل العبيد من أفريقية بقصد الاتجار ، وقد اختتمت الاتفاقية بنودها ببند ينص على استخدام موانئ الهند لسفن القبائل البحرية للأغراض التجارية وموانئ الدول الحليفة للحكومة البريطانية أمام السفن[1] .

وفي يوم ٨ من يناير وقع حسن بن رحمة وشيخ الجزيرة الحمراء على معاهدة السلام العادية كما سميت فيما بعد ، أما الشيخ شخبوط بن ذياب حاكم أبو ظبي فقد وقعها بالنيابة عن ابنه طحنون في اليوم الثالث من إبرامها ، كما وقع عليها شيخ رمس حسين بن علي وعم شيخ دبي بتاريخ ٢٨ من يناير . وفي نفس اليوم تلقى كير التعليمات التي كان ينتظرها وقد صدرت من بونشتورت الفينستون[2] بومباي بعد وقت قصير على خروج الحملة ، وقد تضمنت التعليمات التي أرسلت إلى كير

---

(١) المعاهدات « تأليف أتشيسون » جزء (٢) ب ص ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٢) ولد الفينستون عام ١٧٧٩ وهو الابن الرابع لعمدة اسكوتلندي وقد التحق بالعمل في الشركة ككاتب في مكاتب الشركة بالبنغال وكان عمره إذ ذاك ١٥ عاماً ووصل الهند في فبراير ١٧٩٦ وقد تبناه وليسلي وبعد ذلك بوقت قصير عين مساعداً للمقيم في بونا عام ١٨٠١ ثم في ناجيور عام ١٨٠٤ وفي عام ١٨٠٨ اختاره منستو لرياسة البعثة البريطانية إلى كابل ومنذ عام ١٨٢٧ عمل مقيماً في بونا وفي نهاية الحرب الثالثة للمهراتا عين محافظاً للمقاطعة دكني وكان تعيينه في بومباي خيبة أمل كبيرة لجون مالكولم الذي يأمل أن يحتل المنصب .

توصيات الفينستون التي تضمنها خطابه إلى الحاكم العام بتاريخ ١٨١٩/١٢/١٥ حول السياسة التي يتعين على القائد كير اتباعها في الخليج ، وهي لم تكن تختلف اختلافاً كبيراً عن تعليمات سلفه . وتضمنت التعليمات رأي الفينستون في أن السبيل الوحيد لتصفية القرصنة في الخليج هي في إخضاع السفن للتفتيش بشكل منظم من قبل الأسطول البريطاني ، وفي تدمير معاقل القراصنة تدميراً تاماً وتعيين مندوب بريطاني محلي في رأس الخيمة ليقوم بالتأكد من السفن العاملة ، وفي تشجيع الروح التجارية بين القواسم وربطهم بالمؤثرات الحضارية الحديثة عن طريق حثهم وتشجيعهم على القيام بزيارات إلى موانئ الهند للأغراض التجارية وقد اقترح الفينستون عزل حسن بن رحمة من المشيخة وتنصيب خليفة له يكون على استعداد للعمل بموجب هذه القرارات[1] . أما إذا لم يكن هناك شيخ يرضى بالعمل على أساس هذه التوصيات ، فيعهد إلى سلطان مسقط بالإشراف على بلدان الساحل وقيام أسطوله بحراسة سواحل المنطقة ومداخلها .

---

(١) محادثات حكومة بومباي السرية حلقة ٥٣ مجلد ٤٣ بتاريخ ١٨٣٩/٢/٥ من الحاكم إلى الحاكم العام بنفس التاريخ .

وثائق معاصرة لتلك الفترة

ماذكره المؤرخ ميخائيل الدمشقي في كتاب حوادث الشام ولبنان :

ثم إنه في شهر ذي الحجة ١٢٢٢ هـ وردت أخبار برجوع الحج والباشا إلى المزيريب هرباً من عبد الوهاب[1] الذي تسلط على الحجاز وجمع غفير تبعوه (وشاع) القول أنه من حين وصل الباشا لتلك الأماكن قام عليه الأهالي ومنعوه من الدخول إلى بلادهم ودعواهم أنه أخذها الوهابي[1] . وما كان أحد يتحرك لمرافقته حتى أن الوهابي أرسل علما للباشا إن كنت تريد تحج لا بأس ولكن بشرط تسلمني السنجق والمحمل وسلاح العسكر وأنا أخفرك للشام . وأما ماارتضيت فأطردك .

وكان كيخية الوالدة[2] مع الباشا . فعمل الباشا ديوان بحضوره والصراة أمين[3] وأشهر لهما أنه يحارب الوهابي فمنعناه وأشار إليه أن يرجع للشام وهما يعطيان جواباً للسلطان وأخذ منهما سنداً بذلك ورجع للشام بغير حج بسرعة كلية .

وبقي هناك جانب من الحجاج منهم فُقدوا بالطريق ومنهم تاهوا وقاسوا الأهوال من التعب والعطش حتى وصلوا للشام ومنهم حجوا برضى الوهابي ورافقهم جماعة وهابية إلى أراضي الشام .

---

(١) الإمام محمد عبد الوهاب .

(٢) (يريد والدة السلطان) أي مساعدها .

(٣) الصرة أمين هو ناظر المال .

وحين وصول الباشا للشام صار ضوجة (ضجة) واضطراب بين الإسلام . أخبرنا رجل عمدة كان بالحج أنه لما حضر الشريف الكبير إلى خيمة الوزير ومعه رجل من أتباع الوهابي صار يحكي الشريف عن سطوة الوهابي واقتداره وأنه غير ممكن يخلي الحج يمشي بهذه الطريق وصار يتلاوم على دولة العثملي (العثمانية) وأنْ ماعاد لها تدبير وتركتونا لهذه الحدود حتى خرجت البلاد والمقام وأن هذا ماعاد منه رجاء بإصلاحه وكان الديوان كيخية الوالدة فجاوب الشريف بكلام ركيك فقام إليه الشريف ومسكه من لحيته وقال له : كل الغضب منك لأنني حينما توجهت لإسلامبول منذ خمس سنين ونزلت في بيتك وتكلمت معك كثيراً بهذا الخصوص وترجيتك تجمعني بالسلطان وأنت تحادف (تماطل) واستقمت عندك ستة شهور وما كان يمكن تدعني أملك أربي ورجعت خائباً . ثم حلف يميناً لولا الخواطر قتلتك مكانك . وأظهر غضبه وتكلم بالديوان : إننا نحن والوهابية عليكم . وقام مع أرفاقه مغضباً وبعد ذهابهم التفت كيخية الوالدة وخلافه إلى الباشا وحسنوا له الرحيل لئلا يجد شيئاً ردياً . فحالا قاموا بسرعة وجدوا بالسير ركضاً . القول (يقال) إنهم أخذوا القناقين بقناق[1] والذي فكروا فيه تم . لأن الشريف برجوعه إلى مكة ندم على ترك الجماعة فجمع عسكراً وجاء عليهم فما وجدهم فركضوا في أثرهم فما حصلوهم وهكذا سلموا منهم على أهون حال .

ثم بعد حضور الباشا طمع به أهل الشام والمتسلم نزل عن وظيفته . فبعد أيام نزل حرامية على بيت الباشا وتحسب[2] جداً لربما قصدوا به ضرراً . فحصل شلش واحتساب كبير وثاني يوم جاب معمارية ونجارين ورفع الحيطان والطبلات وبهذا الصنيع طمعت به الناس والبلد صارت فالتة كلياً . وأما عبد الرزاق فإنه استقام بالقلعة ماطلع منها أبداً . والباب مفتوح وعليه حراس . فبعد أيام قليلة

---

(١) (القناق بالتركية المرحلة وسير اليوم) .

(٢) (تخوف وتحذر) .

شاع الخبر بعزله من ولاية الشام وتولي كنج يوسف الدالي باش المذكور .

وكانت ولاية عبد الله باشا سنتين وهي الأخيرة من أحكامه . وفي زمان حكمه وقع حيط البرج بالقلعة بالطرف وظهر البير الذي وضع فيه عبد الرحمن المرادي ورفاقه . وهذا البير بمنزلة جب تحت الأرض بحيط السور وهو واسع وله نافذة تسمى زغلول على السور يدخل منها الضوء فراح الناس لهذا المكان يتفرجون عليه فوجدوا المفتي متكي بثيابه وبلي وجهه . إنما أمره ظاهره . والدفتردار ملقى على قفاه وابن سبح نظروه ناحية الطاقة مطبوباً على وجهه . حال محزن . وكان محمد عقيل قبرهم أحياء . فأعرض أقرباء عبد الرحمن أفندي المفتي لعبد الله باشا أنهم ينقلون جسمه الى تربتهم في بيته بسوق ساروجا فما ارتضى الباشا أنهم ينقلوا جسمه وقال : إن هذا الحال مستغرب ويصير منه شلش . ثم طلب المعمار باشي وأمره أن يبني بوجه السرعة حيط البرج ويرجعه كما كان وتم ذلك حالاً وبقي كل شيء بحاله ومضى الأمر .

(تولي يوسف باشا) في شهر صفر سنة ألف ومايتين واثنين وعشرين (١٨٠٧ م) ورد العلم من الدولة بولاية المذكور . وبوقته كان في حوران فراح المبشرون لهناك وبالحال حضر للشام . وعبد الله باشا لزم بيته وراح سلم على يوسف باشا وقدم له المذكور الإكرام اللائق لكونه ولي نعمته .

ثم بعده جاء أمر بقيام عبد الله باشا إلى أدنه . فقبل ذهابه أعطى إلى يوسف باشا المال الذي له عنده وحيث ما وجد عنده غرش يكفيه فاستد منه طقومه وغيرها . وبوقته انحاش (قبض على) درويش آغا ابن آغا كتخداه عبد الله باشا . سجنه (يوسف باشا) بالقلعة وتهدده بالعذاب وأخذ منه مبلغ مال وخيل وطقم . والناس حصلوا في وجل وخوف من الباشا لأنه ضيقهم حين كان متسلم فكيف الآن . ولبس (وسمى) كتخداه الشربجي حسن آغا تمر وهذا عميد

الإنكجارية[1] واستكنت الوجاقات[2] لأن الخوف دخل على الجميع . وقتل بعضاً من المحبوسين الحرامية وكل من أذنب من جديد والذي يقع ليس له شفيع ولا رفيع .

اعلم أن هذا الباشا أصله كردي شراه ملا إسمعيل وأخيراً فاق على سيده وخدم عند عبد الله باشا وصار دالي باش[3] وضمن ضيعاً وأراضي وجمع أموالاً غزيرة وأنشأ بيتاً معتبراً بالشام ومن رخاوة الحكم طمع بالناس وتظاهر بالقوة والاقتدار وجعل له معرفة من أعيان الدولة في إسلامبول بواسطة رجل حمصي يدعى عبود البحري كاتب عند عبد الله باشا . ففي مرور كيخية الوالدة للشام بقصد الحج نزل في بيته وقدم له إكراماً كلياً . وفي غيبته بالحج كان متسلماً فصار يرسل كتابات لأعيان الدولة وترجى منصب الشام . ومن كونه في مشروب الدولة استند على عبور المذكور حيث أن المذكور يفهم جيداً إنشاء الكتابات ومختبر حال الدولة بسبب خدمته عند الوزير سنين . فاستوت الطبخة وانكتم السر حتى حضور الحج . وبالأخص أن الدولة كرهت عبد الله باشا من مزاياه وعدم ملاحظته بتدبير الأحكام . والأبلغ في عزلته رجوعه خائباً من الحج . وبعد مجيء كيخية الوالدة وتوجهه إلى إسلامبول سعى في ولاية يوسف باشا باجتهاد وأفهمهم عن شطارته ومعاركته بالحروب وأنه يمكنه محاربة الوهابي وينتصر عليه فأرسلوا له المنصب .

---

(١) أي رئيس الإنكجارية .

(٢) الوجاق النسق من الجند والمقاطعة والناحية .

(٣) أي زعيم قومه .

ملحق (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر رقم (١) معية تركي .

رقمها في وحدة الحفظ : ٥

تاريخها ٨ شوال ١٢٢٢ هـ ـ ٩ سبتمبر ١٨٠٧ م .

موضوعها : موسى باشا يحث محمد علي ، على حرب الدولة السعودية .

ـ ترجمة ـ

ختم | **من موسى باشا (القائمقام سابقاً**
رب سهل أمور | **أي القائم مقام السلطان : النائب عنه)**
موسى كل آن | **إلى محمد علي**

حضرة صاحب السعادة والإنسانية ، والرجولة والشجاعة ، وذوي الجود والكرم والمحبة والمودة أخي الأعز الأكرم .

لقد ورد إلى محبكم الصادق ، هذا خطاب سعادتكم ، الذي تكرمتم بإرساله فاطلعنا عليه وأحطنا بفاده الكريم : ومزاياه السامية ، التي جعلتنا نشعر بسرور كبير ، وبإكبار جليل ، نحو شخصكم الكريم ، إذ علمنا أنه قد اتجهت نيتكم الصادقة إلى معالجة مشكلة الوهابيين ، بعد دخولكم مصر مباشرة ، حيث تريدون أن تتفرغوا هناك تفرغاً تاماً لإعداد العتاد الحربي ، ووسائل القتال اللازمة لمقاتلة

الوهابيين وأنه حدث عندكم أن بعض الجنود تـذمروا ، من تـأخر صرف رواتبهم ، فأخـذوا يشتكون ويرفعون أصواتهم بـالشكوى أمـام إخوانهم الآخرين ، الـذين لم يتـذمروا مثلهم ليستفزوهم حتى ينضموا إليهم ، وأنـه لـولا المعـاملـة الحـازمـة التي أدركتم بهـا شكـوى هـؤلاء ولـولا التصرف الحسن الـذي تصرفتم بـه لإسكاتهم ، وإخضاعهم للطاعة ، لاستفحلت الفتنة وعمت الجيش كله ، وأنه قد عادت الحالـة في الجيش إلى سيرتهـا الأولى ، كأنـه لم يقـع فيـه أي شيء بفضـل تلـك المعـاملـة الحازمة ، وبذلك وعليـه فبم أن هـذين الخبرين العظيمين السـارين اللـذين أدخلا السرور الكثير في قلبنا ، قـد أثبتـا أن سعـادتكم جـديرون بـأن نـدعو لكم بـالنصر والتوفيق ، في تمشيـة أموركم ويوفقكم فيهـا على الـدوام آمين ، ومـا دمنـا في صـدد الإعجاب بما تنوون أن تقوموا به بشأن مشكلة الحجاز ، وأيضاً في سبيل استحسان ماقمتم به لإخماد الفتنـة ، التي كادت أن تقع في الجيش ، فـإنـا نطلب كـذلـك من ذاتكم السامية ذات النفوذ والجاه الحائزة إعجاب العالم بذكائها وتجاريبهـا الموفقـة ، وبإحسانها معالجة الأمور وتصريف الشؤون إحسـانـاً تـامـاً ، والغيورة على شرف الوطن ، والعاملة لحمايته من اعتداء المعتدين وإهانـة المهينين ، أن تكون طـريقـة إجرائها في تمشية أمور البلاد وتصريف شؤونهـا من بعـد الآن كـذلـك بـالطـريقـة المثلى وببذل الجهد والهمة حتى تكلل هذه الإجراءات بالنجاح ، وختاماً ، فها نحن أولاء قد حررنا لكم هـذا الخطـاب المعبر عن ودنـا الخـالص الصـادق وأرسلنـاه إلى

يستخلص من هذه الوثيقة

- مماطلة محمد علي للدولة العثمانيـة وتقـديمـه للأعـذار عن عـدم قـدرتـه على دخول الحرب ضد الدولة السعودية .
- قلق الدولة من اتساع نفوذ الدولـة السعوديـة وسيطرتهـا على الحجـاز واعتبـار استيلاء هـذه القـوة العربيـة على الحجـاز يعتبر مشكلـة خطيرة فنقـول « مشكلـة الـوهـابيين » « مشكلـة الحجاز » .

سعادتكم لتحيطوا بما فيه ولتبلغكم به أن الذي ننتظره أن تفعلوه كـذلـك من بعـد الآن ، أن تقدموا إقداماً تاماً على قطع دابر الوهابيين هؤلاء ، وإزالة (...) إزالة تـامـة ، وأيضـاً على تصريف شـؤونكم الأخرى التي ستكلفـون أن تقـومـوا بهـا ، تصريف يتفق وشيمة التروي ودرس الأمور وتمحيصها قبل الشروع في تنفيـذهـا ، التي أنتم متسمون بها ، والتي عهدنـاهـا فيكم حتى الآن ، فعنـد وصول الخطـاب إلى سيادتكم إن شاء الله تعالى واطلاعكم عليه ننتظر أن تتكرموا ببـذل همتكم في العمل بما جاء فيه .

ترجمة حسين حسني إبراهيم

ملحق (٢)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية - القاهرة .
وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ٦ .
رقمها في وحدة الحفظ : ٤ .
تاريخها : أواخر ذي الحجة ١٢٢٢ هـ - فبراير ١٨٠٨ م .
موضوعها : اعتذار محمد علي عن عدم قيامه بحرب الدولة السعودية وشرحه للظروف التي أدت إلى اعتذاره .

صورة العريضة المحتوية على : إنه وإن لم يمكن الذهاب إلى الحجاز في هذه السنة المباركة بناء على بعض المحاذير فستكون حركة ولي النعم في السنة الآتية بمنه تعالى .

أحيل إلى عهدة عبدكم ، تصفية الحرمين ، (....) ، بموجب الهمايونية التي هي بالشوكة مقرونة ، فسمعا وطاعة ، وليس لي جواب غير مؤدى « سمعنا » ، ومن الجلي أني عبدكم ، عبد الدولة العلية ومملوكها ، تصدر الحكم في حق هذا العبد كيفما تختار وتريد ، بيد أن وقعة الحرمين هذه ليست من المواد التي تخرج إلى حيز الوجود ، بمثل هذه الأدنى وحده بل هي مادة جسيمة ، تحتاج إلى إمداد السلطان ملجأ العالم ، بإرسال مبلغ عشرة آلاف كيسة نقدية ، والمهمات الوافية ، وحيث أني أصبحت مثقل الكاهل بديون كثيرة سواء كانت من جهة ، أن بعض أراضي مصر بقيت شراقي غير مرتوية ، من قلة الفيض في ماء النيل الذي هو الحياة للأقاليم المصرية ، في هذه السنة المباركة ، أو من جهة فتح الاسكندرية أو

من جهة مبالغ كثيرة تعهدت بها من باقي ديون سلفي خورشيد أحمد باشا ، ومن عدم وصول بارة واحدة إلى يدي من حاصلات الصعيد ، من أجل أن أقاليم الصعيد بيد المماليك ، وأن الدولة الهمايونية بناء على انشغالها بالحرب ، الحالة هذه أصبحت الأقاليم مطامح ـ أنظار جميع دول النصارى ، فأقرب الاحتمال وأجدره بالملاحظة ، احتمال أن يتسلط أعداء الدين على السواحل المصرية فيما إذا أرسلت العساكر الموجودين بمعية عبدكم إلى الحجاز لم يمكن زحفي وسفري في هذه السنة إلى ذلك الصوب المبارك ، بسبب هذه الموانع ، فإلى السنة الآتية أتخلص بإذن الله تعالى من ديوني ، التي استغرقتني ، وتفرغ مادة الحرب الهمايونية في قالب فعقب اندفاع هذين المانعين القويين ، لا جرم أتوجه نحو الجانب المذكور بالنفس بترتيبات قوية ، وتداركات وافية جهد طاقة هذا العاجز ، متوكلاً على الله مع الاستعداد بإمداد السلطان وقوته ، وتحت رعاية حضرة السلطان وظله الظليل ، فالله سبحانه المسؤول ، أم يجعل توفيقاته العلية والهمة القلبية السلطانية ، مرافقة لهذا العبد العاجز ، فها هي الموانع التي حالت دون عزمي على السفر في هذه السنة حسبما ذكرت بوجوهها ، وأنا من الآن جار على ترتيب ثلاثة أو أربعة آلاف من العساكر ، وعلى استعداد إرسالهم إلى جدة ، وتلك الحوالى بطريق السويس بحراً بمستوفي الذخائر والمهمات وكامل للعدة والأدوات . وإن لم أتمكن من السفر لمجرد تلك المحاذير المسرودة .

هذه الترجمة طبق أصلها التركي

(محمد زهدي)

أواخر ذي الحجة سنة ١٢٢٢ هـ ـ تقريباً فبراير ١٨٠٨ م .

ملحق (٣)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ٩ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٧) .

تاريخها : ١١ محرم ١٢٢٣ هـ ـ ٩ مارس ١٨٠٨ م .

موضوعها : محمد علي يظهر عجزه عن القيام بحرب الدولة السعودية بمفرده ، وتخوفه من استغلال القوى الخارجية لفرصة غيابه عن مصر والاستيلاء عليها .

صورة القائمة[١] المحررة من طرف ولي النعم المشعرة بطلب تحرير من الصدر الأعظم ، يؤمن على عدم وقوع تسلط على مصر من طرف دول النصارى ، حين الذهاب إلى الحجاز ، حسب لزوم الاحتراز منهم أيضاً ، وطلب سند التعهد لفتح الحجاز .

سر عبدكم كال السرور ، ماحضر به عبدكم صاحب السعادة عبد الكريم آغا من أغوات القصر السلطاني (مابين همايون) من الخطوط الشريفة ، والعطايا السنية الملوكية ، ومن الظاهر المستبين أني أفدي برأسي وروحي في سبيل المرضاة العلية ، مواظباً على الدعوات الخيرية ، لمولانا السلطان ، صاحب الشوكة ،

---

(١) القائمة : نوع من المحرزات يكتب على ورق مستطيل في اصطلاح ذلك العهد كما يستفاد من القاموس التركي للعلامة شمس الدين سامي بك . وفي أقرب الموارد « القائمة : الورقة المكتوبة » .

مادمت في الحياة ـ أحسن الله تعالى بالتوفيق والسلامة آمين ـ وقد وقع التفضل بتفويض تصفية الحرمين الشريفين من يد (...) لعهدة هذا العبد بالإرادة السلطانية ، وفي أمركم العالي الخاص الوارد في هذه المرة مع عبيدكم موظفي البريد المزدوج ، قد بسط وبين تقرير مصطفى أفندي ، كتخدا داعيكم صاحب السماحة ، عارف بك أفندي ، نجل خليل حميد باشا ، وأحاط عبدكم علماً بما حواه من طلب سند فيه للتعهد بهذه الخدمة الدينية ، مختوم عليه من جانب عبدكم ، وبما احتوى عليه من التكفل والتعهد من قبل الجانب العالي النصاب ، بإسعاف جميع مسؤولات هذا العاجز في هذا الشأن ، كما هو مستغن عن البيان ، وحصل أيضاً الاطلاع على ماتضمنته الإرادة العلية السلطانية ، فسمعنا وأطعنا والله يعلم ، وسادتنا أولياء النعم لا يخفى عليهم أيضاً ، أن عبدكم عبد طائع ومملوك خاضع ، لسلطاني ومولاي صاحب القدرة والمهابة ، فعلى تقرير الكتخدا المومى إليه ، يؤمل أن تقترن كافة المصالح السلطانية بالنظام ، والانتظام ، وها هو قد دخل تحت الطاعة نصف طائفة المماليك ، وأما النصف الآخر فعلى وشك المتابعة والمطاوعة في هذه الأيام ، وأصبح اندفاع غوائلهم جميعاً بالقوة القريبة من الفعل ، وأتخلص من ديوني إن شاء الله تعالى بفتح إقليم الصعيد ، تحت ظلال رعاية السلطان وكلاءته ، لكن مثل هذا العدو القوي (...) الذي استولى على إقليم الحجاز من عشرين سنة ، وزاد تمكناً واستقراراً سنة فسنة ، ودام على ضبط ولايات باستمرار لا تندفع أضراره بزحف عبدكم بجيشه من طرف مصر فقط إلى مكة والمدينة اندفاعاً كلياً ، بل يلزم لذلك أن يجرد جيش من طرف الشام ، وعكا ، وبغداد ، فإذا وقع زحفنا هكذا إلى مكة والمدينة ، وقمنا بحملة واحدة بمخابرة بعضنا مع بعض ، يصبح تنظيم المصلحة وإنتاجها أسهل ، باعتبار جميع الوجوه ، ولا يكون دفع (...) المرقوم وإزالته من مكة والمدينة فقط ، بل من موطنه الأصلي أيضاً ، كما هو واضح جلي ، على أنه بالنظر إلى عدم انعقاد المصالحة مع دول النصارى ، لحد الآن ، وكون إقليم مصر مطمح أنظار جميعهم ،

لاتكفي العساكر الموجودة بمعية هـذا الخـادم المطيع لمصر ، والزحف بجيش جسيم على (...) في آن واحـد ، فـإذا حصل التفضل بإصـدار أمر عـال يـؤمن على أن المذكورين لا يتسلطون ، في هذا الباب ، بحيث يوجب طمأنينة بـال عبـدكم ، مع إرسال مايحتاج إليه من الأشيـاء اللازمـة ، وأزحف إلى جـانب الإقليم المبـارك في السنة الآتية ، وأسعى جهـد الطـاقـة وأجتهـد اجتهـاد المستميت قولاً وفعلاً وقلبـاً وقالباً ، في إزالـة العـدو المـذكور ، وأدعو الله عز وجل ، أن يوفق عبـدكم ، لتتميم هذه المصلحة الخيرية أيضاً وإنجازها بإمداد روحانيـة رسول الله ﷺ ، وبقوة يمن طالع مولاي السلطان إن شاء الله تعالى . وقد حررت هذه العريضة من خـادمكم المطيع بياناً لذلك ورفعت إلى حضور دولتكم صحبة الآغا المومى إليه عنـد إيـابـه وعودته ، وإن كان من الجلي المستبين أن مـاأحـاذره سوى الـديون التي استغرقتني لأجل تسخير قلعـة الإسكنـدريـة ، هو ملاحظـة تسلـط دول النصـارى على إقليم باب الحرمين والاحتراز منه ، فعند تشرفنا بوصول عريضتنـا بـإذن الله تعـالى إلى المقام العالي ، ولدى انعقاد المصالحة وورود مـايحتـاج إليـه من الأشيـاء المـذكورة المسرودة في الدفتر ، أزحف مع الجيش بالنفس في السنـة الآتيـة ، وحينمـا أحيـط علماً بمبلغ جهـدي وغيرتي وإصراري في شـأن هـذه المصلحـة الخيريـة ، وبـأفكاري وأذكاري في ليلي ونهاري من تقرير عبدكم عبد الكريم المومى إليه .

في ١١ محرم سنة ١٢٢٣ هـ ـ ٩ مارس ١٨٠٨ م .

هذه الترجمة أصلها التركي
(محمد زهدي الكوثري)

ملحق (٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ١٢ ـ ١٣ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٨) .

تاريخها : ١١ محرم ١٢٢٣ هـ ـ ٩ مارس ١٨٠٨ م .

موضوعها : طلبات محمد علي ، من الدولة العثمانية ، اللازمة لتجهيز الحملة .

صورة القائمة الموضوعة على الدفتر المقيد في الذيل :

إن الأشياء المذكورة ، المسطورة في الدفتر المقدم إلى موطئ أقدام الدولة الأبدية المدة ، مطوياً داخل عريضة هذا الخادم المطيع ، ضرورية الورود من الدولة العلية ، على كل حال ، كما تقضي بذلك الحاجة ، لأنها على تقدير إجراء ابتياعها من هنا ، يكون ابتياع كل ذراع من الجوخ بخمسة وعشرين قرشاً اليوم ، بسبب أسفار الدول الحربية الجارية ولا تكاد توجد أصلاً الأشياء المذكورة في الدفتر من الأجناس وغيرها ، على تقدير عدم إجراء المصالحة معهم من الآن فصاعداً ، أما ما أحتاج إلى تجهيزه من المصروفات من هنا ، فما يوجد بمعية خادمكم المطيع من العساكر البالغ عددهم عشرة آلاف جندي ، لأجل الحركة ، والقيام على (...) ، حيث أن ما ينوف على النصف منهم فرسان خيالة ، يزيد عدد المستخدمين السواس والجمالين وعكا[1] الجيش وسقاتهم على ثلاثين ألف شخص ، وأجرة مصروفات ستة آلاف جمل ، لنقل ما يحتاج إليه من المؤن

(١) هكذا في الأصل (عبد الرحيم) .

لطعـامهم اليومي ، لكل يوم ، وثمن مـأتى أردب من الغلال ، لستـة أشهر في المحل المبـارك ، وثمن أربعمائـة ألف أردب من الغـلال لسنـة بـالمحـل المــذكـور ، وأجرة مهـاري ، لنقلهـا براً إلى مرفـأي القصير والسـويس ، ومصروفـات السفن أيضـاً إرسالها إلى ينبع وجدة ، والعطايـا الضخمـة لأغوات الـداخل والخـارج ، وسـائر الرجال الأميرية ، وعلوفات عساكرنا ، ومعيناتهم على حساب مائـة وخمسين ألف خرج[1] ، ومصروفات عمارة خمسة قلاع ، لوضع الذخـائر فيهـا ، إلى أن تصل من مصر إلى الحجاز ، والصرر والعطايا على المعتاد القديم لطائفة العربـان الواقعـة في الطريق ، ولأهالي مكة والمدينة ، ولحضرة شريف مكـة ، والصرر فوق المعتـاد ، لجلب قلوب العربان ، بإعطائها على حسب الاقتضاء أحياناً والحـاصل أن إعطـاء هذه المصروفات يحتاج إلى خمسة وثلاثين ألف كيسة نقـديـة ، أو إلى أربعين ألف كيسة نقدية ، وتصرف هذه المبالغ خدمة لـديننـا ودولتنـا ، بنـاء على أنهـا تكون سبباً لإنجاز المصلحة الخيرية ، ومع ذلك قد بقيت الأقـاليم شراقي من قلـة المـاء في هذه السنة المباركة .

---

(١) الخرج : يوازي عشر التذكرة من العينات . كان مصطلحاً عليه قبل ربط العسـاكر بـالرواتب (المترجم : محمد زهدي الكوثري) .

ملحق (١٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ١٧٢ .
رقمها في وحدة الحفظ : (٧٢) .
تاريخها :غرة رمضان ١٢٢٦ هـ(☆) ـ ١٩ سبتمبر ١٨١١ م .
موضوعها : الإشعار عن سفر حملة طوسون .

صورة القائمة المحررة إشعاراً عن خبر حركة مولانا صاحب الدولة طوسون أحمد باشا من بركة الحج مع جيشه .

وكان أنهى سابقاً إلى الباب العالي ، وعرض إركاب العساكر في ثلاث وستين سفينة ، وإرسالهم بحراً إلى الحجاز ، تحت قيادة الأغوات ، رؤساء البوابين (الحجاب)(☆☆) المستخدمين بمعية هذا الخادم المطيع : بترتيبهم على قسمين ، مع التنبيه لقائدي هذين القسمين ، بإيصال القسم الأول منها توّاً إلى مرفأ ينبع ، وإمرار القسم الآخر بمرفأي مويلح والوجه (وش) ، وإبقاء المقدار الكافي من العساكر والذخائر فيهما ، ثم الذهاب بالباقي إلى ينبع أيضاً ، وبسائر ما يلزم من التعليمات وإن ولدي عبدكم الحاج طوسون أحمد باشا . يرحل إلى جهة مأموريته

(☆) في الأصل غرة رمضان سنة ١٢٢٨ وصوابه سنة ١٢٢٦ كما يظهر من المحررات السابقة واللاحقة (المترجم) .

(☆☆) يعني الحائزين لرتبة رياسة البوابين (المترجم) .

مع جيشه ،عقب انتهاء تجهيز ما رتب من الزاد والذخيرة للمحلين المدعوين نخيلة والعقبة ، والواقعين في الطريق المستقيم براً .

فها هو قد أرسل عبدكم الباشا المومى إليه أيضاً ، يوم الخميس غرة شهر رمضان الشريف الحالي براً إلى الجهة الباهرة السعادة ، بترحيله من بركة الحج تام العدد مستكمل التجهيزات ، ومعه من العساكر المنتخبين ثلاثة آلاف فارس من أصحاب السيوف والأسنة ، فالله سبحانه مَنّ عليهم بالتوفيق والسلامة . وأوحى للقائد العام على هؤلاء العساكر (سر عسكر) عبدكم الباشا المومى إليه ، باتخاذ طور يستلزمه ما يتخذ من التدبير والحركة ، حسبما تقضي به المصلحة لدى وصول جيشه إلى حوالي ينبع في عهد قريب إن شاء الله تعالى ، واجتماع الجيوش البحرية والبرية هناك ، كما وقع الإيماء إلى ذلك في عريضتي السابقة ، وزود أيضاً حضرات مفتي المذاهب الأربعة ونجل المحروقي الذين هم بمعية الباشا المومى إليه ، مأمورين بالسعي في استجلاب قلوب قبائل العربان والعشائر الموجودين بإقليم الحجاز ، بما يلزم تزويدهم من التعليمات ، وحيث أن الجيوش المذكورة في غاية من التمام والكمال والمتانة من جميع النواحي ، كما لو كان وقع الزحف من الشام وبغداد ، ماشاء الله ، ثم ماشاء الله ، ندعو الله خير الحافظين أن يحفظهم من إصابة العين ، وسوء النظر ، ويمن عليهم بتوفيقاته الجليلة آمين .

فيا مولاي عالي الهمم ، إني حيث أؤمل وآمل من عنايات حضرة واهب العطايا ، موقناً من غير أدنى اشتباه ، أن نوفق إن شاء الله تعالى ، إلى استجلاب الدعوات الخيرية لسلطنة حضرة ملك الملوك ، ولدوام جاه ولي النعم ، وجلاله في هذه السنة المباركة ، من الحجاج ذوي الابتهاج ، حال اصطفافهم قياماً بجبل عرفات ، معدن المغفرة والبركات ، وقع تحرير هذه العريضة عبدكم الشاكر على نعمكم ، والمثني عليكم ، وتقديمها في هذه المرة أيضاً إلى تراب أقدام حضرة المتفضل

بإسعاف مقاصد الراجين ، تبشيراً بذلك ، وطلباً لـدعواتكم السنيـة ، والتفضل بمـا أحتاج إليه من توجيهاتكم السنية المستوجبـة للتوفيق في حق هـذا الخـادم عنـدمـا أحاط علم حضرة عالي الهمم بمنه تعالى بكيفية الحال .. » .

في غرة رمضان ١٢٢٦ هـ ـ ١٩ سبتمبر ١٨١١ م .

هذه الترجمة طبق أصلها التركي
محمد زهدي

ملحق (٢٢)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة حفظها : محفظة (١٦) بحراً براً .
رقمها في وحدة الحفظ : (١٢٢) .
تاريخها : بدون تاريخ .

موضوعها : العريضة العربية العبارة ، المقدمة من طرف عبد الله ابن سعود ، إلى طرف الدولة العلية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للداء العضال دواء ، وحسم وألغى نيات الاعداء السيئة بالصلح والصلاح اللذين كانا أول مانع من الوقوع في المهالك المهلكة ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وأصفيائه محمد خاتم أنبيائه ، الذي بلغ أحسن أنبائه وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد :

فإني أطوف حول كعبة آمال العبيد التي هي أعتاب دولة قطب دائرة الوجود ، وروح جسد العالم الموجود ، وملاذ الحاضر والبادي ، ومحط رحال آمال الرائح والغادي ، علم الأعلام ، إنسان عين أعيان الأنام ، من نام في ظل عدله كل خائف ، ولجأ إلى حماه كل عاقل عارف ، ذي الأخلاق التي هي أرق من نسيم الصبا ، مع الهيبة التي تحل من أجلها الحبا سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، الذي برز بطلعته طالع السعود ، السلطان بن السلطان السيد السلطان محمود

الغازي ، وأقدم عريضتي هذه المشتملة على الضراعة ، وهي إنه لما كان داعيكم هذا من المسلمين الذين لا ينفكون عن أداء شروط الإسلام ، التي هي إعلان كلمة الشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، ومنع الظلمة من الإضرار بالناس ، وكف أيديهم ، والحث والحض على تأدية الواجبات التي هي حقوق الله تعالى ، ومفروضاته فوفقاً للأوامر الشاهانية ، نمنع الظالم المخيف ، ونضع يد الإسعاف والمعونة في يد المظلوم والضعيف ، ونرد النفوس الأمارة عن اتباع أهوائها ، ونسوقها ونقتادها ، إلى المنهج الشرعي الشريف ، ولذلك فقد حسد حضرة الشريف داعيكم هذا ، من عدوانه له ، ورماه بسهام الافتراء ، وجمع وحشد عساكره بمظاهرة البدو والحضريين لقتالنا ، ولكن لما كان قتاله لنا ظلماً وافتراءً ، وقتالنا دفعاً للشرور والبلوى ، عاد مخذولاً بصفة خاسرة ، ومع ذلك صرت أحج كل عام كسائر المسلمين ، ومع كوني لم أحدث حدثاً في الحرمين المحترمين ، تشبث المشار إليه بأذيال الخدعة والحيلة ، وادعى بأن الحجاج الواردين من قبل الدولة العلية ، لم يكن لهم غرض إلا السعي في الفساد ، وقتل النفوس في الحرمين الشريفين ، وخدع والدي وأغراه بزخرف الأقوال ، لمنع الحجاج وإرجاعهم ، وحجز عنده العرائض ، التي قدمها والدي إلى الأعتاب العلية ، عن هذا الخصوص ، بحجة أنه سيرسلها بواسطته ، وكتب عرائض أخرى مزورة على لسان والدي ، مخالفة للعرائض الأولى ، وقدمها إلى الباب العالي ، كما تحقق ذلك وتبين فيما بعد - وإنه وإن كان رأى ثمرة سوء أفعاله ، تصديقاً لقوله تعالى ﴿ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ، ولكننا لم نتدخل في شؤون البنادر الموجودة تحت يده ، ولم نجز الفساد الذي سعى فيه بين رعايا الدولة العلية ، وإنما وافقناه على إرجاعه حجاج المسلمين برأيه الخاص ، مجاراة له ، ومن الواضح أننا لا نجرؤ على منع حجاج المسلمين أصلاً ، لكونهم مستظلين بظل سطوة حمايتكم الشاهانية ، ولما كان حجاج المسلمين رحمة عامة لكافة البلاد والعباد ، وروافض الأعجام طامة وأي طامة ،

فالمشهور عنا أننا لا نتدخل ، ولا نتعرض بأي وجه كان ، لمرور حجاج روافض الأعجام ، وعبورهم في كل عام ، من حوالينا ، وعلى العموم فإن كل ما نسب إلى داعيكم هذا ، من أمور الطغيان والخوارج كلها ناشئ عن خدعة الشريف المشار إليه ، ودسيسته ، وقد كتم ، وأذكر ما بذلنا له من الحسنات ، وحرض الناس علينا ، ودعاهم إلى قتالنا بدون علمنا بذلك ، وفي النهاية جنّدَ الجند ووصل الأمر إلى مثابة إهلاك الحرث في أرض الغور والنجد ، وقد شمر حضرة صاحب الدولة الوزير الحاج محمد علي باشا والي مصر الحالي ، الموصوف بالجلادة عن ساعد الاهتمام والإقدام ، وأحال سيف الحرب والانتقام على العربان المحتشدين بالحرمين الشريفين ، وفي سائر الأقطار الحجازية فأرسل نجله المحترم ، والي جدة الوزير المكرم ، صاحب الدولة طوسون أحمد باشا ، مع الجيش الخديوي المظفر ، الذي سقى الأعداء سم العدم ، إلى موضع يسمى القصيم ، فلما وصل الوزير المشار إليه إلى الموضع المذكور ، ونصب فيه الخيام ، واتخذه مقراً للحرب والجدال ، وعُدَّ داعي هذا من ضمن الذين عصوا الدولة العلية ، وأوقد نار الحرب ضدنا ، أوضحنا لدولته كيفية أحوالنا ، وعرضنا اعتقادنا الصحيح ، إلى حضرة والده العالي المشار إليه ، والتمسنا الأمان من ذاته العلية ، صيانة لروح داعيكم هذا ، وأرواح قومنا وقبيلتنا ، وسائر من بجوارنا على أن نعلن الإطاعة للدولة العلية من الآن ونتبرأ من الذين اجتمعوا على تفريق الجماعة ، ورغبت في الصلح والصلاح ، وبادرت بها بحسب ما يجب على ذمة إخلاصي الذي تقتضيه حقوق الرعية ، وقدمت عريضتي هذه التي هي أشهر من المثل السائر . مصدقاً لصداقتي على أن لا أنفك عن قيد الإطاعة . وأن أعد من رجالكم القائمين بجميع خدمات الدولة العلية ، فهي برهان قاطع يشهد بأني قائم بالدعوات في الأعياد والمحافل ، وعلى المنابر بدوام عمركم ودولتكم ، وحينما يحاط علم مراحمكم بما ذكر أن تتفضلوا بالسماح والتجاوز عن جرائم داعيكم ـ هذا وذلاته السابقة واللاحقة ، ومحوها بالصفح الجميل عملاً بقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ . وذلك بمقتضى حلمكم

ومرحمتكم وشفقتكم اللتين هما ظل ظليل لأمن كل خائف وأمانه ، وهم شوكتكم وصلابتكم الملوكيتين القويتين اللتين هما فاحمتان لجلامد الصم ، والأمر والإرادة لحضرة من له الأمر .

ختم دائري ، الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود ، تحية عبد الله بن سعود .

ملحق (٢٣)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٤) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (٣٣) .

تاريخها : بدون تاريخ .

موضوعها : رسالة عربية الأصل ، من عبد الله بن سعود ، إلى محمد علي باشا .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد علي باشا ،

نحمدك اللهم على مامنيت به من الإصلاح ، بالصلح الحاقن لدماء المسلمين عن السفك بالسلاح ، وحميت به حمى الدولة الإسلامية ، عن الوقوع في إشراك البلية ، وكففت به أكف الأمة المحمدية ، عن بلوغ العدو فيها غاية الأمنية ، ونصلي ونسلم على أشرف الرسل الهادي لأحسن السبل ، محمد أكرم أنبيائه ، وأفضل أصفيائه ، وعلى آله الكرام وأصحابه هداة الأنام ، ثم ينتهي لحضرة الجناب العالي الدائم في طلب المعالي ، عزيز عصره ، وبدر دهره بلغه الله من المعالي ماشاء ، ذو الهمة العلية ، والأخلاق المرضية ، حرسه من طوارق البلا ، وبلغه ماأراد ، من الرتب العلا ، وبعد : فغير خافٍ على جنابكم ، حقيقة ، مانحن عليه ، وما ندعو الناس إليه ، إننا جاهدنا الأعراب ، حتى أقاموا الصلاة وآتوا

(✩) نرجح أن تاريخ هذه الرسالة عام ١٢٣١ هـ ـ ١٨١٥ م ، (المؤلف) .

الـزكاة ، وألـزمنـاهم صيـام رمضـان ، وحـج بيت الله الحرام ، ومنعنـاهم عن ظلم العباد ، والسعي في الأرض بالفساد ، وعن قطع سبل المسلمين ، والتعرض لحجاج بيت الله الحرام من الوافدين ، فعند ذلك شكوا إلي ، والي مكة غـالب ، ورمونـا بالكذب والبهتان ، وخرجونا ، وبدعونـا ، وقـالوا فينـا مـا نحن منه براء ، فسيَّر علينا بأجناد وعدد وعدة فـأعجزه الله ولـه الحمـد والمنـة ، فقـاتلنـاه دفعـاً لشره ، ومقـابلـة لفعلـه القبيح ، ومكره فرده الله بغيظـه ، لم ينـل خيراً واستـولينـا على الحرمين الشريفين ، وجدة وينبع ، فلما تمكنا من أوطانـه فعلنـا معـه كل جميل ، وأقريناه على مـا كان تحت يـده من البلـدان ، ووجهنـا مـدخول البنـادر إليـه ، وأكرمناه غاية الإكرام ، توقيراً للنسب الشريف ، وتعظيماً للبلـد الحرام ، ثم بعـد ذلك قام وقعد ، وأكثر التقلب واجتهد ، وبالغ عنـد أبي رحمـه الله في رد الحجـاج القادمين من جهتكم ، وزعم أنهم إن قدموا مكـة شرفهـا الله سفكوا فيهـا الـدمـاء ، واستحلوا حرمتها ، وأكثر القول فيهم ، حتى قال : إنهم أهل غدر وخيانة فظن أبي ذلك نصيحـة منـه ، فمنع الحجـاج خوف الفسـاد والفتن ، وكتب للـدولـة إذ ذاك كتباً مضمونها أننا لم نمنع الحجاج القادمين من تلك الجهات ، إلا لأجل ذلك ، فإن جـانـا من الـدولـة خبر تعتمـده أن الحجـاج القـادمين يحجـون البيت الحرام ، ويزورون المسجـد النبوي على صـاحبـه أفضل الصلاة والسلام من غير أن يحـدثوا حدثاً تستباح به حرمة الحرمين الشريفين ، فنحن نحميهم عن جميع من تحت يدنا من جميع حاضر وبـاد ، حتى يحجوا ويرجعوا إلى أوطـانهم ، ثم إن الشريف طلب من أبي رحمـه الله أن يتولى إرسـال تلـك الكتب التي هـذا مضمونهـا ، إلى الـدولـة فأجابه لكونه أعرف منا بتلك الجهة ، ثم إننا تحققنا أن ذلك مكر منه بنـا ، لأنـه أظهر للدولة عنـا غير ذلـك ، وصـار يكتب لهم على لسـان أبي مـا يورث العـداوة والإحن بيننا وبين الدولة من الكذب والبهتان ، ويمهر تلـك الكتب التي زورهـا بمهر قـد نقشـه بـاسم سعود ، ويحبس مـا كتبـه أبي عنـده ، وقصـده بـذلـك إثـارة الفتن ، واضطرام نـــار الحرب ، ونحن لا نشعر بشيء من مكره حتى ثـــار الحرب

بيننا وبينكم ، وأحاط به سوء فعله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ـ فعلمنا أن مطلوب الدولة العلية صيانة الممالك الإسلامية ، لاسيما الأقطار الحجازية ، ومن أعظمها صيانة الحرمين الشريفين ، والذب عن حماها الأحمى بلا ريب ولا مين ، والقيام للدولة على قدم السمع والطاعة والإقدام ، على إظهار المشعر بها ، حسب الاستطاعة ومنها الدعا بحضرة سلطان السلاطين نصره الله تعالى ، على المنابر ، وكف يد الأذى عن الوارد إلى الممالك المحروسة والصادر ، فأطفأنا من نار الشر حريقاً ، وفتحنا إلى الصلح طريقاً ، ولم نزل نجتهد في إبرامه ، حتى انعقد بين الفريقين ، وبذلنا الوسع في حقن الدماء من الجانبين ، وصورة ماوقع عليه انعقاد الصلح من الشروط ، محرر في الوثيقة مضبوط ، فبوصولها إليكم تشرفون على إجمالها ، وتفصيلها ، ونرجو أنكم تستحسنون مواقع تأسيسها وتأصيلها ، وتشرفون على كتابنا المعروض على حضرة السلطان ولكم الأمر بعد الله في جميع هذا الشأن ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

عبد الله بن سعود

ختم دائري

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود

ملحق (٢٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة حفظها : محفظة (٤) بحراً براً .
رقمها في وحدة الحفظ : (٩) .
تاريخها : ٢٩ صفر دون ذكر سنة .
موضوعها : رسالة عربية الأصل ، من عبد الله بن سعود ، إلى محمد علي .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد علي باشا :

حمداً لمن أحمى غراس المواصلة ، بوابل هنان المكاتبة والمراسلة ، وأماط به مادة المقاطعة والمفاصلة . والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من أرسله وعلى آله وصحبه ، الذين بلغوا من صحبته ومحبته غاية المنزلة ، إلى من شرفت به الدولة المرعية والرتب العلية حتى صار ملهج لسانها ، فحل من عينها مكان إنسانها فريد مصره ، ووحيد قطره ، بعد التسليمات الوافرة ، والتحيات المتكاثرة ، ننهي إليكم أدام الله سبحانه سوابغ نعمه عليكم ، أنه قد وصل إلينا كتابكم وفهمنا ماتضمنه خطابكم ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرح به ، والمشار إليه فيه ، وما ذكرتم من القبول ، لما انبرم من أمر الصلح إن كان ماقلنا حقاً ، وما حررناه محكماً وصدقاً ، فنحن بحمد الله للمكر والخديعة مجانبون ، وللصدق والوفاء بالعهد معاملون ، وليست الخديعة والمكر من شيم الكريم الحر ، والصدق قد تقرر من سيرتنا عند البعدا ، والفضل ماشهدت به الأعداء ، وليس

عندنا لكم إلا الصدق والوفاء ، فيما ظهر وخفي فلكم منا العهد والميثاق ، إننا لما جرى بيننا وبينكم ملتزمون ، ولأمر المعاقدة محققون ، فالواجب منكم مراعاة العهد بالتزام أحكام الحق ، وإيثار الرفق ، لما في ذلك من الصلاح الشامل ، والخير العاجل والآجل ومثلك وفقك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة ، ويكتفي بلمحة التبصرة ، لما تأوي إليه من السياسة والتجربة ، وما أشرتم إليه من حروبنا السابقة مع أهل الحجاز وغيرهم ، فلم نقاتل أحداً منهم ابتداء ، بل هم بدءوا بالقتال بغياً وعدواناً ، فقاتلناهم دفعاً لشرهم ، فجعل الله لنا عليهم سلطاناً ، ولم نقابلهم بما جرى منهم إلا إحساناً ، فلما كانت لنا القدرة عليهم ، أمرناهم بإقامة شرائع الإسلام ، والتزام سائر الأحكام ، من عبادة الله وحده لا شريك له ، وإقامة الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، فانحسم بذلك مواد شرهم وفسادهم ، لأن أكثرهم مفسدون في الأرض مضيعون لما أمر به الله من الواجب والفرض ، بل أكثرهم للطرق قاطعون ، وجملتهم للعبث مفكرون ، يقولون ماقاله سلفهم الأولون ، ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، فلما كانت لنا القدرة عليهم وجب علينا أن نحملهم على الشرع الشريف ، عملاً بقوله سبحانه : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ وبقوله ﷺ فيما صح عنه وثبت « من رأى منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ، ولأننا نعلم علماً قطعياً أن السلطان لا يرضى منهم بذلك ، ولا يأمر بدخولهم تلك المسالك ، وأما ماأشرتم إليه من اهتمامكم بالحرمين الشريفين وسعيكم في مصالحهما ، فهذا أمر قد تحققناه من سيرتكم ، وعرفناه من طريقتكم ، ونحن إن شاء الله نلتزم لكم بذلك ، فنكف عنهم الأذى ما استطعنا ، ونوصل من الأقوات إليهم ماقدرنا ، ونمنع حجاجكم من أرادهم بسوء ومكروه أو حام حماهم بأمر لا ترضوه ، ولو كان الحرمان الشريفان من أعوانكم خالية ، ومن عسكركم صافية ، لم يأتهم منا

ماتكرهون ، ولم يقع منا ماتحذرون ، فنم من طرفنـا قرير العين والقلب ، طيب الخاطر واللب ، فنحن إن شاء الله في طـاعـة الله ورسولـه يـدأ واحـدة ، على من سوانا معتصمون بحبل الله ، على من عادانا ، وفي الحقيقة ماتحت يدنـا من الجيوش والأعوان ، عسكر لكم وفي خـدمتكم ، بـلا ديـوان أن نسـأل الله العظيم أن يجمعنـا وإياكم على طاعته ، ويدخلنا دار كرامته ، ويعمر بالسؤدد ربعك ، ويوسع لحمل أثقـال المعـالي ذرعـك ، وصلى الله وملائكتـه وأنبيـائـه ورسلـه على أشرف خلقـه وخيرته من بريته ، محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

حرر في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر (بدون ذكر سنة) .

ختم دائري

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود ـ تحية عبد الله بن سعود .

ملحق (٢٠)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٥) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (١٨٦) .

تاريخها : ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ ـ ٢٥ يناير ١٨١٨ م .

موضوعها : ترجمة الكتاب التركي المرسل من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي مفصلاً لمعركة الشقراء ، ومبشراً بفتحها .

صاحب الدولة والرحمة ، مولاي ولي نعمتي :

أدعوا الله الذي لا يسأل عما يفعل ، أن يديم أيامكم ، ويطيل عمركم وإقبالكم ، وأن يجعل ظلكم السامي فيئاً دائماً ـ مؤيداً لمفرق عبدكم العديم الرياء ، موفقاً إياه إلى مافيه استدرار رضاكم المرضي من موافق الأعمال ، آمين .

وبعد ـ فيعرض عبدكم الدائم الولاء ، أنه بتاريخ إحدى عشر ربيع الأول الجاري ، قد حوصرت « قلعة الشقراء » ، وشرع في محاربة الوهابيين الذين في الأسوار ، وفي نحو العشرين برجاً ، المبنية جميعها حول الجوانب الأربعة للحدائق التي بخارج القلعة ، واستمر القتال بالمدافع والبنادق يوماً وليلة ، فهدم محل في السور ، ولم يتنفس الصبح إلا وقد أمر عبيدكم عساكر الموحدين . فخرجوا من متاريسهم منقضين على من كان في البروج ، وفي خلال الحدائق من الطائفة فمزقوهم وهزموهم بعناية الله تعالى ، ونفحات ولي النعم الطاهرة ، واستولوا على

أسـوارهم وبروجهم قـاتلين منهم عـدداً كبيراً ، ثم هجم على المتحصنين في السـور الآخر المنشأ تجاه نفس القلعة الأصلية التي بالمـدينـة المـذكورة ، وفي عـدة الأبراج التي فيها ، فتم أيضاً بإذن الله تعـالى فتح هـذا السور ، وتسخير أبراجـه ، كما وضع سيف القتل والعقاب في عـدد من الرقـاب ، وعلى الفور قربت المـدافع من جـدار القلعة ، بحيث صارت منه قيد ذراع ، واستمر القـذف والرمي ثلاثـة أيـام وثلاث ليال حتى تهدم شطر من السور ، وأسفر عن البيوت نفسها ظاهرة متكشفة ، فلما تقـوضت منـازل وخربت ، وانصرم حبـل رجـائهم في النجـاة ضجـوا بـالعـويـل والاستغاثة ، أن « الأمان ياإبراهيم » ارحم عيالنا ، واعف عما بـدا من تقصيرنـا ، هكذا التمسوا الأمان ، وجاء نفر من ذوي الكلمة المسموعة عن شيوخهم ، إلى مكان عبدكم فآمنتهم على شرط أن يقـدموا مـدافعهم الخمسـة التي في القلعـة ، وأن يسلموا كافـة الأسلحـة التي يحملهـا أربعمائـة مقـاتل من أعـوان عبـد الله ، الـذين جـاءوا لإمدادهم ، وعلى أن يعـاهـدوا أن يبيعوا لجنودي مـاهو عنـدهم من ميرة على هـذه الشروط ، منحوا الأمان فـأخـذ سلاحهم غنيمـة لعبيـدكم العسـاكر ، وأطلق سبيل أولئك الأعوان ، هذا ، وسيكون نهوضنا ومسيرنا على قلعة الدرعية ، بعد تـاريخ عريضتي هذه بعشرة أيام ، وإني قد سطرت عريضتي الفـائضـة بمفروض ثنـائي ، مضمناً إياها البشارة بهذه الفتوح العظيمة ، وبـاعثـاً بهـا مع عبـدكم « حسين آغـا » حاجتي (ياوري - جوقداري) إلى قدمي ولي النعم ، حتى إذا مـا حظت إن شـاء الله تعالى بسعد الوصول ، وتفضل ولي النعم الشامل العلم بالاطلاع عليهـا ، فـإنما الأمر يومئذ أمره والإرادة إرادته .

سيدي وولي نعمتي صاحب الدولة :

إن على مسافة خمس عشرة ساعة من « الدرعية » . إحدى عشرة قرية يطلق عليها اسم « وادي السدير » ، وإن جميع شيوخ هـذه القرى ، قـد أوفـدوا رجـالهم إلى عبدكم طـالبين الأمـان ، مبـدين استعـدادهم للخضوع لخـادمكم ، والـدخول في

حوزة حكمه ، ومن ثم لا يكون القتال منظوراً في غير الدرعية ، غير أن فتح الدرعية وإحلال النظام فيها منوطاً بثلاثة أمور ، أولها : (النقود) وثانيها : (مقذوفات المدافع ، قبود بوار ألفي) وثالثها : (الجنود المشاة) - فمع أن لدى عبدكم مقذوفات كثيرة ، ومبالغ من النقود وافرة إلا أن استدامة ورودها وتواليه لمن مستحسن الأمور ، وأجلها خطراً ، لأن قاعدة الحرب معلومة حق العلم لدى مولاي صاحب الدولة ، فلقد سمع عبدكم أن من كان ظهره وخلفه متيناً كان ختام مصلحته أدنى إلى السهولة واليسر ، وكذلك أصبحت المقذوفات والنقود والجنود المشاة بمثابة القلب والقوة من عبدكم إذ لولا التعول على المدافع في معركة الشقراء المذكورة أيضاً لما كان شك في هلاك الكثير من الجنود المشاة وللزم المشي لاقتحام القلعة نفسها ، وهكذا اضطلعت المدافع بهذا العبء وحملته فكانت قتلانا وجرحانا في هجومنا الأول أربعين جندياً ، في حين قتل وأعدم من طائفة الوهابيين نحو مائة وخمسين ، هذا ، ولم يأت إلى خادمكم لغاية تاريخ عريضته ، أي من عبديكم « أحمد آغا أبو شنب » ، و« بهرام آغا » وهما رئيسا الجنود المشاة - اللذان أمرا واحداً بعد الآخر ، بالسفر من مصر ، مع أن هذا هو أوان استخدام المشاة ، فمتى أحاط شامل علمكم بهذه الحال ، فعسى أن تتفضلوا فتستجيبوا لمسؤول عبدكم العاجز ، بأن لا تقطعوا عنه النقود والمقذوفات ، وبأن توصوا رئيسي المشاة المندوبين للسفر بالإسراع في قدومهما إليَّ ، وعلى كل حال فالأمر أمركم والمشيئة مشيئتكم .

في ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ - ٢٥ يناير ١٨١٨ م .

ختم

سلام على إبراهيم

ملحق (٢١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة حفظها : محفظة (٥) بحراً براً .
رقمها في وحدة الحفظ : (١٨٧) .
تاريخها : ٢٥ جمادي الأولى ١٢٣٣ ـ ٢ أبريل ١٨١٨ م .
موضوعها : حرب الدرعية .

حضرة صاحب الدولة والرحمة والمروءة ، مولاي ولي نعمتي وسلطاني :

إن معروض عبدكم المستديم ، أنه قد تيسر لنا الوصول بمشيئة الله تعالى إلى الدرعية ، بتاريخ غرة شهر جمادى الأولى هذا ، ونصبنا الخيام في مسافة ساعة ونصف ساعة من الدرعية ، وتحركنا من المحل المذكور أيضاً في اليوم الرابع من الشهر المذكور ، وفي أثناء وصولنا وحفر المتاريس (الخنادق) في موضع مقابل لمتاريس عبد الله بن سعود ، الواقعة بمسافة نصف ساعة من الدرعية ، إذ ابتدر بإطلاق مدافعه الثمانية أو العشرة بدون توقف وانقطاع ، ولكن مع دوام الحرب بالمدافع في اليوم المذكور ، أجرى اللازم أيضاً من جهة أخرى ، نحو إقامة المتاريس وتقوية الجبال يميناً ويساراً ، وبما أن الدرعية كائنة بين جبلين ، فوزع وقسم المذكور الوهابيين الذين يزيد عددهم على الثلاثة آلاف من الجبال ، وأطراف مضيق درعية ، وفي داخل الحدائق المختلفة ، وبقية أعوانه في داخل الأسوار والأبراج ، وقوى متاريسه تقوية جدية على وجه لا ينفذ فيها القذائف (المرميات) فبعد إقامتنا خمسة أيام على هذه الحالة وأعطاؤنا المتانة اللازمة إلى

متاريسنا وطوابي مدافعنا نحن أيضاً قد هجمنا على متاريس الوهابيين الواقعة في جهة الشمال ، وأخذناها من يدهم واضطرارهم إلى الفرار نحو متاريسهم الثانية ، ومع الاستمرار في القتال في المحل الذي أخذناه مقدار ساعتين ، قد عملنا متاريساً طوابياً للمدافع ، ومكثنا فيه بضع أيام ، وبعد تقوية المحل المذكور أيضاً ، قد هجم فرساننا من جهة وخدامكم عساكر المشاة من جهة أخرى على أتباعه الموجودين في جهة الجبل اليمني ، وأخرجوا من متاريسهم ، وقتل وأعدم مقدار مائة وخمسين منهم ، وجرح مافوق المائتين ، وحيث أن بقية السيوف التجأت إلى المتاريس التي في ورائها القريبة من القلعة الأصلية المهدومة ، فوضع خدامكم جنود الموحدين في المحل المحتل ، وجرى أعمال الطوابي المتينة للمدافع أيضاً ، وأقمنا بضع أيام أعطينا في بحرها المتانة إلى المحلات اللازمة ، وهدمنا أحد أبراج قلعته وجزءاً من أسواره بالمدافع ، وقد نبهت على عبدكم « بهرام » بالهجوم على الأبراج المهدومة ، ونحن على وشك الدخول في الأبراج المذكورة والاستيلاء عليها بعون الله وعنايته ، وبهمة مولاي ولي النعم السامية ، إذ الوهابيين الموجودين في جهة شمالنا خرجوا من متاريسهم ، وهجموا على متاريسنا ولكن انهزموا بنصرة الله الملك المستعان ، وعندما رأيت عبدكم تشتتهم وانهزامهم ، قد أخرجت جميع خدامكم الفرسان والمشاة في متاريسنا الكائنة في اليمين والشمال ، وفي مضيق درعية ، وهجمنا على متاريسهم وطابية مدافعهم ودخلنا معهم في داخل الأسوار والأبراج مندمجاً لبعض ، واستولينا على المحلات الواقعة في مسافة مرمى مدفع إلى بلادهم الأصلية ، وغنمنا أربعة أعداد من المدافع الصفر (النحاس الأصفر) التي كانوا أخذوها في السنوات السابقة ، ومحونا أربعمائة نفر من الوهابيين ، وقويت أيضا المحلات التي استولت عليها ، وإنه صمم إرسال أحد خدامكم إلى أعتاب ولي النعم ، ببشارة فتح وتسخير درعية هذه ، إلا أنه اكتفى الآن برجاء عدم انشغال أفكاركم في هذه المسألة ، حيث أنها ستنتهي بدون شك طبق رغباتكم ، وإن عدد وهابيين الذين قتلوا وفروا في هذه الحروب يبلغ الألفين ، وحيث أن رجوع

عبدكم إلى المدينة المنورة بعد ختام هذه المسألة ، أو إقامتي في هذه الجهات ليست معلومة عندي ، فألتمس التكرم بإشعار ذلك لاتباع إرادتكم السامية التي ستصدر بهذا الشأن ، وإني لأحتاج الآن إلى الذخائر والمهمات من اللوازم الحربية ، ولاضيق لدينا بخصوص النقود أيضا ، ولكن لابد من إرسالها للزومها بعد الآن على كلتا حالتي الإقامة والعودة ، وقد توفي إلى رحمة الله تعالى عبدكم « أحمد آغا أبو شنب » من قواد ولي النعم ، في أثناء الحروب قبل اثني عشر يوما من تاريخ عريضة عبدكم هذه ليطيل المولى عز وجل عمر مولانا ولي النعم ٠٠ وإنه حضر أيضا عبدكم الحاج علي آغا الدرمللي (الدرامه لي) قبل ثلاثة أيام من التاريخ المذكور إلى طرف عبدكم ، وقد أطلعت عبدكم على مآل ومفهوم مكاتبتكم الكريمة السامية التي صار التكرم بإرسالها ، وحيث أن سروري وحبوري الذي تولد من حسن أنظار دولتكم ، ومحاسن آثار فخامتكم بلغ درجة الكمال ، فكررت أدعية دوام أيام عمركم ودولتكم التي هي فريضة ذمة عبدكم وقد حررت عريضة عبدكم هذه ببيان أنه صار إرسال ثلاثون عددا من أوراق المكاتبات البيض التي أمر بإبعاثها في مثل أوامركم العلية . وسياق الإفادات الأخرى وأرسلت وقدمت إلى أعتاب ولي النعم التي تقضي الحاجات بمعرفة عبدكم إبراهيم نجل شيخ الهلالية من قرى قصيم فإن شاء الله تعالى لدى شرف الحصول والتفضل بإطلاع دولتكم على كيفية الأحوال والأخبار السارة ، فالأمر ، والفرمان يامولاي صاحب الدولة والرحمة وولي نعمتي .

٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٣ هـ - ٢ أبريل ١٨١٨ م .

ختم
سلام على إبراهيم

وثيقة (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .
وحدة الحفظ : محفظة (١٦) بحراً براً .
رقمها في وحدة الحفظ : (٥٧) .
تاريخها : بدون تاريخ .
موضوعها : تقرير عن أخبار منطقة نجد .

« صورة الحوادث « الأخبار » الواردة من زيله زاده ، عما يتعلق بأحوال الشرق . في شهر ربيع الأول ، نقل شيخ عتيبة ، محمد الأعرج بن مشاري المعمر ، أهله وعياله لقرية سدوس ، وانتقل هو إلى بلدة الرياض ، متظاهراً بأن ذلك لمصلحته ، وهناك اتفق مع أهل الدرعية ، ثم نصب الأعرج المذكور راية ، على بابه ، فأخذ الأهالي يتفادون ويجمعون عيالهم وأهليهم ، وينقلونها إلى الدرعية ، وبدأوا بزراعة أرضها ، وأرسل لأهل العارض ، ووشم والسدير ، الكتب وأتى بتركي بن عبد الله ، الذي هو وعياله في جهة الجنوب ، وولده وأخيه زيد وعمر بن عبد العزيز ، المشقوق المشقة « الأعلم والأفلح » وأولاده ، وجاء من أهل الجنوب مع تركي المذكور ، نحو مائة شخص وجاء من وادي الدواسر مع عمر المذكور ، ثلاثمائة حمل مابين حنطة وتمر ، وقهوة ، على سبيل المعاونة ، فلما سمع شيوخ « الأحساء » الشيخ محمد ، والشيخ ماجد ، آل عريفة[1] بذلك ، قاموا من الأحساء حتى إذا وصلوا إلى سهل تبانة على بعد أربع ساعات ، من الدرعية أرسلوا

---

(١) هكذا وصحتها « آل عريعر ».

إلى أهل الدرعية ، وغيرها من البلاد خطابات ، مع رجال مخصوصين ، يدعون المطيعين للدولة العلية ، للحضور عندهم ، والكلام معهم ، فلم يذهب من أهل الدرعية ، أحد لمواجهتهم ، ولا من أهل البلاد الأخرى ، غير اثنين من شيوخ الخرمة ، زقم بن زامل ، والشيخ كليب البجاوي ، فأرسلوا لأهل الدرعية كتباً ، ثاني مرة ، قالوا فيها : ياأهل الدرعية إنه صدر أمر سلطاني ، بضرب هذه البلدة ، وتخريبها ، وأن دولة أفندينا إبراهيم باشا ، سيجعلها قاعاً صفصفاً ، وسيجلي عنها أهلها ، ونحن لا نحب ، أن تكونوا أنتم وبلادكم عرضة لذلك ، فأرسل إليهم أهل الدرعية درعين هدية ، وكتبوا لهم قائلين : نحن فرقة أخرى ، فلا تجيئوا عندنا ، وإذا أبيتم إلا المجيء ، تكون العاقبة وخيمة ، ونحن لا نجيء عندكم ولا نقابلكم .

ثم بلغنا على الوجه المحقق ، أن شيوخ « الأحساء » ، حصدوا الكلأ الموجود في باب سمحان ، وأطراف عرقة[1] ، وأطعموه جمالهم ، وأغاروا على أهل عرقة ، فقتلوا منهم ثلاثين شخصاً ، ونهبوا قافلة المسيرة ، والمهمات القادمة من الرياض ، إلى الدرعية ، وقتلوا بضع أشخاص ، من أهل الدرعية ، وأتلفوا خمسة أو أربعة أشخاص ، في أثناء الوقعة من بني خالد ، ثم رجعوا إلى جهات الأحساء .

الكاتب : استعملت صيغة الجمع مع شيوخ : الأحساء ، مع أنهم إثنان باعتبار من معهم من الأتباع .

عودة إلى تتمة الكلام على شيخ عتيبة .

« سمعت أن الأعرج ، كان قبلاً دفن ، في الدرعية ، مدفعين صغيرين ، للاحتفاظ بها ، فلما زحف ابن عريعر شيخ « الأحساء » على الدرعية ،

(١) عرقة : هي الآن قرية ذات إمارة ، من إمارات الرياض ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٩٥٨ .

استخرجها الأعرج المذكور ، واستعان بها على مقاومة بن عريعر ، والتفوق عليه ، وأن الموجود اليوم في الدرعية ، ألف ومائتا شخص ، وسمعنا أيضاً أن محمد بن مشاري : شيخ عتيبة الأعرج ، السالف الذكر ، بعدما استقر بالدرعية ، سمع أن مشاري بن مسعود ، الذي فر من مضيق « الجديدة » ، ذهب إلى جبال شمر ، وأقام فيها فأرسل له مراراً متعددة هجانة ، يدعوه إليه ، فقام مشاري بن سعود من جبال شمر ، حتى إذا وصل إلى قرية القصيبة[1] من قرى القصيم ، فلم يدخلها ، بل كتب إلى أهلها ، يستأذنهم بالسماح له بالدخول ، وإلا عاد على أدراجه ، فأجابوه مرحبين به ، فدخلها وأقام فيها ثلاثة أيام معززاً مكرماً ، هو ومن معه ، ثم رحل عنها إلى قرية « العيون »[2] ، فاستأذن أهلها ، فرحبوا به ، كما فعل أهل القصيبة ، ثم رحل عنها إلى قرية « بريدة »[3] ، فخرجوا لاستقباله ، بموكب حافل وأكرموه إكراماً ، فوق الحد ، وخلعوا عليه ، وعلى أتباعه الخلع النفيسة ، وأعطوه العطايا الكثيرة ، وبأثناء إقامته في قرية « بريدة » كتب إلى أهل القصيم ، وأهل نجد وغيرهم .

وحاصل القول أن جميع حضري أهل نجد ، التحقوا بمحمد بن مشاري « شيخ عتيبة » ، مشاري بن سعود ، ولكن شيخ « الخريمة » حمد آل مبارك ، وشيخ « ثرمدة »[4] ، سلطان بن عبد الله وشيخ الرياض ، ناصر ، وأهل

---

(١) القصيبة : هي القصيباء ، من قرى بريدة ، بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٣) ، ص ١١٦٣ .
ورواية الأحداث في هذه الوثيقة تختلف عن رواية ابن بشر .

(٢) العيون : هي قرية عيون الجواء من قرى بريدة بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ١٠٣٢ .

(٣) بريدة : هي حالياً من أكبر مدن المملكة العربية السعودية ، ومقر إمارة بلاد القصيم ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٢٧٤ .

(٤) ثرمدة : بلدة في منطقة الوشم بمنطقة شقراء ، في إمارة الرياض ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٣٣٠ . وناصر بن حمد العائذي .

زلفى[1] ، لم يقابلوا محمد بن مشاري ، ولكن القوافل تـذهب وتجيء بين الخريمة ، والدرعية وإنما جاء صالح بن غبيثر ، من أهل الدرعيـة ، إلى بريـدة .، وتعـاهـد مع مشاري بن سعود .

في المنفوحة ، اتفق ابن سعيـد ، الـذي هو في « المنفـوحـة »[2] ، مـع أهلهـا وطردوا .. المنسوبين لقبيلـة المـزاريـع ، فـالتجـأ إلى شيخي « الأحسـاء » محمـد ، ماجد ، آل عريعر ، فلما كانا جهة الدرعية ، مـدا المزاريع[3] بـالقوة ، ليعودوا إلى المنفوحـة ، عنـدمـا كاد المزاريع يستولون عليهـا ، ويقيمـون فيهـا حتى قـام عرب السبيع الذين هم في قرية « حاير »[4] ، وبادروا لمعاونة عرب آل سعيـد ، فحضروا المزاريع ، في منزل ، وقتلوا منهم محمد بن سليمان بن مزروع ، وثمانية من أتباعه ، وأخرجوا الباقين بالأمـان ، وتسلم آل سعيـد « المنفوحـة » ، ويقـال أن نـاصر بن حمد ، شيخ الرياض ، قتل في هذه الوقعة .

أهل سدير : طرد المدعو ، غصاب ، شيخ الروضة القـديم . محمـد الأعور بن ماضي ، وسيد من أقاربه ، وقام هو وفهيد بشياخة الروضة[5] .

في بريدة : قام حفيد حجيلان هو ومحمد بن غانم ذينك الخبيثين اللـذين فرا من القطيف ، لجانب بن تامر من قبل ، بشياخة بريدة .

في قريـة دامق : فر شيخهـا السـابق ، سـالم الهزاع إلى « الشنـانـة »[6] فقـام

(١) زلفى : بلدة يتبعها عدد من القرى في إمارة من إمارات الريـاض ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٦٨٥ .

(٢) المنفوحة : قرية ذات إمارة من إمارات الرياض ، المعجم المختصر ، ق (٣) ، ص ١٤٣٢ .

(٣) المزاريع : هم عشيرة دهام بن دواس المشهور وكانت إمارة منفوحة لهم سابقاً .

(٤) حاير : قرية فيها مركز يتبعه قرى في منطقـة إمـارة الريـاض ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٤٠٤ .

(٥) الروضة : من قرى منطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٦٥٦ .

(٦) الشنانة : من قرى الرس ، بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٣) ، ص ٨١٠ ـ ٨١١ .

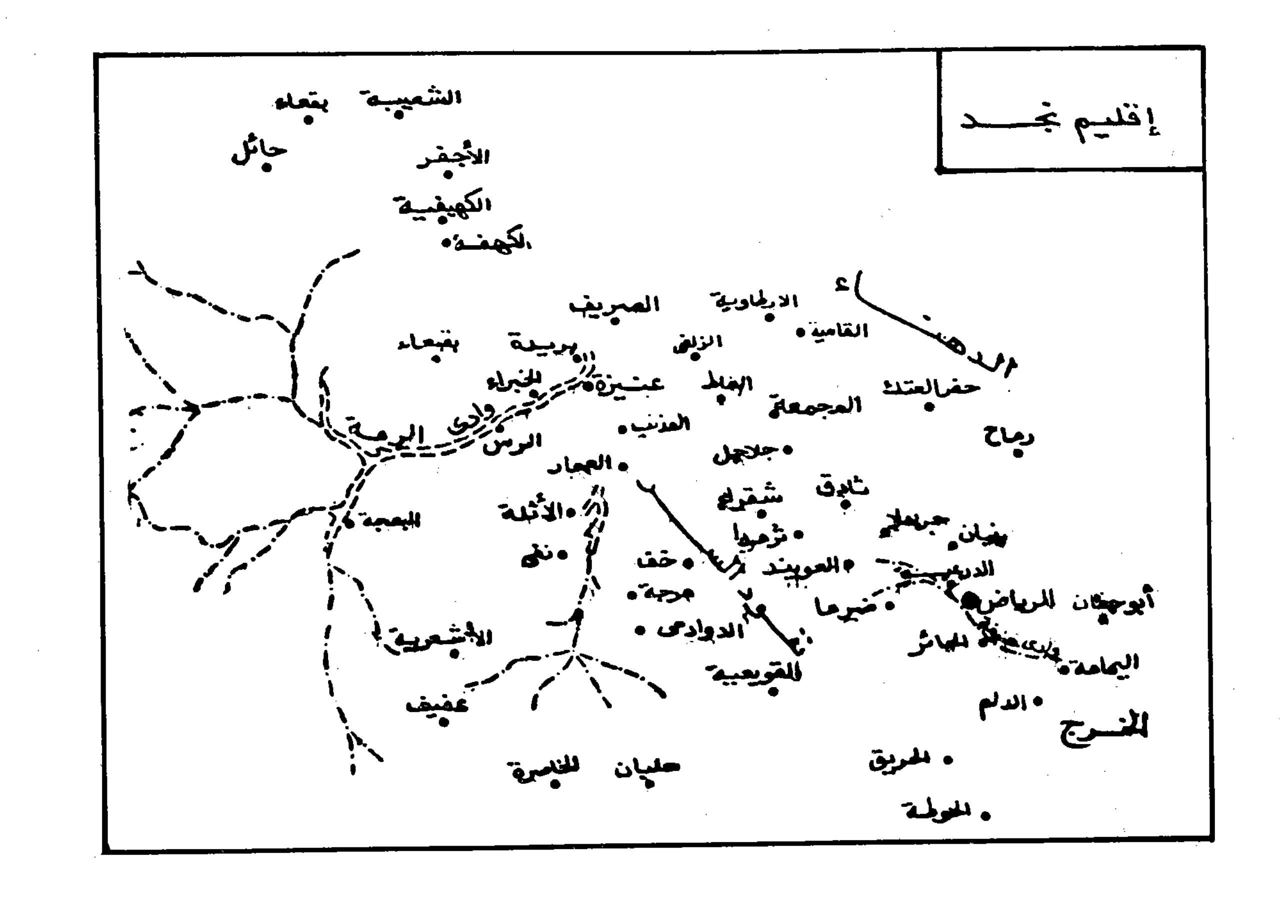
بالشيـاخـة فيهـا قرنـاص وشـارخ في عنيزة[1] فيهـا أربعـة شيوخ ، ولكن لا أعرف أسماءهم غير أن اثنين منهم تعاهدا مع مشاري بن سعود .

هذه حقيقة الأخبار التي أخذت من عبد الله الجميعي ، شيخ عنيزة السـابق ، سيدي .

---

(١) عنيزة : هي الآن بلدة ذات إمارة من إمارات منطقـة القصيم يتبعهـا عـدد من القرى . المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ١٠١٣ .

وحفيد حجيلان هو عبد الله بن حجيلان بن حمد قتله رشيـد بن سليـان الحجيلاني صـاحب بريدة لأن حجيلان قتل سابقاً سليمان الحجيلاني سنة ١١٩٦ هـ لاحظ تاريخ ابن بشر .


إقليم نجد
الشعيبة
بقعاء
جائل
الأجفر
الكهفية
الكهفة
الصريف
الأرطاوية
القاعية
الزلفي
بريدة
عنيزة
الخبراء
وادي الرمة
الرس
العزنية
المجمعة
حضالعتك
رماح
العمار
جلاجل
ثادق
شقراء
البعجة
الأثلة
نفي
ثرمدا
حق
العوينة
الدرعية
أبو جفان
الرياض
ضرما
مرحة
الدوادمي
القويعية
اليمامة
الأشعرية
عفيف
الدلم
الخرج
الحريق
الحوطة
حلبان
الخاصرة

وثيقة (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة الحفظ : محفظة (٧) عابدين .

رقمها في وحدة الحفظ : (٢٠٩) .

تاريخها : ١٦ جمادى الآخرة ١٢٣٥ هـ / ٣١ مارس ١٨٢٠ م .

موضوعها : رسالة من علي باشا الصدر الأعظم ، تحذر ، محمد علي من أعمال الإنجليز التي قاموا بها ، في منطقة الخليج ، وتطلب منه عدم الاطمئنان لأفعالهم في اليمن[1] .

« حضرة صاحب السعادة ، والمكلة ، والمودة ، أخي العزيز :

« سبق أن أفاد للباب العالي ترجمان إنجلترا المقيم ، في الأستانة ، مأذوناً من طرف إنجلترا : أن جنرال إنجلترا الموجود ، في جهة الهند ، قد عقد النية ، على ترتيب عدة سفن حربية ، وتسييرها من جانب بمباي ، ومعها مقدار ما يكفي من العساكر البرية ، بالمخابرة مع العساكر ، الذين هم تحت إدارة نجلكم حضرة صاحب السعادة إبراهيم باشا ، والي جدة ، بقصد إدخال أهالي المحلات الواقعة في الجهات الشرقية ، من إقليم اليمن ، وأن الجنرال السالف الذكر ، قد بين الكيفية لنجلكم المشار إليه ، بمعرفة ضابط (أوفجيال) ، وحرر لصوب سعادتكم ، من طرف سلف مخلصكم تفصيل الوصايا اللازم إجراؤها في هذا الشأن ، وقد حرر في قائمتكم

---

(١) هذه الوثيقة تتعلق بالحملة البريطانية على رأس الخيمة عام ١٨٢٠ .

الواردة ، في هذه المرة ، ومكاتبتكم المرسلة ، أنه سبق إرسال الجواب اللازم ، عن التحرير السالف ذكره ، وأن الجنرال الإنجليزي الموجود في جهة الهند ، كان أرسل سنة خمس وعشرين ، ومائتين وألف ، عدة سفن ، وسيرها على أهالي القواسم ، (هكذا في الأصل) وكانت الغلبة في جانب الأهالي المذكورين ، في المحاربة التي جرت بينهم ، وبين الإنجليز ، ثم رتب الجنرال المذكور ، عساكر من طرف الهند ، وأرسلهم تكراره عليهم ، واتفق العساكر وسفائن الأسطول ، التي أرسلها مع إمام مسقط ، فدهموا الأهالي المذكورين ، وتغلبوا عليهم واحتلوا مواقعهم ، وإنه وإن سبق إرسال مكاتبة من طرف سعادتكم إلى إمام مسقط المومى إليه ، لأجل أن لا يرغب في الاتفاق مع الإنجليز ، لكن لم يرد لحد الآن جواب منه ، عن تلك المطالبة ، وذكرتم في قائمتكم المذكورة مطالعات سعادتكم وملاحظاتكم[1] .

وهذا الجنرال المدعو البركير[2] قد ورد إلى حوالي مسقط ، ومعه سفن إنجليزية ، وحاصر قلعة رأس الخيمة ، التي هي مسكن قراصنة زاكيم (هكذا) ، وجمعهم ، واستولى عليها ، وكان شيخ زاكيم في أول الأمر ، لاكنه عاد ورجع إلى الجنرال المذكور ، وأقام الجنرال مقداراً من العساكر في البلدة المذكورة ، ثم أخذ يدور ويطوف ، ويتجول في سواحل بلاد العرب ، حتى استقر في جزيرة البحرين ، ومن هناك يقصد نحو القطيف ، الذي سبق ضبطه من قبل عساكر سعادتكم ، كما ذكر في ورق حوادث قدمه سفير فرانسة بالأستانة ، وقد وردت تحريرات ، تتعلق بالحوادث المذكورة ، من حضرة صاحب السعادة داود باشا ، والي بغداد أيضاً ، وحيث لم يرد لحد الآن جواب سعادتكم المتعلق بذلك ، الذي أشرتم إليه أولاً ، قد سلمت بعبدكم نجيب كتخداكم ، خلاصة تحريرات ، والي

---

(١) يشير بذلك إلى الحملة البريطانية على الساحل العماني ١٨١٩ م ، والتي انتهت بتوقيع معاهدة ١٨٢٠ م ، مع شيوخ الساحل العماني .

(٢) هو الجنرال وليم جرانت كير William grant keir.

بغـداد ، مع صـورة ترجمـة ورق الحـوادث المـار ، بيـانـه ، المقـدم من طرف سفير فرانسة ، لأجل الاستعلام ، عمـا عنـدكم من المعلومـات ، في هـذا الشـأن ، وعقب ذلـك ورد جوابكم المشيري المحرر ، في المرة الأولى ، المفيـد أن إبراهيم بـاشـا المشـار إليه ، حينما كان في الدرعية ، أتى إليه ضابـط من طرف الجنرال المـذكور ، وأفـاد عن ترتيب مقدار ، من العساكر من قبل الجنرال المـذكور ، لأجل إدخـال أهـالي القواسم (هكذا في الأصل) ، تحت النظـام ، ومنعهم من التعـديـات ، التي تجري منهم ، نحو سفن الإنجليز ، في تلـك الجهـات ، والتماسـه ، مـوافقـة عسـاكر المشـار إليه ، على ذلك ماأفـاده المشـار إليـه ، لصوب سعـادتكم ، وإنكم حررتم إلى نجلكم المشار إليه ، أن يرد هذا الطلب ، بحكمـة وتلطف ، حتى رد نجلكم المشـار إليـه ، هذا الطلب . وأعاد الضابط المذكور ، بصورة حكيمة متعللاً ، بأنه قد وعـد لـه ، ولعساكره بالاستراحة ، بعد فتح الدرعية ، إزالـة للأتعـاب اللاحقـة بـالعسـاكر ، الذين هم بمعيته ، وأنـه أرسل لصوب سعـادتكم ، خطـاب الجنرال المـذكور إليـه[1] المحرر بـالإملاء ، الفـارسي ، فـأرسـل إلينـا ، وقـد عرضنـا جميـع تلـك المحررات للأعتاب السلطانية ، فأصبحت مشمولة بأنظار حضرة السلطان .

فعلى ذلـك ، نفيـدكم أن من المبرهن عنـد ذاتكم الأصفيـة ، أن أقـوال الـدول الإفرنجيـة ، وأفعـالهم ، في كل وقت ، وإنمـا تـدور حـول أربـاحهم ، وتجري وراء ترويج آمالهم ، فلا يجوز ائتمانهم في زمن من الأزمان ، فمن لوازم حكمة الحكومـة ، عـدم التغـافـل عن أعمـالهم ، المنطـويـة ، على الخـداع ، وليس قصـد الإنجليز من ذلك ، غير إيجـاد ذريعـة ، لمـد يـد التسلـط إلى تلـك الجهـات ، كما سبق إشعـار ذلك ، لصوب سعادتكم ، من طرف سلف مخلصكم ، ويستفاد من مطالعة خلاصة مكاتبة حضرة والي بغداد ، وصورة ترجمة ورقة الحوادث المار ذكرها ، المقدمة من

---

(١) يشير بذلك إلى بعثة الكابتن سادلير Sadlier

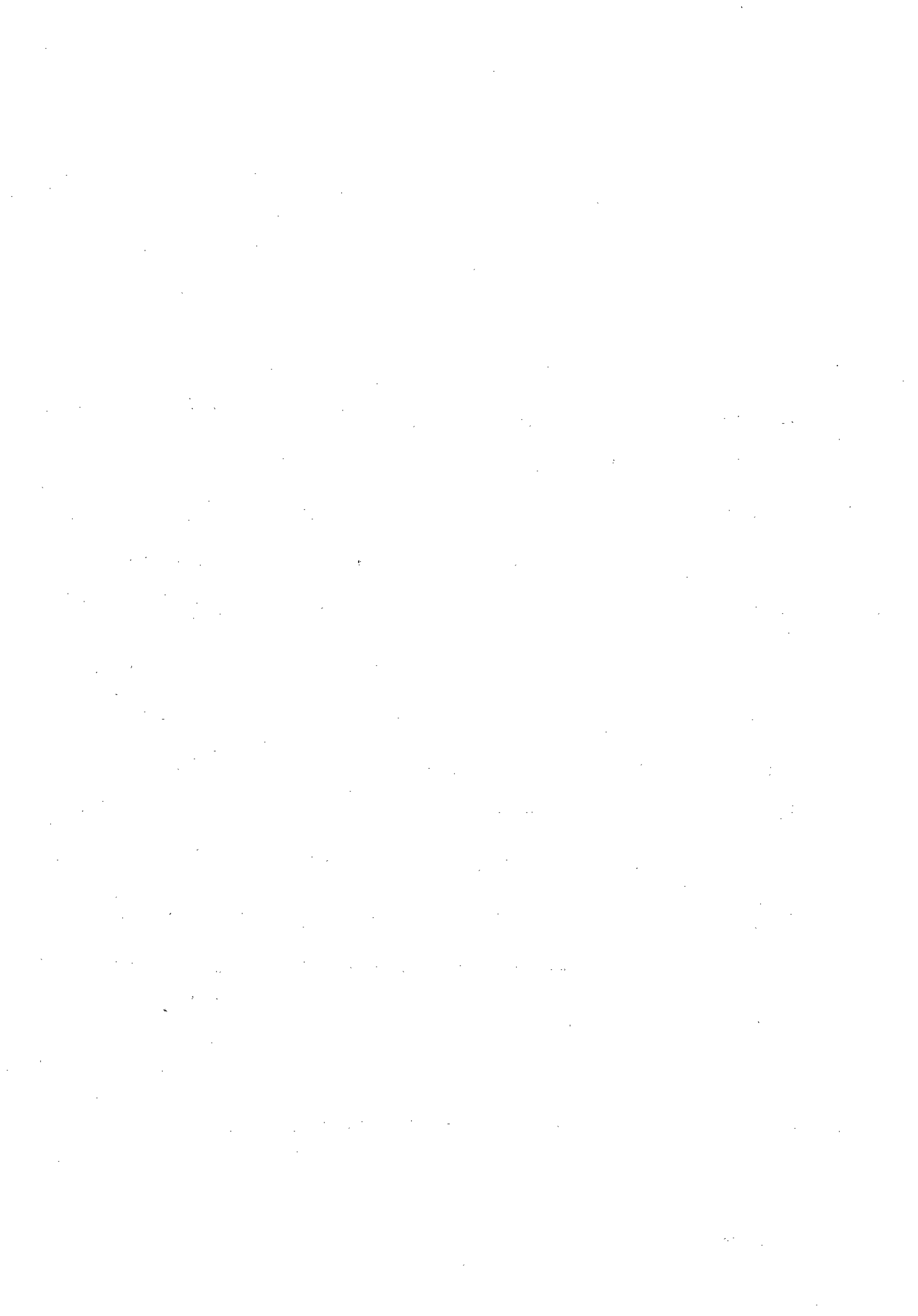
طرف سفير فرانسة ، المرسلتين إلى صوب سعادتكم ، بواسطة كتخداكم بالباب العالي ، أن مرمى الإنجليز مقصدهم الفاسد ، هو جعل بعض المحلات في تلك الجهات ، في قبضة تصرفهم ، واستقرارهم فيها .

فجوابكم الواقع ، للجنرال المذكور ، في محله تماماً ، لكن حيث لا يبعد من الملاحظة ، أن الإنجليز لا يخلون من المضي ، على إبراز مقصدهم الكامن ، في دماغهم الفاسد ، من القوة إلى الفعل ، وتكرير الخداع ، ولو بالمراجعة إلى طريقة أخرى ، سيئة فيما إذا لم ينجحوا في ماكرتهم ، يجب في هذا الوقت ، كمال التبصر ، كل حين ، والاهتمام التام بعدم الغفلة ، عن وسائلهم ، والإقدام على استكمال وسائل عدم تمكنهم من ضبط محل ، في تلك الجهات ، وقد جرى الأمر السلطاني أيضاً ، في هذا المجرى ، فالمطلوب العالي ، بمقتضى نفاذ نظركم ، وفطانتكم ، وكياستكم ، وتجريبكم عند اطلاعكم على مقاصدهم الفاسدة ، من خلاصة التحريرات المار ذكرها ، ومن صورة ترجمة ورقة الحوادث المذكورة ، أن تكون حركتكم بكل تبصر ، عن غير انخداع ، بملاعيب الجنرال المذكور أصلاً ، وأن تهتموا بعدم تمكنهم من ضبط بعض محلات من تلك الجهات ، وأن تلاحظوا هذه الشؤون من أطرافها ، مع استكمال أسباب المدافعة ، واستحضارها ، وإشعار الكيفية لهذا الطرف ، وقد حررت قائمة مودتنا هذه ، لبيان ذلك وأرسلت إلى نادي سعادتكم ، فالمأمول لدى وصولها ، إن شاء الله تعالى ، أن تبذلوا الهمة ، للعمل على الوجه المحرر » .

في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٣٥ هـ / ٣١ مارس ١٨٢٠ م

الختم

سيد علي



مسرد الأعلام

« أ »

« ب »

« ت »

« ث »

« ج »

« ح »

« خ »

« ش »

« ص »

« ض »

لا يوجد

« ط »

« ظ »

لا يوجد

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

مسرد الأماكن والبلدان

« ت »

« ث »

« ج »

« ذ »

« ر »

« ز »

« س »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »



مسرد الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة